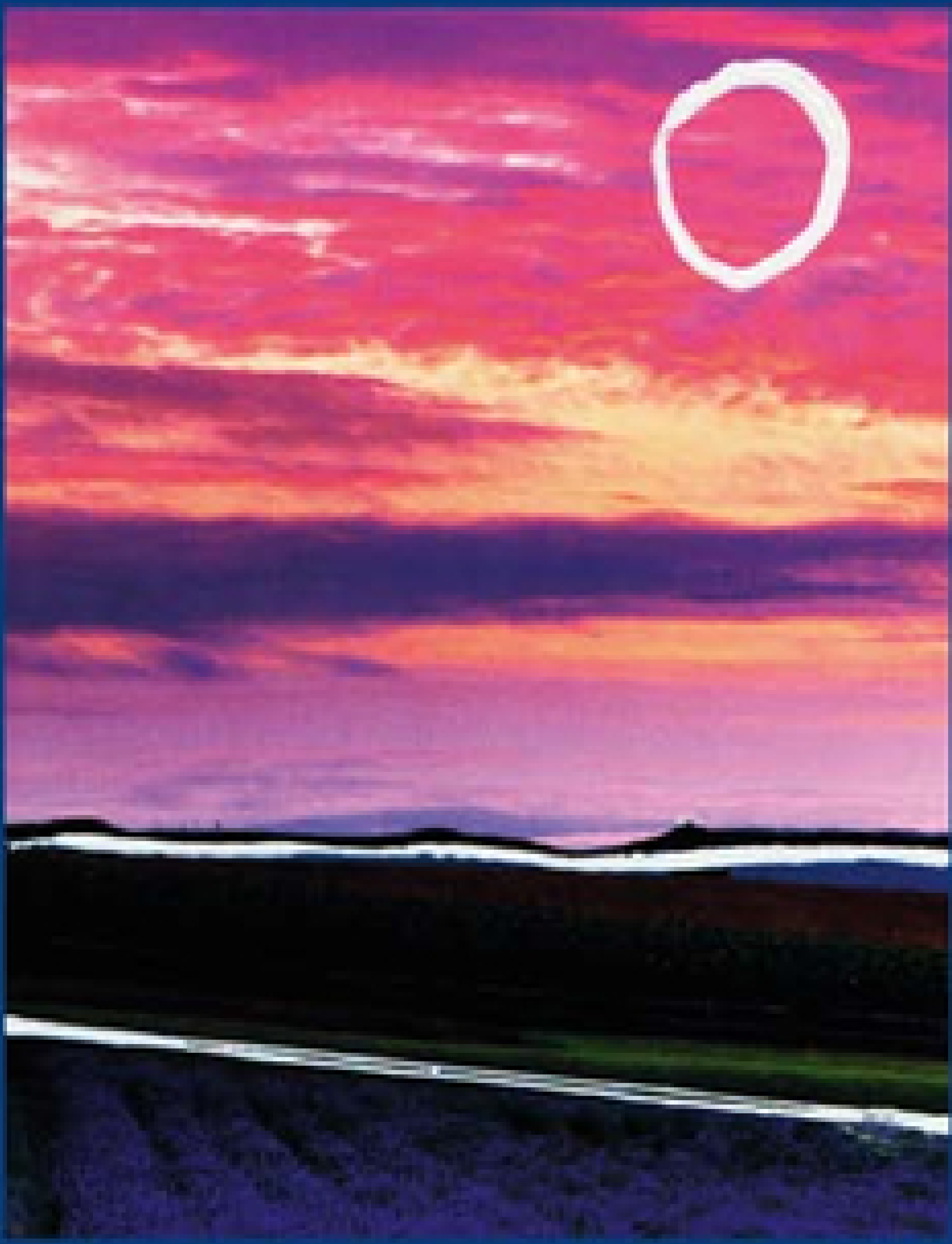
د. عبد الحسين شعبان



كوبا

الحلم الغامض

الفارابي

كوبا

الحلم الغامض

عبد الحسين شعبان

كوبا
الحلم الغامض
رؤية ما بعد الخمسين

دار الفارابي

الكتاب: كوبا الحلم الغامض
تأليف: عبد الحسين شعبان
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-685-5

الإهداء

إلى
جيفارا، المهدي بن بركة، جورج حبش، وعبد الفتاح إسماعيل
رموز الرومانسية الثورية.

تمهيد

«يا الله ما أجمل هذه الأرض؟!»

هذا الهتاف هو الذي ردّده كريستوفر كولومبس (Christopher Columbus) (ولد العام 1451 وتوفي العام 1506) عندما كانت سفينته «سانتا ماريا» ترسو عند الشواطئ الكوبية في 27 تشرين الأول (أكتوبر) العام 1492. لا أدري كيف استعدتُ ذلك الهتاف وردّدته مع نفسي بمرح غامر وأنا أترجّل من الطائرة التي حملتني من باريس إلى هافانا، منتقلة بي من قارة أوروبا إلى قارة أميركا، مجتازة المحيط الأطلسي برمته، وهو البحر الذي كان المؤرخون والرحّالة العرب يسمونه «بحر الظلمات».

يومها حسِبَ كولومبس أنه وصل إلى إحدى جزر «الهند» باستخدامه المتوافر من علوم عصره، بما فيها علوم العرب الجغرافية والفلكية، حول مدار الأرض، لكنه كما اتّضح أن هذا المدار أطول بكثير مما كان يُقدّر، وأن عالماً فسيحاً يمتدُّ إلى أقاصي الغرب ما زال ينتظره إنْ أراد الوصول إلى مبتغاه.

لقد كانت المحطة الكوبية، بعد رحلة مضنية، المفتاح الأول للعالم الجديد، الذي كان اكتشافه دهشة جديدة على المستويات العلمية والاجتماعية والاقتصادية، ومنذ ذلك التاريخ سيستخدمه القراصنة طريقاً لتجارة الرقيق من قارة أفريقيا السوداء إلى قارة أميركا الشمالية والجنوبية.

إذا أمعنا النظر في خارطة كوبا الجغرافية، فسنرى أنها أقرب إلى تمساح عائم وسط البحر ذنبه يقترب من شواطئ فلوريدا، أما رأسه فيتجه إلى الأعلى

ليقترب بأنفه من سواحل هاييتي، ويطلّ من فوق جزيرة جامايكا. ويطوّق جزيرة كوبا التي تبلغ مساحتها 11860كم^2 ساحل، يبلغ امتداده نحو خمسة آلاف كيلو متر، محاط من شماله بعدّة جزر صغيرة، تكاد تشكّل سياجاً للجزيرة، أو أرخبيلاً من جزر يضم نحو 13 خليجاً، ويبلغ عدد سكان الجزيرة 11 مليوناً (أحد عشر) غالبيتهم من أصول إسبانية، لاسيّما بعد إبادة السكان الأصليين، كما أنّ اللون الأسمر يعكس التركيب المتعدد لأصول الكوبيين، الذين خضعوا للاستعمار الإسباني لقرون.

كوبا أرض منبسطة فيها الكثير من الوديان والخلجان، وفي شرقها تنتصب سلسلة جبال السيرامايسترا الشهيرة، مهد الثورة، أما مناخها فيمتاز بالدفء طوال فصول السنة بالرغم من الرطوبة العالية، ومطرها استوائيٌ وبخاصة في أشهر الخريف.

بعد شوق طويل ومتابعة مضنية وقلق عميق على التجربة الكوبية، جاء الوقت لكي أشدّ الرحال إلى كوبا؛ وكنت أحسب أن الرحلة تأخرت أكثر ممّا ينبغي، وهو ما سأذكره لاحقاً. وكنت أستحثُّ نفسي مستعجلاً على الزيارة، مستحضراً علاقتي مع زملاء وأصدقاء كوبيين قدامى وجدد.

بعد مرض الرفيق فيدل كاسترو، شعرت أن الأوان قد آن لتحقيق الزيارة وذلك لكي أطّلع على التجربة ميدانياً على الأرض قبل أن يطرأ عليها أي تغيير، ولكي أكوّن الصورة الواقعية قبل التغيير لا بعده، فضلاً عن أنني على الرغم من تلمّسي حجم التحدّيات المباشرة وغير المباشرة التي تواجهها كوبا، إلّا أن رؤية التجربة من الداخل تختلف عن رؤيتها من الخارج، ولن يكون ذلك «واقعياً» وقريباً من الحقيقة بعد رحيل الرجل، ولعلّ الأجدر والأفضل رؤيتها بوجوده، بكل ما لها وما عليها.

وكان قلقي يزداد ومخاوفي تتسع، بسبب ما كانت تنقله وسائل الإعلام، لاسيّما غير المشجعة للتجربة الكوبية، فضلاً عن بعض قراءاتي وانطباعاتي الشخصية وتبلور رؤيتي النقدية الخاصة بشأن التجربة الاشتراكية بشكل عام،

حيث كنت قد عشت في السبعينيات في براغ وزرت معظم البلدان الاشتراكية زيارات عمل وأخرى شخصية، ولذلك كنت أدرك أن انهيار المنظومة الاشتراكية، الذي شاهدناه، والذي حضرتُ فصله الأخير بمحض المصادفة في تشيكوسلوفاكيا وبرلين، إنما كان موضوعياً قد حُفرتْ أساساته منذ وقت طويل، وحسب سارتر كانت البلدان الاشتراكية تبدو من الخارج قلاعاً محصّنة، لكنها خاوية من الداخل، الأمر الذي أدّى إلى انهيارها المدوّي.

قد تختلف التجربة الاشتراكية الكوبية عن غيرها من التجارب، لاسيّما مسارها وكاريزما قياداتها، لكنها من حيث الجوهر اتّخذت الطريق الذي سلكته معظم البلدان الاشتراكية، من توجهات وخطط وبرامج، وما زاد في معاناة السكان هناك هو الحصار الأميركي الذي استمر منذ خمسة عقود من الزمان، والذي فرض نفسه بقوة على التجربة وعلى الإنسان، خصوصاً في ظل الحرمانات والعذابات التي عاشها. وبالقدر الذي كان المواطن الكوبي يسمع خطابات قيادته عن الرفاه والسعادة والوفرة المادية، كان يعيش حياة فقر وفاقة وقهر.

وبالرغم من أن الكوبيين صبروا طويلاً وتحمّلوا كثيراً فلا يزال أمامهم الكثير، وليس هناك حتى الآن، مع استمرار الحصار الأميركي، وسائل واقعية ومقنعة لإنهاء معاناتهم، أو التخفيف عنها؛ وحتى الآن لم تتبلور بعد حلول ممكنة تأخذ، بنظر الاعتبار، قدرة الإنسان على التحمّل، وتبتدع أساليب جديدة للموازنة بين مشاعر الأمل بحياة سعيدة ومرفهة وحريات وافرة وتقدم اجتماعي وإنساني في إطار عملية تنمية شاملة، وبين بؤس الواقع وشحّ المواد الضرورية وضيق اليد.

وقد واجهني الكثير من الأسئلة المحرجة والحارقة خلال زيارتي إلى كوبا، وازداد قلقي وتعاظم، إزاء تناقضات اعتبرتها خصوصية كوبية، وتساءلت مع كريم مروّة في انطباعاته «يوميات مثقف عربي في جزيرة الحرية كوبا» المنشورة في صحيفة النهار اللبنانية، في 25 حزيران (يونيو) 2007: «من أين يأتي حب

الشعب لقادته كاسترو وجيفارا وسان خوسيه مارتيه الذي حوّله الحصار الأميركي إلى الفقر والفاقة، وبين مشاعر الرفاهية التي وعدتهم بها الاشتراكية وفيدل كاسترو؟».

وكانت الأسئلة تكبر كلما قارنت التجربة الكوبية، بالتجارب الاشتراكية التي عرفتها، والتي انهارت بسرعة خاطفة وتهاوت أحزاب وأنظمة حسبناها منيعة وقوية، بين ليلة وضحاها، وتساءلت من سيكون بعد كاسترو وهو قد تجاوز الثمانين، وهل أنَّ رهان الرفاق الكوبيين على بعض انتصارات أميركا اللاتينية كافٍ؟

لم أكن قد قررت نشر كتاب عن كوبا، فابتدأت بنشر حلقات في إحدى الصحف العربية، ولعلّ ما كنت أفكّر فيه هو نشر ثلاث أو خمس حلقات، لكن المقدمة والمادة انسابت معي وتوالت الحلقات حتى بلغت 24 حلقة، وعندها توقفت لأضع لمسات لكتاب عن كوبا، وفيه رؤيتي بعد 50 عاماً من تأثري وحماستي القديمة وحرصي وقلقي الحالي، فضلاً عن رؤيتي الانتقادية الشفافة، حيث وضعت له عنواناً هو «الجنة والاغتراب» لما تتضمن تلك الجزيرة من مفارقات محببة، ومن ثم ارتأيت عنواناً آخر هو «كوبا الحلم الغامض» لما ينطوي تحته من أسرار وخبايا.

والعنوان على ما أظن فيه من الدقة في المضمون والموسيقى في اللفظ وسلاسة التعبير؛ فقد حاولت من خلاله أن أجمع بين تناقضين، ففي هذه الجزيرة الجميلة الخضراء، اقتراب من الجنة بما تملك وتشعر، واغتراب بسبب الحصار الأميركي وشحّ الموارد وتأثيرات نظام العقوبات وانعكاساته كوبياً على مستوى الفرد والجماعة، لاسيّما في جوانبه النفسية.

جزء من الجنة هو حلم أرضي بحياة مرفهة وحريات وتقدّم إنساني وعدالة اجتماعية، وفي الجزء الآخر اغتراب لأن القوى المتنفّذة التي نظّمت المؤامرات طيلة عقود من الزمان، وحضّرت للغزو وحرّضت الطبقة الوسطى والكفاءات على الهجرة، لا تزال تمسك مفاتيح العالم وتتصرف بعنجهية، لاسيّما بعد

انهيار الكتلة الاشتراكية، الأمر الذي يجعل من الحياة الاعتيادية - الطبيعية، أمراً غير ممكن في ظل النقص الفادح في الموارد وضعف التنمية وعمليات التخريب المستمرة.

ولعلّ «إبليس» الذي لا يبعد عن الجنة سوى تسعين ميلاً يقف بالمرصاد وينتظر اللحظة «التاريخية» للإغواء أو الإلغاء وهو ما يدركه الكوبيون، والأهم من ذلك هو كيف سيتصرفون تجاهه؟.

إن هدفي من هذا الكتاب هو إظهار العذابات اللامحدودة التي اجترحها الشعب الكوبي. وفي الوقت نفسه تبيان قدرته على المقاومة والصبر على المكاره والأحزان والآلام؛ وبالرغم من كل شيء فقد حقق نهضة كبيرة في ميادين محو الأمية والتعليم والطب والرياضة وغيرها، لكن ذلك وحده غير كاف، إذا ما عرفنا حاجات الإنسان المادية والروحية، لاسيّما ضرورات إشاعة الحريات، ودخول عالم الحداثة والتنمية، خصوصاً في ظل العولمة وما بعدها، وهو ما حاولت أن أتوقف عنده بمناقشات في إطار الوضعية النقدية للماركسية، وبمساهمة في نقد الفكر السياسي السائد وتطبيقاته من خلال قراءة سوسيوثقافية.

حاولت أيضاً إظهار خصوصية التجربة الكوبية، وإرهاصاتها الأولى، بعد انتصار الثورة، وخصوصاً تسليط الضوء على شخصية أحد رموزها الكبار وهو أرنستو تشي جيفارا، متوقفاً عند بعض مواقفه، خصوصاً مقارباتها العربية من خلال علاقاته بجمال عبد الناصر، وأحمد بن بيلا، والمهدي بن بركة، والأهم من ذلك نقده للبيروقراطية واختلافه مع المدرسة الاشتراكية السوفييتية، ومحاولاته تقديم قراءة فكرية مختلفة ومتباينة عنها في الاقتصاد السياسي.

كما حاولت تتبّع تطوّر الثورة الكوبية، لاسيّما بعد فشل أول محاولة للغزو نيسان (أبريل) 1961 ورفض كيندي تدخّل وحدات من الجيش الأميركي لقلب ميزان المعركة، حينها بدأ الخط الاشتراكي الراديكالي يتعزز، وخصوصاً بعد الإعلان عن تنفيذ برنامج المونكادا، وهو برنامج أولي ترافق مع بعض الإجراءات الوطنية الديمقراطية، وصولاً لإعلان الخيار الاشتراكي مع تفاقم

الأزمة الأميركية - السوفييتية على خلفية نصب الصواريخ السوفييتية والمعروفة بأزمة خليج الخنازير العام 1962.

حاولت من خلال انطباعاتي الشخصية، الجمع بين ما هو فكري وما هو عملي، بين ما هو سياسي وما هو ثقافي، بين ما هو كوبي وما هو أميركي لاتيني، وبالقدر نفسه مع ما هو اشتراكي وإنساني. ولم أتوقف عند الصورة النمطية، بل سعيت لنقد التجربة من داخلها، من خلال الحرص والمسؤولية، مضيئاً على إيجابياتها وسلبياتها، متابعاً رمزيتها الخاصة ورؤيتها الجدلية إزاء الاشتراكية المستنسخة، التي حاول جيفارا رفضها.

لم يكن الأمر كلّه على هذا المنوال، فتوقفت عند يوميات المغامر النبيل مقارناً بين جيفارا ورامبو ودون كيشوت، بين شبح ماركس أو أسطورته وبين شبح جيفارا وأسطورته، ولم أنس أن أشير إلى بعض تأثيرات جيفارا العربية والعراقية إضافة إلى التأثيرات العربية على رؤيته، لاسيّما من خلال علاقته بعبد الناصر وبن بيلا وبن بركة، من حيث أحلام الكبار وقلقهم وهواجسهم وعنفوانهم، وتغريدهم خارج السرب أحياناً وغيابهم المبكّر.

توقفت عند الحياة السوسيوثقافية الكوبية من خلال الروائي الأميركي أرنست همنغواي وحانة بودغيتا دل ميديو، وحاولت استذكار ما بين الجواهري وهمنغواي، ثم عرّجت على علاقة كاسترو بأبي عمار وجورج حبش.

وقد أفردت فقرة خاصة لعلاقة الثورة الكوبية بالدين من خلال عدد من الفقرات عنونتها «ملكوت السماء وملكوت الأرض»، «الاشتراكية والإيمان الديني» «الروح والمادة: حوار المتدينين مع الماركسيين»، «الثورة والكنيسة» وأخيراً «كاسترو والدين».

وضمن مقارباتي العربية للتجربة الاشتراكية الكوبية أجريت مناظرة بينها وبين التجربة الاشتراكية اليمنية، ابتداءً من انطلاقة الأولى من جبال السيرامايسترا ووصولها إلى هافانا، وبين التجربة اليمنية وانطلاقتها من جبال ردفان ومعاركها الحاسمة في حي كريتر في العاصمة عدن وطرد المستعمرين البريطانيين، ثم

توقفت عند انهيار أنظمة أوروبا الشرقية وهواجس عدن وقلق هافانا، وفيما بعد اختلاف المسارات بالرغم من التحدّيات المشتركة، ولم أكتف بذلك، بل حاولت أن أعرّج على علاقة الثقافة بالسياسة المعادلة القاسية، من خلال إظهار العلاقة المتميزة لكاسترو بغابريل غارسيا ماركيز، وعلاقة عبد الفتاح إسماعيل بادونيس.

وأشرت في الفقرة الأخيرة التي اختتمت بها الكتاب، بأن كوبا واجهت سبعة حروب، ولعلّ آخرها الحرية والحداثة، وفي ذلك سيكون اختبارها الأهم واختبارها الأصعب. ثم نشرت كإضمامة للكتاب رسالة جيفارا إلى كاسترو قبل التحاقه بالثورة في الكونغو ثم اختياره للكفاح المسلح في بوليفيا حيث لقيَ مصرعه في الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) 1967.

وشعرت أن من الواجب، وليس من باب التجميل، أن نؤكد على أنّ الشعر برمزيته كان حاضراً معي خلال كتابة حلقاتي التي تألف منها الكتاب، فحاولت أن أوظّفه كلما كان ذلك ممكناً بمقطوعات أحسب أنها ستلطّف جو القارئ وهو يقرأ ما في الواقع الاغترابي بكل مراراته وتطرفاته، متطلعاً إلى جنّة حقيقية حيث السعادة والحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية. ولكي لا أثقل على القارئ وضعت بعض المصادر التي استعنت بها أو استرجعت بعضها في متن هذه الخواطر الانطباعية، مع فهرست خاص بالأعلام والأماكن ونبذة مختصرة باللغة الإنكليزية.

ع. ش

بيروت 31/ 7/ 2010

كوبا

أنا لم ألمس قصب السكر
والأرضَ الخضراء
لم أركب قارب صيادٍ في البحر الكاريبي
لم أضرب قطرة ماء
لم أنزل فندقَ سياح غرباء
لم أسكر في هافانا من عرق الفقراء
لم أغمس قلمي في جرح البؤساء المحرومين
لم أقرأ أدب الشعراء الكوبيين
لكن، عندي عن كوبا أشياء... وأشياء
فكلام الثورة نورٌ... يُقرأ في كل لغات الناس
وعيون الثورة شمسٌ... تُمطر في كل الأعراس
ونشيد الثورة لحنٌ... تعرفه كل الأجراس
والراية في كوبا... يرفعها نفس الثائر في الأوراس
وجذور الثورة مهما مدّت أغصاناً...
تنبتُ من نفسِ المتراس
واللهب الأزرق والأحمر والأخضر
يبدأ من غضبٍ واحدٍ

فتدفَّأ واصنع لهباً آخر
يا شعباً يشعرُ بالبردِ
وترمَّدْ! واختر أقرب لحدٍ
يا من يبتاع الثورة بالورد!

(الشاعر الفلسطيني محمود درويش)

جزيرة الحرية:
الجمال والشغب

زيارتي إلى كوبا هي الرابعة في زياراتي إلى أميركا اللاتينية، القارّة التي ظلّت مرجلاً يغلي منذ نحو نصف قرن من الزمان؛ فقد شقّ سكونها بعد الحدث الغواتيمالي العام 1954 انتصار الثورة الكوبية وسقوط نظام باتيستا في الأول من كانون الثاني (يناير) العام 1959.

تعود علاقتي بكوبا منذ تفتح وعيي، لاسيّما بعد ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 في العراق، حين اعتبر «الثوريون» انتصار الثورة الكوبية بمثابة الرديف لانتصار الثورة في العراق، معقل حلف بغداد، حيث كان المعقل الثاني هو نظام الدكتاتور باتيستا في كوبا التي لا تبعد شواطئها عن شواطئ ميامي الأميركية أكثر من 90 ميلاً، الأمر الذي كان يثير فينا الغبطة والإعجاب عن اختراق «الفناء الخلفي» لواشنطن، كما كانت تسمى كوبا وعدد من دول أميركا اللاتينية، والأكثر من ذلك هو طريقة الانتصار الرومانسية الثورية الساحرة لفتية شجعان.

رؤية ما بعد الخمسين لها مغزيان، الأول هو نظرتي الانتقادية للأمور بالرغم من تمسكي بالخيار الاشتراكي بعد 50 عاماً، واستمرار امتداد خيط الوصل بين الماضي والحاضر وربما المستقبل، والثاني لأن كوبا تحتفل بمرور 50 عاماً على انتصارها، وهو الأمر الذي استعدته أثناء زيارتي لجزيرة الحرية؛ ومن موقع القراءة الارتجاعية للحدث ومساراته وتحدياته ومنجزاته وصعوباته

وأخطائه وارتكاباته، تساوقاً مع عالم الحداثة والعولمة، سواءً على الصعيد النظري لفحص الشعارات والوسائل ومدى إمكانية تطبيقها في الواقع من جهة، ومن جهة أخرى من خلال القناعة المتحققة لدى الناس المعنيين بالثورة وأبنائها، ومن جهة ثالثة بالقدرة على الاستمرار والعيش بالطريقة ذاتها بعد 50 عاماً في ظلّ تبدلات كبرى تاريخية على الصعيد العالمي.

كنت قد استذكرت كتاب المفكر الماركسي الإشكالي عامر عبد الله الموسوم بـ«جزيرة الحرية» الصادر في العام 1976 وحواراتي اللاحقة معه بخصوص كوبا وفيتنام والصين والتجربة الاشتراكية عموماً، وقد دوّن بعض ملاحظاته في كتاب مهم وضعه لاحقاً، وربما من «موقع آخر» و«قناعات جديدة» في أواخر التسعينيات عن «مقوّضات النظام الاشتراكي العالمي». وقد أعود إلى هذه المسألة وإلى حوارات غير منشورة كنت قد أجريتها مع عامر عبد الله في وقتٍ لاحق.

لقد أدى انهيار الكتلة الاشتراكية وانحلال الاتحاد السوفييتي إلى ترك كوبا وحيدة وعارية في مواجهة الرياح العاتية وعلى نحو مفاجئ وحتى دون كلمة وداع، كما يُقال، حيث وجدتْ نفسها يتيمة في مواجهة الحصار الاقتصادي الجائر، لاسيّما بعد العام 1991، حين أخذ الحصار يفعلُ فعله في المجتمع الكوبي، متمثلاً بشحّ البضائع والسلع والمواد الاستهلاكية الضرورية، ومحدودية الأجور، وانقطاع التيار الكهربائي لفترات طويلة، وأزمة البنزين، فضلاً عن تنامي بعض مظاهر التذمّر من داخل الحزب وبالأساس من خارجه. فلم تعد الإيمانية العقائدية والآمال الكبرى تعوّض عن الواقع المرير، خصوصاً بعد صبر طويل، الأمر الذي يستوجب وقفة متأنيّة لمعالجة سبل التعامل مع الاختلاف، وإعادة النظر في مسألة الحزب الواحد وتأثيراتها السلبية وتطوير آليات العمل السياسي والمهني في إطار التنّوع والتعددية، ولكن في ظل الخيار الاشتراكي وليس خارجه، وبصيغ ديمقراطية وليست قسرية.

وبالعودة إلى نجاح الثورة، فقد كانت المعركة الفاصلة لثوار جبال

السيرامايسترا هي الهجوم الذي قاده تشي جيفارا على القطار الذي كان ينقل عتاداً حربياً للدكتاتور في هافانا، فاعترضه الأنصار المسلحون في مدينة سانتا كلارا ذات السماء الفضية (حيث يوجد نصب ومتحف ومقبرة لجيفارا ورفاقه) بهجوم مباغت بتراكتور، وقد استسلم جنود الحكومة الكوبية، وشاع خبرهم، واضطرَّ باتيستا للفرار إلى الولايات المتحدة، وحدثت المفاجأة حين امتنعت سلطاتها عن استقبال طائرته فاتجه إلى الدومينيكان الذي كان يحكمه صديقه الدكتاتور نوهيو.

وكان الثوار قد انطلقوا في العام 1956 بعد فشل حركتهم في العام 1953، ونزلوا إلى الشواطئ الكوبية قادمين من المكسيك التي تجمع فيها 82 ثائراً، لكن لم يبق منهم سوى 21، بعد أن كان في انتظارهم جلاوزة باتيستا في مباغتة غير محسوبة!.

زيارة جزيرة الحرية جاءت بعد تأخرٍ دام أكثر من ثلاثة عقود، حيث كانت زيارتي مقرّرة للمشاركة في مهرجان الطلاب والشباب الذي انعقد في كوبا في صيف العام 1978، لكن تعقيد الأوضاع السياسية في العراق، وطلبي لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية حال دون ذلك، وحدث، لأكثر من مرّة، أن تلقيت دعوة خاصة لزيارة كوبا، لكن بعض العوائق والالتزامات وقفت في طريقي.

وصلت هافانا وكلّي فضول لمشاهدة هذه الجزيرة الجميلة، المشاغبة، العصية، التي شغلت الولايات المتحدة والعالم برؤية سياسية ما بعد الخمسين، وبعقلية مثقف ناقد يسعى لقراءة التجربة الكبيرة والمميزة بكل ما لها وهو كثير جداً، لشعب بسيط وطيب وشجاع ومرح، وكل ما عليها وهو ليس بقليل، لاسيّما وقد عاشت التجربة تحت هاجس الضغط والتآمر الخارجي الأميركي منذ اليوم الأول ولغاية عامها الخمسين، خصوصاً تأثير الحصار الدامي الذي تعرّضت له، وهو حصار شامل بكل معنى الكلمة؛ يبدأ من أصغر الأشياء حتى أكبرها، ومن قلم الرصاص إلى المعدات والأجهزة. ولأنني عراقي أعرف معنى الحصار الذي وقع على شعبي والظلم والحيف الذي لحقه طيلة 13 عاماً بغضّ

النظر عن الحاكم، أستطيع أن أدرك وأن أهجس ما عاناه الشعب الكوبي من عسف واضطهاد طيلة خمسة عقود من الزمان جراء الحصار اللاإنساني.

ولعلّ الفارق بين الحصارين العراقي والكوبي، أن الحصار الأول كان بقرارات مجحفة ومذلّة من مجلس الأمن الدولي، في حين أن قرار الحصار الكوبي كان أميركياً بامتياز، وإن شمل دولاً وشركات عملاقة تأتمر بأمر واشنطن، بالرغم من تنديد الجمعية العامة للأمم المتحدة به لأكثر من 14 مرّة وبتأييد من غالبية أعضائها باستثناء الولايات المتحدة وإسرائيل.

الحصار هو حرب بوسائل أخرى قد تكون أكثر خطورة وخبثاً وضرراً، لكنه بوسائل غير حربية، حتى وإن بدت ناعمة لكنها أكثر مكراً وإيذاء، وهو مثل دودة تأكل في جسد كوبا اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً ولا تزال، وهو ليس حصاراً ضد السلطة الكوبية فحسب، بل هو ضد الشعب الكوبي الذي يُراد إذلاله والحطّ من كرامته بل وطحن عظامه.

كان جلّ اهتمام كوبا الهاجس الأمني وردم الثغرات التي سبّبها الحصار خلال السنوات الخمسين، وهي مهمات طوارئ أقرب إلى الظرفية منها إلى التنمية الإنسانية المستدامة بمعناها السائد، وحتى لو تمكّنت كوبا من التخلص من الأمية وحققت نظاماً تعليمياً متطوراً ونظاماً صحياً مشهوداً، إلا أنها كانت تئن تحت وطأة حصارٍ شاملٍ ومتراكمٍ وحاجاتٍ ضروريةٍ للبشر لا يمكن الاستغناء عنها في النصف الثاني من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهي متطلبات كل ما يتعلق بالحداثة التي لا يمكن العيش من دونها!..

* * *

شعاع الثورة ومتطلبات الدولة!

كان آخر ظهور علني رسمي لجيفارا هو حضوره مؤتمر التضامن الأفروآسيوي (1965)، وذلك بعد عودته من الجزائر والقاهرة في 14 آذار (مارس) 1965، وبعد اجتماع سري مغلق لم يُعرف ما جرى فيه حتى الآن، اختفى جيفارا مثل شعاع. ولعلّ غضب الاتحاد السوفييتي إثر خطاب الجزائر قد يكون وراء ضغوطه على كاسترو، ولم يكن جيفارا يريد أن يحرج صديقه مثلما كان حريصاً على الثورة الكوبية. وبغضّ النظر عن بعض الملابسات، فقد تقرّرَ أن يخوض هو في المهمة العسكرية - الأممية خارج حدود كوبا، وبدعم من كاسترو وهو ما أراد، وأن تستمر الدولة وإداراتها وعلاقاتها الدولية طبقاً لتوازن القوى السائد آنذاك، لاسيّما للعلاقة الكوبية - السوفييتية. وسواءً حصل الاتفاق بشكل مباشر أو غير مباشر، بقناعة تامة أو بنصف قناعة، أو تحت الأمر الواقع، فإن ذلك ما حصل.

وهكذا انتقل جيفارا يجوب أرض الله الواسعة ليبشر بالثورة ويحرّض على المستعمرين ويعدُ الشعوب المنكوبة بغدٍ أفضل، وكانت مهمته الأولى في أفريقيا ومن الكونغو تحديداً حيث بدأت العملية العسكرية. وبعد فشله غادر إلى بوليفيا، وحاول أن يلعب دور الدينامو المحرك للتحريض والتحضير وإنضاج العامل الذاتي لاندلاع الثورة، لكن ثمة ظرف موضوعي لم يتوافر وعامل ذاتي لم تتمّ تهيئته، الأمر الذي دفع جيفارا ثمنه مثل غيره باهظاً، ناهيكم من أن محاولة نقل أو استنساخ تجربة قد لا يصح بالنسبة إلى تجربة أخرى، وهو ما كان ينبغي أخذ مواصفاته بنظر الاعتبار.

وعلى الرغم من بطولة جيفارا وشجاعته، فإنه أخطأ يوم اعتقد أنه بالإرادة يمكن فتح أكثر من جبهة، وزرع أكثر من حرب ثورية أمام الولايات المتحدة، وهو الذي دعا إلى خلق أكثر من فيتنام: واحدة.. اثنتين وأكثر من ذلك في مناطق أخرى... لقد فشل جيفارا في هذه المهمة وكانت تقديراته غير موضوعية؛ لأن مهمة بهذا الحجم هي أكبر من طاقته، بل وطاقة الحركة الثورية حينها برمتها.

أما بالنسبة إلى الشرق الأوسط، فقد دعا جيفارا إلى «خلق اثنين، وثلاث، وأكثر من فيتنام»، وكان يشعر أن الشرق الأوسط في حالة غليان كامل ومن المستحيل التكهّن بمسارات الحرب الباردة (قبل العام 1967) مع إسرائيل المدعومة من الإمبرياليين. ولعلّ هذه المنطقة أحد أكبر البراكين التي تهدد العالم كما قال، وكان على حق، فبعد بضعة أسابيع على تصريحاته تلك التي أدلى بها في 16 نيسان (أبريل) 1967، هاجمت إسرائيل البلدان العربية واحتلت كامل أراضي فلسطين التاريخية وأراضي مصرية وسورية، ودخل العرب والعالم في فصل جديد من الصراع العربي- الإسرائيلي، ومن النضال التحرري، خصوصاً أن الممارسات الإسرائيلية طيلة عقدين من الزمان كشفت عن الطابع العنصري الإجلائي الإحلالي للعقيدة الصهيونية التي قامت عليها إسرائيل، ولعلّ هذا ما كان يتميز به جيفارا عن القيادات الثورية الأممية الأخرى، وما عبّر عنه حول مآل الصراع، ناهيكم من المخاطر التي تهدد السلم والأمن الدوليين باستمرار، لاسيّما التنكر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير.

حظيَ جيفارا بتمجيد عربي يوم رحيله، ونُظّمت في العالم العربي كله احتفالات تأبينية وتكريمية، وانتشرت صوره وكتاباته في كل مكان، في العديد من الجامعات والمنتديات، العلنية والسرية. وأتذكّر أننا في العراق كنا قد نظمنا احتفالاً كبيراً في جامعة بغداد، حيث كنت في الصف المنتهي، والتأم الاجتماع المهيب في كلية التربية، بخطب وأناشيد وأشعار، وفي جو حماسي زاده عريف الحفل اشتعالاً، وكان حينها د.عبد الحسين رمضان (أبو نهار). وكان صوت

الشيخ إمام لاحقاً وقصيدة أحمد فؤاد نجم تملأ الحناجر حيث كانت احتفالاتنا اللاحقة تنشد:

جيفارا مات.. آخر خبر في الراديوهات..
وفي الكنايس والجوامع.. وفي الحواري وفي الشوارع
وعالقهاوي وعالبارات... جيفارا مات...
مات المناضل المثالي.. مات البطل
الكلمة للنار وللحديد
والعدل أخرس أو جبان
صرخة جيفارا.. يا عبيد، في أي موطن أو مكان
ما فيش بديل.. ما فيش مناص.. يا تجهزوا جيش الخلاص
يا تقولوا على العالم خلاص!!

وإذا كان جيفارا قد أخطأ في قراءة وتقدير العاملين الذاتي والموضوعي واختيار اللحظة الثورية، لاسيّما توازن القوى والجهات المؤثرة في خارطة الصراع على المستوى الدولي، والظروف الخاصة بنضال بعض الشعوب، لكنه نجح في وضع ما آمن به موضع التطبيق، والأكثر من ذلك حين وضع حياته وقوداً لما اعتقد به بصدقية عالية وشجاعة نادرة، وهو القائل: «ليست هناك حدود في هذه المعركة حتى الاستشهاد».

ونجح جيفارا في جعل كوبا الرمز الأول لاستيقاظ أميركا اللاتينية التي بدأت دولها الواحدة بعد الأخرى تتمرد بطرقها الخاصة على هيمنة واشنطن من موجات الكفاح المسلح في الستينيات والسبعينيات، إلى لاهوت التحرر في الثمانينيات إلى مصالحات واتفاقات، وصندوق اقتراع تفقس فيه الثورة في أواخر التسعينيات والعشرية الأولى من الألفية الثالثة.

كما نجح جيفارا في جعل كوبا بوابتنا إلى أميركا اللاتينية، لكن ثمة معوّقات موضوعية وذاتية وقفت أمام تطوير التقنية وبناء الإنسان الجديد، وإذا

كان لينين قد قال إن الشيوعية تعني السلطة السوفييتية زائداً كهربة البلاد السوفييتية، وسعى لتحقيق ذلك، فإن جيفارا شغل نفسه بالتنمية والتقنية اللتين أسهمت الولايات المتحدة في وضع العراقيل أمامهما، لاسيّما باستمرار فرض حصارها الجائر على كوبا منذ أكثر من 50 عاماً.

* * *

أميركا اللاتينية:
الثورة في صندوق الاقتراع

قبل زيارتي لكوبا بنحو تسعة أشهر، كنت قد زرت البرازيل، وخلال وجودي حدث العدوان على غزة؛ وبالرغم من وجود حزب عمالي بقيادة ثورية زعيمها «لولا» فإن علاقة البرازيل المتميزة مع الولايات المتحدة الأميركية، جعلتها محطّ نقد من جانب كوبا وبعض الثوريين لاسيما التفاوت الطبقي والاجتماعي الحاد فالفقراء يزدادون فقراً، والأغنياء يزدادون غنىً، لكن المواطن العادي البسيط عندما كان يعرف أنني من العراق وعربي، كان يتصرف بشيء من التضامن التلقائي إزاء الضحايا.

أما زيارة تشيلي فكانت لدراسة التجربة التشيلية للعدالة الانتقالية، وهو ما أعادني إلى السبعينيات ومطالباتنا بالتضامن في كل مؤتمر وندوة وحتى بعض الأغاني السياسية اليسارية العراقية، كانت تردد ذلك «تشيلي تمرّ بالليل نجمة بسمانه» (بسمائنا)، وكان صوت الفنان جعفر حسن يصدح بالتضامن مع أطفال تشيلي وفلسطين وأطفال كل العالم.

التجربة المثيرة في تشيلي تحتاج إلى وقفة خاصة للدراسة والتأمل. وقد حاولت خلال تقريظي لكتاب شوكت خزندار «الحزب الشيوعي - رؤية من الداخل» أن أعلّق عليها، لكنها بالفعل تحتاج إلى اطلاع القارئ العربي عليها، لاسيّما مسار العلاقات السياسية بين قائد الانقلاب العسكري أوغستو بينوشيه (Augusto Pinochet) الذي أطاح بالحكومة الشرعية للسلفادور الليندي (Salvador

(Allende) الذي قُتل في مبنى البرلمان أيلول (سبتمبر) 1973 وهو يدافع عن قضية العدالة والديمقراطية، وبين قوى شعبية كانت ضحايا الانقلاب وبينها الحزب الشيوعي، وزعيمه لويس كورفلان (Luis Corvalan) حيث تمّ الاتفاق بعد سنوات من القمع على إغلاق الملفات، واحتفاظ بينوشيه بالسلطة العسكرية لبضع سنوات ضماناً لعدم الملاحقة وإجراء انتخابات تشريعية.

وأتذكّر أنني كنت مغتبطاً عند مطالبة السلطات الإسبانية بإلقاء القبض على بينوشيه في بريطانيا، وإذا بصديق قديم من أميركا اللاتينية يفاجئني، بأن ذلك يعني تخريب الاتفاق والإخلال بالسلام الاجتماعي. لقد كنت أحسب تعليقي في إحدى الفضائيات في لندن إيجابياً بشأن إلقاء القبض على بينوشيه، إلى أن أدهشني الصديق المذكور، لكن رأيي أن الاتفاقات والمصالحات السياسية ليس بإمكانها إغلاق ملف الضحايا، إذ يمكن استمرار الملاحقات القضائية، لاسيّما من جانب الضحايا أو عائلاتهم، وهو الرأي القانوني الذي كنت أتمسّك به، ولا أزال، بخصوص انتهاكات الحكم السابق أو الحالي لحقوق الإنسان في العراق، وبشأن ما حدث لضحايا بشتاشان أو غيرها من الارتكابات التي حصلت خارج القضاء، خصوصاً خارج المواجهة المسلحة أو العسكرية، أو بعد انتهاء المعارك، وهو رأي أسعى لأن أقدم فيه شهادة سياسية وقانونية مراعياً فصل السياسي عن القانوني.

لقد قُتل في مجازر تشيلي أكثر من ثلاثة آلاف إنسان وكان سجل الضحايا الذين تعرّضوا للتعذيب يربو على 38 ألفاً، وهو ما اشتغلت عليه العدالة الانتقالية لتأهيل الضحايا من جهة ولجبر الضرر من جهة ثانية، فضلاً عن التعويض المادي والمعنوي، والأهم من ذلك كشف الحقيقة كاملة، والسعي لوضع ضوابط جديدة لإصلاح النظام القانوني سعياً لمنع تكرار مثل هذه الجرائم.

الزيارة الأخرى لأميركا اللاتينية كانت بُعيد احتلال العراق لحضور مؤتمر في كيتو (الإكوادور)، وأتذكّر أن نقاشاً حاداً ساد آنذاك بخصوص المطالبة

بالانسحاب وحق الشعب العراقي في تقرير مصيره بنفسه واحترام حقوق الإنسان، وضمان حقوق الشعب الكردي في إطار عراق حرّ ديمقراطي موحد، وهو القرار الذي صدر عن المؤتمر.

زيارتي لكوبا تأتي من منظور مختلف، وفي وقت مختلف، خصوصاً بعد أن انتصرت القوى الاشتراكية واليسارية في الانتخابات في أكثر من خمس دول في القارة، التي عرفت موجة الكفاح المسلح في الستينيات والسبعينيات وبعض الثمانينيات وعاشت لاهوت التحرير في الثمانينيات، وها هي تجرّب الطريق الاشتراكي سلمياً في الألفية الثالثة، تحت شعار «الثورة في صندوق الاقتراع».

وقد لعبت مؤسسات المجتمع المدني دوراً كبيراً في نشر الثقافة الحقوقية، لاسيّما ثقافة حقوق الإنسان، وفي تعبئة القوة الانتخابية باتجاه انتخابات ديمقراطية شفافة، تحت شعارات جديدة آخذة بالاعتبار التطور العالمي الكبير الذي حصل في هذا الميدان، وبخاصة في حقل ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات والإعلام والثورة العلمية - التقنية المتصاعدة والمعولمة بوجهها الإيجابي، ناهيكم عن وجهها القبيح أيضاً.

ولعلّ تجربة فوز اليسار في أميركا اللاتينية مدهشة ومثيرة وتستحق القراءة الدقيقة، لاسيّما لجهة اصطفاف القوى والاستقطابات والتحالفات الجديدة، على الرغم من انحسار اليسار وتراجعه على المستوى العالمي، بما فيه أوروبا وبالتحديد في البلدان الاسكندينافية التي كانت الأحزاب الاشتراكية واليسارية تحكمها ولا يزال بعضها حاكماً، حيث تراجع في السويد والدنمارك إضافة إلى ألمانيا وغيرها.

لقد استطاعت القوى اليسارية أن تحرز النصر عبر صندوق الاقتراع في كل من تشيلي بقيادة السيدة باشليه (Michelle Bachelet)، وفي فنزويلا، فاز هوغو شافيز (Hugo Chāvez) الاشتراكي اليساري بنبرة صاخبة، وفي الإكوادور فاز كوريّا (Rafael Correa)، وفي بوليفيا فازت القوى الاشتراكية اليسارية بقيادة موراليس (Juan Morales) مثلما حازت على أغلبية المقاعد في البرلمان في

باراغواي بقيادة لوغو (Fernando Armindo Lugo Méndez)، ولعلّ تجربة نيكاراغوا مثيرة للجدل، فقد وصل دانيال أورتيغا (Daniel Ortega) قائد الثورة الساندينية المسلحة سابقاً، إلى السلطة بعد غياب عنها 15 عاماً، بواسطة صندوق الاقتراع.

إنّ هذه التجارب الكبرى بحاجة إلى تأمّل ودراسة، لاسيّما من جانب الحركات التي سُمّيت ثورية في بلداننا العربية، وكيف تراجعت؟ ولماذا؟ وما هو أفقها؟! وهو ما سأحاول التوقف عنده بعد محاولة تسليط الضوء على التجربة الكوبية، وكلما كان ذلك ممكناً.

* * *

ثورة ومغامرات وكبرياء

في 10 آذار (مارس) 1952 دعمت المخابرات المركزية الأميركية (CIA) انقلاباً حصل في هافانا، حين قاد الجنرال باتيستا هجوماً للإطاحة ببعض هوامش الحريات التي كانت متوافرة، حيث ألغيت جملة من الأنظمة والقوانين التي تؤمّن حرية الصحافة وبعض الحقوق والحريات العامة والفردية، وحلّت بالبلاد دكتاتورية جديدة سافرة، الأمر الذي سبّب خيبة أمل كبيرة للكوبيين، لاسيّما لجيل الشباب المتطلع إلى الحرية والحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية.

وخلال أحاديثي مع العديد من الأوساط السياسية والأكاديمية والناس البسطاء في كوبا وخارجها، كان دائماً ما يُذكر باتيستا، وإلى جانبه، بل وندّه هناك من يذكر شاباً مفعماً بالحيوية كان قد تخرّج لتوّه من كلية الحقوق، ولم يبلغ عمره أكثر من 25 عاماً؛ فقد ولد كاسترو في العام 1927، وسيصبح هذا المحامي الشاب من أكثر ثوار العالم شهرة بعد قيادته لمجموعة من الشبّان، حيث كان كاسترو قد يئس من الأحزاب القائمة بما فيها «حزب الحقيقة» و«الحزب الشيوعي»، فأسس مع مجموعة من رفاقه سيبرز فيهم لاحقاً تشي جيفارا وراؤول كاسترو شقيقه، حركة أطلق عليها اسم «حركة 26 يوليو» كان هدفها الإطاحة بالنظام الدكتاتوري عبر اختيار طريق الكفاح المسلح وسيلة لذلك.

وبعد نحو عام من التدريب والتهيئة، اجتمع تحت قيادة كاسترو نحو 150 شاباً، انتقلوا من هافانا ليقوموا بهجومهم على ثكنة المونكادا في سنتياغو دي كوبا، مستهدفين الاستيلاء على السلاح واللجوء إلى الجبال للاحتماء بها ومن

ثم الزحف على المدن، حسبما اقتضت خطة الكفاح المسلح، ولكن الخطة فشلت ولوحق الثوار وتمّ اعتقال وسجن عدد منهم!..

وفيما بعد كان اللجوء إلى جبال السيرامايسترا، وهي أعلى سلسلة جبال في كوبا وتمتد بكتلة واحدة على طول البحر الكاريبي (نحو 150 كم وعرض 30 كم)، بهدف الاختباء في جبال وعرة وغير مأهولة ومغطّاة بغابات يصعب اجتيازها، ولذلك فهي تؤمن ملجأ يمكن للثوار الاختباء فيه.

إن فشل الهجوم دفع البلاد إلى المزيد من القمع والملاحقة، وقد حُكم على كاسترو و30 من رفاقه بالسجن في جزيرة الصنوبر، إلى أن حان موعد الانتخابات العامة التي فرضها الرأي العام على حكومة باتيستا، والتي أُجريت العام 1955، حيث صوّت المجلس الجديد بالعفو عن فيدل كاسترو ورفاقه، وعند خروجهم من السجن غادروا البلاد والتجأوا إلى المكسيك، وهناك تعرّف على جيفارا.

وخلال عام كامل استجمع كاسترو خطته ورجاله، ليعودوا بسرية تامة إلى الجزيرة وكان عددهم 82 شخصاً، ولم ينجُ منهم سوى 21 عند وصولهم إلى الشواطئ الكوبية. وخلال تلك الفترة سعت واشنطن لوضع هيمنتها بالكامل على أميركا اللاتينية، فقادت تحرّكاً لصالحها في غواتيمالا العام 1954، وقمعت فيه الحركة الوطنية الغواتيمالية المتطلعة إلى الديمقراطية. في تلك الظروف وتحت تلك المخاوف وتقاطع الأجندات، انطلقت الثورة الكوبية لتشقّ سكون أميركا اللاتينية آنذاك، الأمر الذي لم تحسب له واشنطن الحساب الكافي، ولا سيّما أن الثورة جاءت من حديقتها الخلفية، وإذا بها تصبح مصدر إزعاج تواجهه كل يوم وتنشغل به على نحو كبير، وبخاصة إشعاعاتها على أميركا اللاتينية!

لم يكن الانقلاب العسكري «السلمي» الذي قاده باتيستا هو الحدث الدرامي الأول في الجزيرة؛ فتاريخ كوبا شاهد على التدخل والحروب الإسبانية، والأميركية لاحقاً، حيث شهدت موجات إمبريالية للتدخل حتى بعد إحراز استقلالها من الاستعمار الإسباني الناقص، فوقعت مثل التفاحة الناضجة في حضن الولايات المتحدة، وتشهد على ذلك تدخلات واشنطن بتوقيع اتفاقية بلات العام 1901 التي أرادت حصد نتائج حروب التحرر الوطنية الكوبية

فسعت لوضع التفاحة في سلّتها بعد أن تخلّصت من إسبانيا، ومن ثم تدخل السفير الأميركي سومتر 1933 للهيمنة وإملاء الإرادة، وصولاً إلى حكم باتيستا الذي أطاحت به الثورة في مطلع العام 1959.

في ليلة مكسيكية باردة، جمعته بكاسترو كما يروي جيفارا في مذكراته، دار بينهما نقاش حول السياسة الدولية وشؤون وشجون أميركا اللاتينية طوال الليل حتى ساعات الصباح الباكر، أعلن بعدها جيفارا انضمامه إلى العصبة الثورية التي كان قد بدأ كاسترو بتأسيسها، وقام معه برحلته الأثيرة من المكسيك، وفي المركب غرانما، وصولاً إلى الشواطئ الكوبية، ومن ثم بدء عمليات الكفاح المسلح في جبال السيرامايسترا وصولاً إلى هافانا. حدث ذلك بعد سقوط نظام جاكوب أربنز في غواتيمالا على إثر عدوان واشنطن، بإشراف جون فوستر دالاس محامي شركة الفواكه المتحدة، الذي يحمل عدداً من أسهمها كأكبر مؤسسة إمبريالية في غواتيمالا.

يومها جاء كاسترو إلى أرض المكسيك المحايدة ليجهّز حملته المضادة بالعودة إلى هافانا على أسنّة الحراب، وقد تعرّض الثوار إلى هجوم مباغت. وكانت مجموعتان من الشرطة المكسيكية تبحثان عن فيدل كاسترو بإيعاز من باتيستا، وسقط أعضاء المنظمة في أيديهم لدى مهاجمتهم المزرعة بالقرب من ضاحية المدينة. وكما يقول جيفارا في مذكراته «تشي جيفارا- يروي مراحل الثورة الكوبية، إعداد سعيد الجزائري، دار الجيل، بيروت، 2004»، «وجدنا أنفسنا جميعاً في السجن... وقضى بعضنا 57 يوماً فيه وكان خطر تسليمنا لحكومتنا معلّقاً فوق رؤوسنا»، وبسبب اكتشاف جاسوس بين صفوف الثوار، كما يروي جيفارا، فقد كان ينبغي عليهم القيام بنشاط محموم لإعداد المركب، الذي سيتم تخليده كرمزية كبيرة، وتحت اسم «غرانما» وينطلق يوم 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 حاملاً على ظهره 82 ثائراً وبضع بنادق وأعتدة وألبسة عسكرية. وفي الساعة الثانية صباحاً كانت كلمات كاسترو تتردد «سنتحرر أو نستشهد»، وظلّ صداها مخيّماً على أجواء الثورة حتى تحقق النصر، بل إن بعض الحركات الثورية كانت تختتم بياناتها بشعارات: الموت أو النصر.

لعلّ ساعة الانطلاق نحو الشواطئ الكوبية لبدء الكفاح المسلح كانت مثيرة

ومدعاة للقلق والتأمل، فقد أطفأوا أنوار مركب غرانما، وتركوا على عجالة مرفأ توكسبان، لكن دوار البحر سرعان ما داهمهم، ويصف جيفارا وضعهم بالمحزن المثير للقرف بالقول: «رجال وجوههم كالحة من الخوف والقلق ويمسكون بطونهم بأيديهم من الغثيان.. ثيابهم ملوثة بالقيء...» وبعد مسيرة مضنية وإلقاء جزء من حمولة المركب لتخفيف الوزن يصلون إلى الشواطئ الكوبية بطريق استدارة كبيرة استمرت لبضعة أيام حيث وصلوا إلى البر الكوبي..

يقول جيفارا: «كنّا جيشاً من الظلال والأشباح التي تتقدم كأنها مدفوعة بقوة بدنية غامضة، حيث تعرّضنا للجوع ودوار البحر لمدة 7 أيام، ثم لمدة ثلاثة أيام مريعة على الأرض، في بعض المستنقعات»، لاسيّما بعد هجوم قوات باتيستا عليهم وحصدها أرواح العشرات منهم لدرجة أن من تبقّى على قيد الحياة، كادت قواه أن تخور، وأن بعضهم كان جريحاً، لدرجة أن جيفارا الذي أصيب بجراح أيضاً، فكّر بالموت وبأن يترك نفسه عند جذع شجرة ويستعد لإنهاء حياته بكل كبرياء، مثل بطل جاك لندن الذي عرف أنه محكوم عليه بالموت متجمداً وسط ثلوج آلاسكا، فاختار طريقاً آخر أقصر منه.

بعد فترة وجيزة تجمّع من تبقى من فلول الثوار المنتشرة دون هدى وكانت نقطة الالتقاء هي معرفتهم بأن كاسترو ما زال على قيد الحياة، ووصلوا إليه بواسطة بعض القرويين، وكان أن خططوا لمعركة سريعة لتحسين المعنويات، وتحقّق لهم ما أرادوا حين كسبوا معركة لابلاتا التي انتصروا فيها في 17 كانون الثاني (يناير) 1957 أي بعد ستة أسابيع من وصولهم إلى الشواطئ الكوبية، حيث هاجموا الثكنة الصغيرة التي تقع على مصب نهر لابلاتا في سيرامايسترا، تلك المعركة التي انتشرت أخبارها مثل النار في الهشيم، الأمر الذي عاظم من معنويات الثوار وزاد من ثقتهم بأنفسهم وعزز من قدراتهم. ولعلّ تلك المعارك التي استمرت منذ أواخر العام 1956 وأوائل العام 1957 وحتى الأول من كانون الثاني (يناير) 1959 (يوم كان الإعلان عن انتصار الثورة) إنما تعيد إلى الذاكرة الحروب والتحديات التي تعرّضت لها كوبا قبل الثورة وما بعدها.

* * *

جيفارا ورمزية الصورة وصورة الرمز

لعلّها مفاجأة لمن يزور كوبا، حين لا يلحظ وجود صورة فيدل كاسترو قائد الكفاح المسلح وزعيم الثورة ضد نظام باتيستا وقائد البلاد لنحو خمسة عقود من الزمان، مثلما شاعت صور كيم إيل سونغ في كوريا، وماوتسي تونغ في الصين، وستالين وبعده الزعماء السوفييت في الاتحاد السوفييتي السابق، وتشاوتشيسكو في رومانيا، وجوزيف بروز تيتو في يوغسلافيا، وتقليدهم في دول العالم الثالث وما أطلقنا عليه بلدان «التحرر الوطني»، التي بالغت في نشر صور «القادة» المنزّهين، وخارج نطاق النقد، في كل مكان.

ربما تلك المفارقة الأولى المباشرة التي تدهش الزائر، لاسيّما إذا كان قد عاش في ظل أنظمة «العالم الثالث» والأنظمة الثورية والاشتراكية، لدرجة تجعل المرء في حيرة من أمره، حين يستعيد كيف تنتشر صور وتماثيل قادة الأنظمة الشمولية اليسارية والقومية والإسلامية وغيرها، في حين تختفي تماماً صورة كاسترو من المكاتب والجدران والساحات والأماكن العامة، ويتحدث عنه الناس لا باعتباره معصوماً أو خارج النقد، بل باعتباره صديقاً لهم أحياناً، حتى وإن اختلفوا معه أو بشأنه، وبشأن نظام الحكم وتقييماتهم له. ونقول ذلك ليس من باب الدعاية الأيديولوجية السابقة لإثبات الأفضليات، كما كان سائداً، ولكننا نتعرض لذلك مقارنة، بقدر كونه واقعاً تتميّز به كوبا ونظامها السياسي، لكن ذلك لا يمنع من نقد بعض الجوانب التي تتعلق باحتكار العمل السياسي والنقابي وهيمنة الحزب الواحد والمركزية الصارمة وشحّ حرية التعبير وغيرها.

أما المفارقة الثانية فإن صورة أرنستو تشي جيفارا تكاد تصادفها في كل مكان، وقد تكون تعويضاً عن صورة القائد- الرمز، مثلما هي رمزية البطولة والشهادة، خصوصاً وأن صاحبها غادرنا، وهو بعيد عن جبروت وقوة أهل النفوذ والسلطة، الأمر الذي يجعل صورة جيفارا نموذجاً رمزياً لحالة رومانسية وليست سلطوية، فهذا الاشتراكي النبيل، يبدو مثل فارس أو أمير، مملوء بالأحلام الغامضة الخضراء.

كان ذلك الطبيب الأرجنتيني الوسيم، الشجاع، ومحبوب النساء، قد ضاق ذرعاً بالوزارة، فقرر الانتقال إلى حيث مواقع المواجهة، مقاوماً بلا هوادة آفة البيروقراطية التي خاف على نفسه من أن تأكله، مدافعاً بلا حدود عن موقعه الثوري، ضد آلة الدولة التي حاول «الزوغان» عنها خوفاً من التهامه.

لقد أراد جيفارا أن يبقى ثورياً «طازجاً» لكل الفصول، فبذل كل ما في وسعه لكي لا يتحوّل إلى موظف أو إداري بيروقراطي، وهو الثوري الحالم، ولذلك لبّى نداء قلبه وعقله، وعاد إلى موقعه الحقيقي حيث الثورة التي في داخله، وهي التي قادته إلى الكونغو العام 1965، ليناضل ضد ظلم المستعمرين وأعوانهم وكان يردد «حيثما وجِدَ ظلم فهناك وطني»، مؤمناً بأن الحرية والعدالة هما وطنه، الذي يستحق أن يدافع فيه عن الإنسان بغض النظر عن قوميته وجنسيته وجنسه وانتمائه السياسي والثقافي وانحداره الاجتماعي وغير ذلك.

ومن الكونغو في أفريقيا إلى بوليفيا في أميركا اللاتينية شدّ رحاله مرّة أخرى، حيث لم يهدأ أو يقرّ له قرار منذ أن التقى كاسترو وشقيقه راؤول في المكسيك، وانتقلوا منها إلى الشواطئ الكوبية، ليتمكنوا لاحقاً من الزحف على هافانا لإسقاط نظام الدكتاتور باتيستا، بعد رحلة مضنية ومثيرة وشجاعة عبر جبال السيرامايسترا. لقد رفض تشي جيفارا كل إغراءات السلطة وكان ظمأه إلى الحرية يزداد ويتعمّق كل يوم مثلما كانت العدالة الاجتماعية هاجسه باستمرار.

يوم شاع نبأ اغتيال جيفارا في 8 تشرين الأول (أكتوبر) 1967، علق المفكّر الفرنسي الكبير جان بول سارتر قائلاً: «إن جيفارا كان أكثر الرجال

كمالاً في عصرنا»، وهو الذي التقاه مع صديقته الأديبة سيمون دي بوفوار بعد انتصار الثورة العام 1959، بكل العفاف الثوري والنزاهة الأخلاقية والتجرّد الإنساني والاستعداد للتضحية بلا حدود. وكنت قد سألت الجواهري شاعر العرب الأكبر في إحدى مطارحاتنا عن جيفارا فردد بيتاً من الشعر:

إن الحياة معاناةٌ وتضحيةٌ حبّ السلامة فيها أرذل السبلِ

علّقت عليه ألست أنت القائل؟:

وأركبُ الهولَ في ريعان مأمنةٍ حبّ الحياة بحب الموت يغريني؟

وهنا التمعت عينا الجواهري فرحاً وكأنه يتحدث عن نفسه، فقال إن الشجعان المضحّين هم أكثر حبّاً للحياة وتفانياً من أجلها واستعداداً للبذل والعطاء، لأنهم يريدون حياة كريمة وحرّة، وصدق من قال:

لا تسقني كأس الحياة بذلةٍ بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل

وإذا كان جيفارا شجاعاً، فلكونه إنساناً لديه إحساس عالٍ بالعدالة بكل ما تعني هذه الكلمة، وهنا لا أريد أن أضفي عليه صفة القداسة، مثلما يفعل بعض من محبيه ومريديه، في حين يدمغه خصومه وأعداؤه بممارسة العنف، بل والإرهاب، لكونه اختار طريق الكفاح المسلح؛ ومرّة أخرى لا بدّ من تسليط الضوء على خيارات جيفارا باعتباره نتاج مرحلة، كان فيها العنف الثوري والكفاح المسلح، أحد مستلزمات النضال الاشتراكي واليساري، لاسيّما خلال فترة الستينيات وتفاقم الحرب الباردة والصراع الأيديولوجي بين المعسكرين: الاشتراكي والرأسمالي، فقد وضع ما يؤمن به موضع التطبيق، وعاش بكل جوارحه للمثُل والقيم التي كان يدعو إليها.

قد يكون بعضهم بالغ حين جعل من جيفارا أسطورة من الأساطير، وهو ما ينسجم مع البحث الإنساني- لاسيّما في البلدان النامية- عن مخلّص أو منقذ أو بطل خارق، الأمر الذي كان يتعارض مع سلوك جيفارا ونهجه، حيث كان

يعيش حياته بكل اعتيادية وإنسانية شفيفة، يحب ويعشق ويدخّن ويكتب، يخطئ ويصيب وهو هكذا ينظر إلى الآخرين من موقع النقد والنقد الذاتي، ولعلّ أهم ما يميّزه عن غيره أنه في كل ما قال وعمل كان صادقاً وأصيلاً وشجاعاً، الأمر الذي ينبغي أن يؤخذ في سياقه التاريخي، ضمن الفكر السائد آنذاك، لاسيّما باشتعال الصراع على جميع الجبهات بين الرأسمالية والاشتراكية.

وإذا كان لجيفارا رمزية خاصة، فلعلّ جزءًا منها تكوّن بعد استشهاده المثير في بوليفيا وتعدّد الروايات حول مقتله، ومن ثم تغييب جثمانه وأخيراً ما ارتبط بنقل رُفاته بعد 30 عاماً.

ليست صورة تشي جيفارا وحده، بالرغم من أنها الأبرز تزيّن الأماكن العامة، والساحات والمكاتب الرسمية وغير الرسمية، فصور وتماثيل الشهداء والأبطال تملأ الفضاءات بكل أناقة وذوق؛ إنها رمزية الصورة وصورة الرمز، حيث تختلط في إطار من الحلم الوقّاد، بهارمونية إنسانية باهرة.

في مكان متميّز من هافانا (ساحة الحريّة) انتصب تمثال البطل القومي الكوبي سان خوزيه مارتيه الذي استشهد في نهاية القرن التاسع عشر مقاوماً الغزو الأجنبي، دفاعاً عن وطنه وهو الشخصية الكوبية الجامعة التي يمجّدها الكوبيون ويتحدثون عنها باعتزاز كبير. تمثال سان خوزيه مارتيه وهو يحمل طفلاً، له رمزية أخرى، فكأنه يريد أن يقول لأطفال كوبا والعالم أجمع وجميع المضطهدين من مختلف الأجيال: إن عدوكم هو هذا، حيث يوجّه نظره صوب الولايات المتحدة التي تحاصر كوبا منذ خمسة عقود من الزمان.

لم يكن الاتحاد السوفييتي السابق بالرغم من كل الاختلافات والمشاحنات الفكرية والعملية يتردد في تقديم المساعدات الأممية لكوبا، وبغض النظر عن بعض الضغوط ومحاولات إملاء الإرادة وإشكالية العلاقات، إلا أنها استطاعت حماية كوبا في فترة عصيبة من الحرب الباردة، ولم تتجرأ واشنطن على مهاجمتها، لاسيّما بعد الوفاق الذي أعقب أزمة الصواريخ العام 1962 بين

جون كينيدي ونيكيتا خروشوف، حين تمّ سحب الصواريخ السوفييتية، مقابل تعهد بعدم مهاجمة كوبا.

لكن واشنطن بعد انهيار الكتلة الاشتراكية وانقطاع المساعدات عن كوبا، أقدمت عبر سفارتها في هافانا على رفع لوحات مضاءة أمام مبناها وبأعلى طابق تدعو الشعب الكوبي إلى التمرد والثورة ضد حكومة فيدل كاسترو والحزب الشيوعي، وبالرغم من أن ذلك الإجراء غير دبلوماسي، إلا أن السلطات الكوبية واجهتها بالأسلوب نفسه حين رفعت راياتٍ وأعلاماً، حتى كادت المنطقة تحجب رؤية المارّة عن قراءة ما كتبته السفارة الأميركية، وسميّ ذلك المكان «جبل الرايات» أو «تلة الأعلام»، وهو عبارة عن مرتفع عُرف باسم «منصّة مناهضة الإمبريالية» قبالة السفارة الأميركية، وبادر المواطنون لعقد محاكمات صورية لقادة الولايات المتحدة، حيث يحضر فيها أبناء الشهداء والضحايا الذين سقطوا جرّاء خطط الغزو والتآمر والحصار، إضافة إلى بقايا الهنود الحمر الذين يقدمون شهاداتهم بحق ما لحق بهم من غبن وحيف ويطالبون بالتعويض وجبر الضرر وإحقاق العدالة!

* * *

جيفارا والأممية البيروقراطية

ثمة إشكالية فكرية وخلافات نظرية وتكتيكية كانت قد أخذت طريقها بين الحزب الشيوعي الكوبي المتأثر بالنهج السوفييتي، وبين الاتجاه الثوري لكاسترو وجيفارا ورفاقهما. وكانت الأطروحة الشيوعية الرسمية تشكك بإمكانية نجاح ثورة جبال السييرامايسترا واستخدام البؤر الثورية والتركيز على دور الطليعة والنخبة بدلاً من دور الجماهير وقناعاتها، لاسيّما تجاوز دور الحزب والسعي لحرق المراحل لإنضاج الظروف الموضوعية وتسريع إنضاج الظروف الذاتية. ولهذا السبب ناصبت الحركة الشيوعية الرسمية العداء للاتجاه الكاستروي- الجيفاري، وهو ما كان سائداً ضمن الخط السوفييتي، خصوصاً بتفضيل أسلوب النضال السلمي والسياسي وإعراضها عن أسلوب الكفاح المسلح، بل تسفيهه. لكنها بالرغم من ذلك أسهمت في تهيئة الظروف الموضوعية للثورة من خلال نضالات سياسية وبخاصة قيادتها للإضراب العمالي العام عشية انتصار الثورة، وهو ما قيّمه كاسترو إيجابياً في تقريره المقدّم إلى المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الكوبي المنعقد في شهر كانون الأول (ديسمبر) العام 1975 بعد اتحاده مع حركة 26 تموز (يوليو)، كما سيأتي ذكره.

وقد انعكس ذلك لاحقاً على تطور العلاقات الكوبية- السوفييتية وفي الموقف من تشي جيفارا أيضاً، الثوري الذي ظل حالماً؛ فيوم أنهى دراسته في كلية الطب العام 1953 قام بجولة على دراجته النارية (الموتورسايكل) في أنحاء القارة الأميركية ليتعرّف على أوضاعها ويتحسّس الظلم الذي تعاني منه. وفي

العام 1954 التقى بصديقته (الليدا) Aleida التي تزوجها لاحقاً، وكان تشي جيفارا قد التقى بكاسترو بعد فشل المحاولة الثورية الأولى واعتقال عدد من القيادات الثورية بينهم كاسترو وجيفارا وراؤول في المكسيك، وهناك اتفقا في عهدٍ لا انفصام فيه على مشروع الثورة، التي كان كاسترو منظّرها ومحاميها وكان تشي جيفارا أحد أبطالها وطبيبها.

في شهر كانون الأول (ديسمبر) العام 1956 غادرت ثلة من الثوار باتجاه الشواطئ الكوبية، وكان عددهم 82، وكانت المفاجأة ترصّد رجال باتيستا لهم، فتفرق شملهم ولم يبقَ منهم إلا 21 مناضلاً، كما سبق ذكره. بعد الثورة حظي تشي جيفارا بمكانة كبيرة وأصبح رمزاً لجيل الشباب الثوري، ليس في أميركا اللاتينية فحسب، بل في العالم أجمع، لدرجة أن تقليعة شعره وقبعته العسكرية أصبحتا أحد موديلات العصر. لم يطق أن يكون وزيراً للصناعة ومسؤولاً في الحزب والدولة التي شهدت تحالفاً ثورياً جديداً بانضمام المجاميع الثورية بما فيها الحزب الشيوعي إلى جناح فيدل كاسترو وتتويجه زعيماً على البلاد دون منازع، وقد يكون ذلك أحد أخطاء الثورة التي أنهت عهد التعددية والمنافسة المشروعة ودفعت البلاد باتجاه الواحدية والمركزية والصرامة والحزب الواحد، وزاد من هذا التوجه السلطوي الشمولي، استمرار الحصار الأميركي الجائر، وما تركه من تأثيرات سلبية عميقة، نفسية واجتماعية على المجتمع الكوبي.

وعلى الرغم من التصالح الكوبي- السوفييتي فإن موقف تشي جيفارا والثورة الكوبية ظلّ ملتبساً بالنسبة للحركة الشيوعية العالمية، قبل وبُعيد أزمة الصواريخ العام 1962. وعندما زار كاسترو الاتحاد السوفييتي في زيارة سرّية استغرقت مدة 35 يوماً، عاد وقلبه مملوء بالقيح للبيروقراطية والفوارق الطبقية بين القيادات والجماهير، وتبدّد الحلم الثوري، خصوصاً في ظل تفاقم الصعوبات والأخطاء والتحديات.

أما عندما زار تشي جيفارا الاتحاد السوفييتي لأول مرّة فقد استقبله أمين عام الحزب نيكيتا خروشوف بالأحضان، ولم يكن هو مرتاحاً من تلك الزيارة،

وانتقد الأوضاع كثيراً وعبّر عن تبرمه، الأمر الذي لم يحبّذه السوفييت، الذين كانوا يرغبون في أن يقدّم إليهم زعماء الأحزاب الشيوعية الولاء والطاعة ويعلنون جهاراً نهاراً عن تأييد كامل سياساتهم وتوجهاتهم، حتى إزاء بلدانهم أحياناً.

في الزيارة الثانية لم يستقبله أي مسؤول سوفييتي كبير واكتفوا بموظف حزبي من وزارة الخارجية، لأن حبل الودّ بينه وبينهم قد انقطع، وذلك جزء من عدم الارتياح سواءً اتفق ذلك أو تعارض مع البروتوكول الدبلوماسي، فالمركز الأممي لم تكن تهمّه كثيراً مثل تلك الاعتبارات، لاسيّما في ظل بيروقراطية الدولة وآلتها التي أكلت الثوريين، فتحولوا في الكثير من الأحيان إلى مجرد موظفين لا قلب لهم، في حين كان جيفارا يضع قلبه وعقله في مكان واحد.

وعندما قرر تشي جيفارا الذهاب إلى الكونغو لم يُطلع السوفييت على سرّ رحلته، الأمر الذي أغاظهم كثيراً، وحاولوا النيل منه لأنه حسب التبريرات السائدة فإنّ خطوته كانت تهديداً لسياسة التعايش السلمي، وهو الموضوع الذي كانوا يحرصون عليه أشد الحرص، حتى قيل إنهم كانوا لا يتورّعون عن إعلان معارضتهم لسياسات حلفائهم «انسجاماً» مع ما سُمّي «سياسة الوفاق الدولي». أما في بوليفيا فقد كانت المسألة أكثر سوءًا حين اتّخذ الحزب الشيوعي البوليفي موقفاً أقرب إلى العداء، وأكثر من النقد والاختلاف الفكري من تشي جيفارا، وأشيع في حينها أن كشف مكان تشي جيفارا الذي بذلت فيه الـ CIA جهوداً مضنية لم يكن بمعزل عن تواطؤ مباشر أو غير مباشر مع الـ KGB عبر اختراقات ملتبسة ومعقدة، بالرغم من أن هذه المسألة لم تظهر حولها دراسات كافية حتى الآن، لاسيّما من جانب الأوساط المتنفذة آنذاك، وهو ما حاولت أن أناقش فيه مرافقي إدواردو البالغ من العمر 45 عاماً والمتحدث الممتاز باللغة الإنجليزية، الذي رافقني من منتجع فراديرو، إلى مدينة سانتا كلارا الشهيرة في محافظة فيلّا كلارا، إلى مدينة ترينداد التاريخية الجميلة، والتي كانت ضمن إحدى خطط الـCIA لغزو كوبا في الستينيات.

في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1967 أعلن عن مقتل تشي جيفارا ولم يعثر على رفاته إلا بعد مرور 30 عاماً أي في العام 1997 فنقل إلى مقبرة سانتا كلارا وإلى جانبه صديقته الألمانية تمارا بونكر المعروفة باسمها الحركي «تانيا» التي ربطته بها علاقة متميزة وأثيرة.

إن صورة جيفارا الشهيرة التي التقطها المصور كوردا تجوب العالم اليوم، وهي تعود مثل طائر العنقاء تحط على الصدور والقمصان والمحفظات وعلب الموسيقى وتتصدر بروشورات العروض المسرحية (الكتيبات الدعائية) والأفلام وقصائد الشعر والروايات والمنحوتات والدراسات والأبحاث. إن صورة جيفارا اليوم تزيّن البيوت والمكاتب والقاعات والساحات، والأهم من ذلك أنها تسكن في قلوب النساء والرجال، ولاسيّما الشباب منهم من ألوان وأجناس وأمم وشعوب وقوميات ولغات وأديان شتى.

وهذه الصورة ليست للتسويق أو «الماركيتنغ» (Marketing) كما يتمّ التداول، بل تختزل كل الأشياء الآن، فهي لرمز صنع نفسه وصنعته الأحداث، لبطولة ورومانسية ومثالية نادرة، لذلك الحلم الغامض الذي ظل يلفّ كل عقل جيفارا، وكان يردد ما كان إنجلز (Friedrich Engles) يكتبه: «السعادة في النضال والتعاسة في الخنوع».

إن صورة جيفارا ليست مدفوعة الثمن، إنها ملك مشاع لكل من يرغب للتمثل به أو إحياء ذكراه.

* * *

الاشتراكية وأسئلة التنمية!

كان خيار الاشتراكية في كوبا منعطفاً جديداً في مواجهة محاولات التحدي الأميركية، لكن الإشكالية الأساسية التي واجهتها التجربة الكوبية، وهي تخطو خطواتها الأولى نحو الاشتراكية، هي أية إدارية اقتصادية يمكنها النهوض بهذه المهمة المعقّدة والعويصة، خصوصاً تلك التي يمكن أن تساهم في تسريع التنمية وتحقيق منافع تعود على الإنسان بالرفاه، وتلبّي حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟. ولعلّ ذلك كان أحد الأسئلة الكبرى التي واجهت مسألة التنمية وخياراتها الاشتراكية على مستوى العالمي.

لم يكن قد تبلور بعد نموذج اشتراكي واضح، صالح للاقتباس أو الاقتداء به، فالتجربة السوفييتية والتجربة الصينية، كانتا محطّ نقد ومراجعات كوبية، من جانب فيدل كاسترو وجيفارا وغيرهما. وكان الأخير من خلال مطارحاته ومداخلاته الرسمية وغير الرسمية في الغالب، يعبّر عن قلق وشكوك بما تحقق من منجزات، فضلاً عن ضعف ثقة، لاسيّما بما هو قائم، ولم يكن يخفي بعض هواجسه وهمومه، بل أخذ يعبّر عنها تصريحاً أو تلميحاً، ويطرح أسئلة محرجة، تستفز العقل وتدعو لتخطّي نمط التفكير السائد، لاسيّما من خلال النقد وإعادة القراءة والتأويل.

طرح جيفارا نظام التمويل بالميزانية كحل لتحدّي مرحلة الانتقال الاشتراكي، وذلك بديلاً ومعارضاً لنظام التمويل الذاتي المطبّق في الاتحاد السوفييتي وبعض البلدان الاشتراكية، ولعلّ الاختلاف بينهما واضح وجليّ.

ربما تعود فكرة التمويل بالميزانية إلى نزعة جيفارا الرومانسية، إلّا أنه كان يريدها ضمانة لتأمين الاحتياجات الأساسية والعاجلة للسكان، لاسيّما في ظل التحدّيات الكبرى التي تواجهها الثورة، وبشكل خاص بعد الحصار الأميركي الذي أخذ يشد وثاقه عليها.

ولم يقترح جيفارا نظام التمويل بالميزانية كشيء مطلق، لكنه اعتقد أنه يصلح لكوبا، وربما لبعض دول العالم الثالث، التي تعيش ظروفاً مشابهة، ولعلّه حاول استباق الأمور قبل أن يستفحل النموذج السوفييتي الذي كان مؤثراً، لما سيتركه من آثار سلبية على التنمية المستقبلية.

وفي هذا الصدد يمكن حصر جوهر الخلاف مع النموذج السوفييتي فيما يتعلق بقانون القيمة، وحسب مسعد عربيد، فإن عدداً من المسائل تمحورت في هذا الصدد تتعلق بظروف القانون والمجالات التي يسري فيها مفعوله، ثم مدى قدرته على ضبط الإنتاج، وعلاقته بالخطة الاقتصادية، وأخيراً مدى صلاحه من عدمه؟ (أي رفضه أو الإبقاء عليه).

يقول جيفارا إنَّ قانون القيمة من مخلّفات التشكيلة الرأسمالية، حيث يتمّ العمل به في السوق الحرة، وذلك سيكون نقيضاً للتحوّل الاشتراكي الذي يفترض إلغاء الأسواق الحرة، وبالتالي إبطال مفعول قانون القيمة، ولكنه يستدرك أن بالإمكان تطبيقه على نحو مؤقت في المرحلة الانتقالية، على أن تتجه الخطة لتقويضه لاحقاً، في حين أن السوفييت ظلّوا حتى سنوات الستينيات يعتقدون أن قانون القيمة يقوم بمهمة ضبط الإنتاج، وأن السلع ستكون خاضعة له حتى تتحقق المرحلة الشيوعية.

وقد عارض جيفارا اعتبار قانون القيمة ضابطاً للإنتاج في القطاع الاشتراكي، ومن الضروري تحليل وتدقيق كلفة الإنتاج، الذي لا ينبغي بالضرورة، أن يتناسب مع سعر السلعة، وبعكس ذلك سيتم تكريس الرأسمالية، وسيصبح من المستحيل التغلب على الفوارق بين القطاعات الاقتصادية.

لقد نضجت فكرة نظام التمويل بالميزانية نقيضاً للتمويل الذاتي خلال

مناقشات ما سميّ بالجدل الكبير، وهو ما حاول جيفارا إعطاءه عصارة فكره واجتهاده وجهده النظري، على الرغم من وجود اعتراضات وتحدّيات واجهته.

ويقوم نظام التمويل بالميزانية على فكرة مفادها قيام الاقتصاد الكوبي بالإنتاج عبر وحدات إنتاجية (مؤسسات أو شركات) منتظمة في قطاعات مختلفة حسب التخصص الصناعي، يكون تمويلها مركزياً، وكذلك ضبط وظيفتها وأدائها، أي أن تكون جزءاً من تخطيط مركزي حقيقي. ويستخدم هذا النظام النقود كوسيلة حسابية، وظيفتها مسك الدفاتر والتعبير عن السعر كمؤشر لأداء الوحدة الإنتاجية، أي أن النقود تكون بيد السلطة التخطيطية المركزية، التي تستخدم الدراسات والتحليلات وتخطيط الأجهزة المركزية، وهكذا تكون الشركات بلا رصيد أو صندوق نقدي، وليس بمقدورها الاستدانة، لكن التبادل بينها سيكون بضائعياً وليس نقدياً، ويعتقد جيفارا أن هذا هو الذي سيلغي قانون القيمة.

لكن المصارف تحتفظ بحسابات سحب وإيداع للشركات وفقاً لخطة الإنتاج الوطنية الشاملة، المرتبطة بالدولة. ويردُّ على موضوع الحوافز المادية: الجماعية والفردية للعامل «كفرد» أو كمجموعة عمال في وحدة إنتاجية معينة ويعتبرها في الجوهر تنازلاً ضرورياً، أو بحكم الضرورة، لا يتعلق بالأجور أو دفع المكافآت فحسب، ولا علاقة له كرافعة أساسية للإنتاج أو رفع الإنتاجية، ويكون التدريب والتأهيل المهني إلزامياً، كما هو شرط للترقية في العمل والتدرّج في الوظائف، لكن جيفارا يركز على الحوافز المعنوية ويعطيها دوراً كبيراً، لأنها تساعد على تعزيز وتنمية الوعي الاشتراكي من خلال آليات للعمل الطوعي لخلق الإنسان الاشتراكي.

وبهذا المعنى فإن قانون القيمة حسب جيفارا يبقى في المرحلة الانتقالية مؤقتاً ومحدوداً، أو يُطبّق على نحو جزئي، ويعد السبب في ذلك إلى الثقافة الاستهلاكية السائدة ورواسب مجتمع السلع الرأسمالي، لكن الخطط الاقتصادية

التي تشكل النقيض الأيديولوجي لقانون القيمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة كفيلان بتجاوزه ودحضه.

وبخصوص الأسعار فإن نظام التمويل بالميزانية يحاول الإبقاء على أسعار المواد الخام كما هي في السوق العالمية، ويبرر جيفارا ذلك بالقول «للضرورة أحكام»، خصوصاً للتعاطي مع قانون القيمة الرأسمالي العالمي، إذ إن أسعار المنتجات تتحدد تبعاً لكلفتها، وليس على أساس الربح، وهو ما يجب مقارنته بالأسعار العالمية، سواءً لسعر الجملة وطبقاً لاحتياجات المجتمع الأساسية أو غيرها.

ولم يتردد جيفارا بعد مشاهدات عديدة في الاتحاد السوفييتي وفيما بعد في تشيكوسلوفاكيا من نقد موضوع المزارع التعاونية (الكولخوزات) (Collective farm) التي تمّ تأسيسها في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، ويتلخص رأيه أن نظام الكولخوز هو نظام سوفييتي وليس اشتراكياً، وبالتالي لا يجوز تعميم التجربة. وكان دليل الاقتصاد السوفييتي قد حاول الخلط باستمرار بين ما يطلق عليه النظرية الاشتراكية وبين التجربة السوفييتية.

ويرى جيفارا ضرورة تحويل الملكية الجماعية (التعاونيات) إلى ملكية اجتماعية (تحت هيمنة الدولة) وبذلك يعتبر جيفارا أكثر تشدداً إزاء موضوع الحوافز المادية ودور الفرد من الاتحاد السوفييتي الذي بالرغم من شموليته، إلّا أنه حاول إعطاء متنفس أو إيجاد فرصة للإبقاء على بعض هوامش الملكية الفردية، وهو ما ينتقده جيفارا، وما يمكن اعتباره الاتجاه الأكثر راديكالية وتطرفاً إزاء التحول الاشتراكي، حيث كان جيفارا أكثر إسقاطاً لرغباته على الواقع؛ فالكولخوزات نظرياً اتحاد مزارعين في جمعية تعاونية، يسهمون في الإنتاج ويحصلون على جزء منه وعلى جزء من الأرباح، كما يمكنهم الحصول على مساحة معينة من الأراضي المحددة (ملكية خاصة) والاحتفاظ ببعض المواشي، وهو ما انتقده جيفارا.

لعلّ هذا هو النموذج الجيفاري- الكاسترويّ (الكوبي) للتجربة الاشتراكية

في فهمهما الستيني، في حين كان النموذج السوفييتي يقوم على التمويل الذاتي لكل وحدة إنتاجية، حيث تعتبر هذه كياناً خاصاً ذا هوية قانونية مستقلة وهي المسؤولة عن تمويل ذاتها.

ويرجّح النموذج السوفييتي استخدام النقود وسيلة للدفع، وأيضاً وسيلة للحسابات ومسك الدفاتر، كما يستخدم كآلية، لاسيّما في ظل استمرار قانون القيمة، الذي يعتبر سببه حسب ترجيح السوفييت هو التخلف التكنولوجي والعلمي والثقافي الذي لا يزال مستمراً في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية، كما لا بدّ من مراعاة القانون في تقييم الخطة الاقتصادية، وضرورة بقاء العلاقات السلعية بين جميع الوحدات الإنتاجية والمؤسسات والشركات الربحية الحالية، وهي المفتاح لتقديم الإنتاج وتحفيزه.

وتشبه علاقات البنوك مع الشركات إلى حد كبير، العلاقة القائمة بين المنتج الخاص والبنك الرأسمالي؛ وبمقدور الشركات الاستلاف من البنوك شريطة إثبات قدرتها على الإيفاء بالديون ووضع خطة مالية ونقدية، الّا أن هذه القرارات تتم وفق خطة وطنية.

وتتحد الأسعار طبقاً لقانون القيمة ذاته ويتحدد السعر للمستهلك بحسب قانوني العرض والطلب.

اطروحة طريق التطور اللارأسمالي

لم يدرس ماركس معنى الأزمة الاقتصادية للرأسمالية دراسة كاملة، فهي لم تكن واضحة ضمن الحقبة التاريخية للاقتصاد السياسي الرأسمالي، حيث لم يعش في فترات الأزمات التي عُرفت لاحقاً: أزمة العام 1929- 1933 وأزمة السبعينيات وأزمة الرهن العقاري والأزمة المالية والاقتصادية، نهاية العام 2008 وبداية العام 2009، لكن الدراسات السوفييتية ظلّت تستخدم التعميمات التي جاء بها ماركس.

حذّر جيفارا من وصف لينين على أن الامبريالية هي تجسيد للرأسمالية في مرحلة الاحتضار، مشيراً إلى أنها ليست رأسمالية احتكارية طفيلية، بل هي ابتدأت تستكمل ظروف نضجها، ولذلك فضل استخدام مصطلح «الرأسمالية الناضجة»، أي أن إمكانية تطورها أصبحت قليلة أو محدودة، مشبهاً ذلك بالرجل الذي قد يكون نضج في منتصف عمره، ولم يعد قابلاً للتحوّلات الفيزيولوجية، الّا أنه لا يحتضر، أي أن الرأسمالية في مرحلة الامبريالية وصلت إلى مرحلة النضج الكامل، لكنها لم تستنفذ أغراضها وإمكاناتها، ولا تزال تتمتع بحيوية كبيرة.

وشخّص جيفارا قوة الإنتاج العسكري للرأسمالية وعنفها، وهي التي تحول دون تحقيق الطموح الاشتراكي، الأمر الذي رجّح لديه الانتقال الواعي والمفروض بالعنف، أيضاً. وشكك جيفارا بأطروحة طريق التطور اللارأسمالي الذي ساد موديلها في أوائل الستينيات بدعم من موسكو بقيادة خروشوف

وتنظيرات سوسلوف، ونُسبت هذه النظرية إلى لينين، الذي قيل إنه تحدث عنها وقد أوردها «الدليل الاقتصادي السوفييتي» كأطروحة جاهزة مفادها: من الممكن في ظروف تاريخية معينة لبلد متخلّف وتحت قيادة الطبقة العاملة أو الديمقراطيين الثوريين، أن يتم التطور والتحوّل الاشتراكي اقتصادياً واجتماعياً، عبر طريق التطور اللارأسمالي من دون المرور بالمرحلة الرأسمالية، حيث تفتح الثورة الديمقراطية- البرجوازية الطريق للثورة الاشتراكية.

أبدى جيفارا علامات استفهام حول الاقتباسات التي وردت على لسان لينين، لاسيّما استخدام مصطلح «التطور اللارأسمالي»، مؤكداً أنه ليس هناك طريق ثالث، فالخيار هو إمّا للرأسمالية أو للاشتراكية، وبذلك حاول تخطئة السوفييت، بالقول إن نظريتهم تفشل، لتجاوزهم ماركس، بالاستناد إلى لينين بطريقة انتقائية مخلّة، ولاسيّما بعد العام 1920 وما تلاه.

وكان الدليل الاقتصادي السوفييتي قد استبعد خطر عودة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي فما بالك بتفكيكه، واعتقدت المدرسة السوفييتية السائدة أن الاشتراكية قد انتصرت بالكامل، لكن جيفارا جادل بخصوص بعض التحوّلات الاقتصادية التي شهدها الاتحاد السوفييتي، وكذلك يوغسلافيا ملمحاً إلى أنها قد تؤدي إلى عودة الرأسمالية، وخصوصاً بوجود قوى «رجعية» يهمها ذلك. ولا شك أن جيفارا قصد بعض المفاهيم الخاطئة التي تشمل الرغبة في التشكيل الهجين، أي التحول إلى الاشتراكية مع بناء بعض عناصر الرأسمالية الأمر الذي سيؤدي إلى طريق مسدود أو إلى مخرجات لا يُعرف مآلها.

واعتبر جيفارا الحديث عن ولوج الاتحاد السوفييتي مرحلة الشيوعية، كما صرّح بذلك خروشوف في العام 1960 مجرد رغبة يمكن إسقاطها على الواقع. وكان الزعيم السوفييتي قد قال: «أن العام 1980 سيشهد دخول الاتحاد السوفييتي مرحلة الشيوعية»، وهو ما أورده الدليل، في حين أن بدايات تفكيك الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية كانت قد توضحت في مطلع العام 1980، سواءً على الصعيد الخارجي أو الداخلي.

واعتبر جيفارا ذلك مخالفاً للماركسية لسببين:

الأول- إذا قامت الشيوعية في ظل التطورات الراهنة وتطورات السوق العالمية، فستقوم على قاعدة الاستغلال وعدم الاكتراث بالشعوب التي يتم التبادل التجاري معها.

الثاني- إن تخصيصات الموارد الهائلة لتمويل الدفاع العسكري لن تسمح بالتطور الكامل نحو الشيوعية.

وقد أنكر جيفارا تجاوز السوفييت وفيما بعد التشيكوسلوفاك، المرحلة الأولى للشيوعية ببناء الاشتراكية، واعتبر ذلك ادعاءً زائفاً بسبب وجود الملكية الخاصة، وأن الاقتصاد الجديد لم يكتمل وأن العملية برمتها غير متكاملة. وعارض جيفارا إمكانية الانتقال سلمياً إلى الاشتراكية، كما أورد ذلك الدليل السوفييتي وتحدى السوفييت إثبات ذلك.

وأشار الدليل: إن القانون الأساسي للتنمية الاشتراكية هو الإنتاج لتحسين الحياة المادية للعمال ومستواهم الثقافي، وذلك بتسريع وتواصل الصناعة والتطبيق الكامل للتكنولوجيا، في حين ركّز جيفارا على التخطيط باعتباره الفرصة الأولى المتاحة للإنسان للسيطرة على القوى الاقتصادية، وبذلك يكون القانون الأساسي هو تفسير وإدارة القوانين الاقتصادية لتلك الفترة.

وقد خالف جيفارا الدليل السوفييتي الذي زعم أن الإنتاج الاشتراكي متواصل ودون انقطاع، بزعم أنه متحرر من الأزمات ولا يتأثر بها، في حين كان يرى أن المشاكل التي واجهتها الدول الاشتراكية، لاسيّما في أوروبا الشرقية، وأزمة القمح في حينها العام 1963، تقول إنَّ الإنتاج الاشتراكي يمكن أن ينقطع ويتعطل بشكل خطير، وهناك فترات ركود وأزمات ناجمة عن أخطاء.

وفي حين كان الدليل يطالب العامل بالعمل على رفع إنتاجية العمل بشكل مستمر، كان جيفارا يعتبر ذلك إساءةً كبيرة، لأن رفع الإنتاجية هو ديدن الرأسمالية منذ قرون، أما زيادة الإنتاج عبر الحوافز الفردية فهو يعني السقوط إلى ما هو أدنى من الرأسماليين، وهو ما يضاعف استغلال العامل، واعتبر رفع

الإنتاجية يتم عبر التكنولوجيا، التي توفّر القفزات السريعة والكبيرة في نوعية الإنتاج.

وقد وجد جيفارا ادعاء الدليل أن التراكم الاشتراكي يتطلب استثماراً منتظماً لجزء من الدخل القومي في ميزانية الإنتاج، قانوناً رأسمالياً على الرغم من أنه يرتدي بدلة جديدة، واعتبر أن طريق الوصول إلى الشيوعية لا يتم عبر وضع أهداف «تأمين الخبز والبصل» (يقصد توفير الاحتياجات الأساسية للسكان) وربما كان يرد على مخاطبة خروشوف المجريين بأن الاشتراكية وفرت لهم «الكولاج» (وهي أكلة شعبية شهيرة)، حيث ردّ عليه الصينيون بحملة شعواء إبان اشتعال الصراع الصيني- السوفييتي ساخرين من «اشتراكية الكولاج». واعتبر جيفارا أن طريق الوصول إلى الشيوعية يمرّ عبر تحقيق مستوى ثابت من تنمية القوى المنتجة ومستوى متطور من الوعي الجماهيري ووضع ملكية وسائل الإنتاج في أيدي المجتمع.

ويردُّ جيفارا على الدليل بشأن زوال التناحر بين التراكم والاستهلاك، بالقول إنَّ التناقض يكون تناحرياً، ويظل هاماً ويجب أخذه بنظر الاعتبار في الخطة الاقتصادية السنوية. أما بشأن الأخيرة فإن الدليل يقول إنَّ الجماهير تتنافس بخصوص تنفيذ الخطة، لكن جيفارا يعتبر ذلك غير صحيح، لا في الاتحاد السوفييتي ولا كوبا ولا في أي بلد آخر، ويذهب إلى القول: إن معالجة التخطيط ككيان آلي يغفل حقيقة أنه في المرحلة الأولى من نضال الإنسان هي السيطرة والتحكم بشؤونه: إنه حالة روحية ذات شرطين هما: ملكية وسائل الإنتاج والوعي بالقدرة على توجيه الأمور.

وخطّأ جيفارا السوفييت بشأن عدم تمييزهم بين الرأسمالية ما قبل الاحتكارية وبين الرأسمالية الاحتكارية، الأمر الذي أحدث تشوّشاً وارتباكاً لفهم التناقضات الطبقية، ولعلّه أخذ عن الصينيين مسألة التناقض بين الشعوب المضطهَدة وبين الشعوب المضطهِدة، وهو الذي يحدد إستراتيجية القوى

التقدمية، حيث حوّلت الاستثمارات الاحتكارية الخارجية، الطبقة العاملة إلى متنفع نسبي مقارنة بالفلاحين، وأن الرأسماليين الحاليين يتحالفون مع الامبريالية.

وإذا كانت وجهات نظر جيفارا النقدية تستحق التقدير، لاسيّما اتسامها بالجرأة وخروجها على نمط التفكير التقليدي السائد، خصوصاً تقييماته إزاء الأزمة العامة للرأسمالية والتجربة الاشتراكية السوفييتية، وتصويباته للنظرية السائدة حول طريق التطور اللارأسمالي، والمبالغة في دور «الديمقراطيين الثوريين» وهو ما حصل إزاء مصر والجزائر وسورية والعراق وغيرها، حسب الاجتهاد السوفييتي، وكذلك تعظيم بعض المنجزات التي حققوها، إلّا أن آراء جيفارا لم تكن تخلو من إرادوية، خصوصاً نفي أية إمكانية للتطور السلمي للوصول إلى الاشتراكية، واعتبار العنف ضرورة لا غنى عنها. إن النقد للتجربة الاشتراكية في الكثير من الإشكالات والمشاكل كان في محلّه، لكن اقتراح بدائل من زاوية التشدد ليس دليلاً على الراديكالية أو «الثورية»، بالرغم ممّا اتّسم به من صدقية ورومانسية!.

* * *

برنامج المونكادا

استلهم كاسترو ومجموعة من رفاقه الذين قرروا اختيار طريق الكفاح المسلح لإنقاذ البلاد من حكم الفساد والاستبداد الممالئ للامبريالية الأميركية، «التجربة الغنية للكفاح المسلح لشعب كوبا واسترشدوا بتعاليم خوسيه مارتيه وبمبادئ الماركسية- اللينينية..» كما جاء ذلك في خطابه في المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الكوبي عند إعادة تأسيسه (أواخر العام 1975)، واختاروا مقاطعة أورينتي منطلقاً لعملهم، لاسيّما جغرافية أرضها والتقاليد الثورية لسكانها، وكذلك بعدها الشاسع عن هافانا، ثم إمكانية الحصول على السلاح العائد للحكومة في تلك المقاطعة، بالاستيلاء على بعض مستودعاته.

واقتضت الخطة ربط الكفاح المسلح بالعمل الجماهيري ودعوة الشعب إلى الإضراب العام وتشكيل بؤر ثورية في أعالي جبال السيرامايسترا، والتهيؤ للشروع بحرب غير نظامية (حرب الأنصار) ضد القوات الحكومية. وحمل الثوريون الكوبيون برنامجاً عاماً وطنياً وتقدمياً، يمثل مرحلة «الثورة الوطنية الديمقراطية» بمفهوم الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

التمرين النضالي الأول كان الهجوم على قلعة المونكادا وذلك بهدف الحصول على السلاح وخلق ركيزة للكفاح المسلح، الّا أن هذا الهجوم قاد إلى اندحار عسكري، لكنه من الناحية المعنوية كان درساً ذا قيمة مهمة، فقد استفاد كاسترو وجيفارا والقادة والآخرون من الأخطاء والعيوب التي رافقت هجومهم وأخذوه بنظر الاعتبار في نضالاتهم اللاحقة.

يقول كاسترو مقيّماً الهجوم الفاشل على المونكادا: فلولا المونكادا لما كانت حملة الغرانما (وهي الباخرة أو اليخت التي حملت على متنها 82 ثائراً من المكسيك ونزلت إلى الشواطئ الكوبية)، ولما كان الكفاح في جبال السيرامايسترا، ولما كان الانتصار المظفّر في الأول من كانون الثاني (يناير) 1959، وبالمثل لولا ملاحم 1868 و1895 لما استقلّت كوبا، ولما أصبحت أول بلد اشتراكي في أميركا اللاتينية. لقد كان الفاصل بين هجوم المونكادا الفاشل ويوم النصر نحو خمس سنوات ونصف السنة.

تعتبر المونكادا إحدى المحطات المهمة في الثورة الكوبية المعاصرة، وقد أوضح كاسترو أهميتها في دفاعه المشهور بعد إلقاء القبض عليه والموسوم بـ«سينصفني التاريخ» وذلك حين رسم برنامج النضال الوطني للقوى والطبقات الاجتماعية ضد حكومة باتيسيا والامبريالية الأميركية، كما حدد المهمات الأساسية والعاجلة التي تواجه الحركة الثورية بعد انتصارها، ولعلّ ذلك كان بمثابة برنامج للثورة. وكان قد تمّ إطلاق سراح كاسترو نتيجة حملة شعبية مطالبة بذلك، حيث توجّه إلى المكسيك، ومن هناك أعدّ خطة الكفاح المسلح، وفي 2 كانون الأول (ديسمبر) 1956 رسا المركب «الغرانما» على شواطئ مقاطعة أورينتي!.

لم يكن برنامج المونكادا اشتراكياً ولا تضمّنَ أية ملامح اشتراكية وهو ما اعترف به كاسترو، وأظن أن ذلك كان صحيحاً سواءً توافرت إرادة التغيير جذرياً وحسم الخيار الاشتراكي، أم لم تتوافر ولم تنضج ظروفه؟ لأن المرحلة الوطنية الديمقراطية كانت تقتضي تحالفاً واسعاً وعريضاً وبرنامجاً عاماً.

واستدلّ على ذلك من المراجعة الفكرية التي أجراها المؤتمر الأول للحزب الشيوعي (الجديد) والتي عكست إقدام كاسترو ورفاقه وليس الحزب الشيوعي (قبل اندماج مجموعة كاسترو معه) على مغامرة التغيير حيث جاء فيها: إنه من غير الصائب وغير الممكن للطليعة الثورية (الحزب الشيوعي) أن تأخذ على عاتقها مهمة القيام بالانتفاضة المسلحة، في ظل الحرب الباردة ورفض القوى

الأخرى التعاون مع الشيوعيين وحملة شعواء معادية للشيوعية بتشجيع واشنطن، أي أن الظروف الداخلية كوبياً والظروف الدولية عالمياً لم تكن مناسبة لقيادة الحزب الشيوعي للقيام بذلك الدور، والذي لو أقدم عليه لأسفر عن مجزرة مرّوعة.

لهذه الأسباب أيضاً لم يكن ممكناً، تكتيكياً واستراتيجياً، إعلان الاشتراكية خلال فترة الكفاح المسلح، لأن ذلك لن يكون مفهوماً من جانب الشعب حسب التفسير الصحيح الذي قدمه كاسترو، كما أنه سيحمل الامبرياليين على التدخل بكل قواهم لمنع التغيير، في حين كانت المهمة هي الإطاحة بنظام باتيستا وتوحيد الشعب، ولم يكن ذلك ممكنا وواقعياً من دون برنامج جامع وعام، ولهذا كان برنامج المونكادا.

تطورت الثورة بعدها ولم تتردّد من الاندفاع إلى أمام، وعلى حد تعبير كاسترو فإن التوقّف بالثورة عند منتصف الطريق هو خيانة حقيقية للثورة. وعلى الرغم من خسائر الثوار لاسيّما بعد نزولهم عند الشواطئ الكوبية، إلّا أنهم استعادوا عزيمتهم وشدّوا هجومهم وحققوا انتصارات كبرى، كما ساهموا بكسب أوساط شعبية عديدة، حيث تجاوز عدد المقاتلين 3 آلاف مقاتل. وتطور الأمر حتى اقتحم جيفارا ورفيقه كاميليو بقواتهما العاصمة هافانا من جهة البحر وسيطرا عليها، وانهار جيش باتيستا وسقطت هافانا ومعها 180 ألف بندقية بيد الثوار.

وحسب وصف عامر عبد الله في كتابه «رحلة إلى جزيرة الحرية»، الصادر في آذار (مارس) 1976 والذي سبقت الإشارة إليه، بعد حضوره مؤتمر الحزب الشيوعي، فإنَّ الإضراب العام بقيادة الحزب الشيوعي ساهم في تحقيق الانتصار النهائي، وفي إحباط مناورات القوى الامبريالية التي أرادت تنظيم انقلاب عسكري مضاد أو تشكيل حكومة مؤقتة.

ويمكن تلخيص أهم فقرات برنامج المونكادا مع بعض الإجراءات التي ترافقت مع انتصار الثورة، وذلك بملاحقة المسؤولين عن جرائم القتل بحق

الشعب والجلادين الذين شاركوا بالتعذيب، ومصادرة الأموال المنهوبة من جانب الموظفين الكبار للحكومة السابقة، وتحويل جيش الانتفاضة ليكون بديلاً عن الجيش النظامي، وتطهير جهاز الإدارة من مظاهر الفساد والرشا، ووضع اليد على الشركة الأميركية للتلفون، وتخفيض بدلات الإيجار إلى النصف، وفتح شواطئ السباحة للجميع دون تمييز، وتشريع قانون للإصلاح الزراعي وتخفيض أجور الكهرباء والسعي لوضع خطط عملية لمكافحة البطالة ووضع برنامج طموح للقضاء على الأمية وتحسين الحالة الصحية وزيادة الوعي بالثقافة الصحية والثقافة بشكل عام ووضع خطة للقضاء على البغاء.

ولم يكن ذلك سوى برنامج المونكادا الذي وصفه وحلّله وشرحه كاسترو في دفاعه، وأعاد جزءًا منه في تقريره المقدّم إلى المؤتمر الأول للحزب الشيوعي (بعد الاندماج)، وهو ما حاول عامر عبد الله استخلاصه من قراءته للتجربة الكوبية.

لكن الإصرار والإرادة لوحدهما لا يصنعان وقائع مادية على الأرض أو يغيّران الحقائق، فقد واجهت كوبا مشاكل جمّة أهمها الضغوط التي تعرضت لها، والتي أدّت إلى خفض أسعار السكّر من جانب الولايات المتحدة، التي امتنعت لاحقاً عن شرائه، الأمر الذي اضطر الاتحاد السوفييتي لشراء السكّر الكوبي، وقد ساهم ذلك في انخفاض احتياطي كوبا من العملات الصعبة، خصوصاً بقطع واشنطن اعتماداتها التجارية، الأمر الذي أدى إلى عجز كوبا عن استيراد السلع الضرورية. وبالمقابل قامت الحكومة بعملية تقشف استمرت طويلاً، مما ترك انعكاسات سلبية كثيرة على الإنتاج وعلى المواطن، الذي ظلّ يعيش على نظام البطاقات حيث أصبح كل شيء بيد الدولة؛ فهي المسؤولة عن كل شيء وكأنها صاحب مخزن كبير يبيع بالمفرق وبأقساط مؤجلة، ولعلّ نظام البطاقات له محاسنه في الأوضاع الطارئة والشاذة مثلما له مساوئه، لاسيّما باستمرار تطبيقه لفترة زمنية طويلة.

في 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1960 أي بعد مرور 22 شهراً على انتصار

الثورة أعلن كاسترو إنجاز برنامج «المونكادا» ودخول البلاد مرحلة جديدة، تتعلق بحلّ المهمات الاشتراكية. وبعد مرور نحو 6 أشهر على هذا الإعلان، تمّ التصريح رسمياً عن تبني الخيار الاشتراكي وذلك في شهر نيسان (أبريل) 1961 بالترافق مع تصاعد المخاطر الإمبريالية التي تهدد كوبا بالغزو المباشر، بعد محاولات جمع العناصر المعادية للثورة في ميامي وتقديم المساعدات لها والضغط لإخراج الكفاءات المهنية والفنية من كوبا وإحراج الثورة.

وبخصوص مرحلة ما بعد المونكادا جاء في وثائق مؤتمر الحزب الشيوعي الكوبي «ليس هناك حاجز منيع بين المرحلة الديمقراطية الشعبية المعادية للامبريالية وبين المرحلة الاشتراكية، ففي عهد الإمبريالية تعتبر كلا المرحلتين جزءاً من عملية واحدة، حيث يمكن للتدابير الوطنية التحررية والديمقراطية، التي تكتسب في بعض الأحيان سمة اشتراكية، أن تمهّد الطريق لتدابير اشتراكية أصيلة، والأمر يتعلق بمن يقود العملية..».

وتضمن برنامج ما بعد المونكادا (البرنامج الاشتراكي) تأميم الشركات والمعامل والمؤسسات والمصارف المملوكة من جانب الولايات المتحدة، وكذلك تأميم المصارف المحلية و382 مؤسسة كبيرة يمتلكها الرأسمال الوطني. وإذا كان الإجراء الأول مبرراً لتحرير الاقتصاد الوطني من التبعية الاستعمارية، فإن الإجراء الثاني أدّى إلى خلق المعارضة البرجوازية الوطنية، التي كان يمكن استمالتها بدلاً من الاصطدام معها، فضلاً عن ضرورة وجودها بدلاً من استعدائها، الأمر الذي شجّعها على الهجرة وترك البلاد، وخسارة إمكانات وكفاءات لا يمكن الاستهانة بها.

اعتبر مؤتمر الحزب الشيوعي الكوبي حسب عامر عبد الله أن المرحلة الأولى ستكون محكومة من «ديكتاتورية ديمقراطية ثورية للطبقات الشعبية» والمقصود هنا ديكتاتورية العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة، في حين أن المرحلة الثانية الاشتراكية تتشكل من «دكتاتورية البروليتاريا»، وذلك طبقاً للوصفة الماركسية التقليدية، ولعلّ كلا البرنامجين اتّسم بالطوباوية والمثالية والابتعاد عن

الواقع وتجاوز القوانين الموضوعية، خصوصاً بإسقاط الإرادوية عليهما وتقديم العامل الذاتي على حساب العامل الموضوعي، لاسيّما الاعتداد بالنفس من دون حساب لعوامل الكبح والإعاقة والقوى المضادة، خصوصاً وأنّ التجربة الاشتراكية الكوبية قد عانت من ضعف التكوين النظري وكذلك الافتقار إلى استخدام العلوم والتكنولوجيا الحديثة، التي غيّبها الحصار الاقتصادي الجائر الذي تعرضت له على مدى السنوات الخمسين المنصرمة.

وإذا كان كاسترو جريئاً في تشخيص بعض الأخطاء والثغرات، لاسيّما مظاهر الإهمال واللامبالاة والبيروقراطية منذ المؤتمر الأول للحزب العام 1975، فإن هذه الإشكالات غدت مشكلات كبيرة ومعضلات حقيقية تحتاج إلى معالجات جذرية، لأنها لا تتعلق بالإرادة التغييرية فحسب، بل بجوانب عملية طبعت كامل النهج الاشتراكي الكوبي، الذي اتّسم بالواحدية، والأوامرية وعدم الاعتراف بالتعددية وشحّ الحريات وعدم التكافؤ في الفرص، خصوصاً في أجواء المسايرة والتزلف والانتهازية للحصول على المواقع، في الحزب والدولة والمنظمات الاجتماعية والمهنية.

من وجهة نظري كان يمكن استكمال برنامج المونكادا بتوسيع وتحديث مفرداته وتعزيزها ديمقراطياً، وعدم الاستعجال في اختزاله إلى بضعة إجراءات دخولاً لما سميّ بالمرحلة الاشتراكية.

* * *

جيفارا والاشتراكية المستنسخة!

لا يزال الجدل محتدماً حول صورة الاشتراكية المطبّقة، ولاسيّما أن النماذج الاشتراكية جميعها حاكت التجربة الاشتراكية السوفييتية الأولى، وانطبعت إلى حدود كبيرة بطابعها، خصوصاً وأن التجارب اللاحقة كانت غالبيتها تدور في فلكها، بالرغم من خصوصية التجربة الصينية وقبلها التجربة اليوغسلافية، اللتين انشقتا عنها منذ وقت مبكر محاولتين التميّز مثلما فعلت تجارب أخرى لاحقاً، لكنهما من حيث التوجّه والأداء لم تكونا بعيدتين عن منظومتها الفكرية والسياسية، لاسيّما بحكم نفوذها وتأثيراتها من جهة، ومن جهة ثانية لم تسبقها أي تجربة أخرى، فقد حرثت التجربة السوفييتية في أرض بكر، وما تطبيقات لينين بشأن رأسمالية الدولة، وما سمي بالسياسة الاقتصادية الجديدة The New Economic Policy-NEP، إلّا نموذجاً للتحديات الجديدة الفعلية التي واجهت روسيا ما بعد سقوط القيصرية وظروف الحرب الأهلية والمجاعة وآثار الحرب العالمية الأولى.

لعلّ ذلك كله كان أمام جيفارا الرومانسي الحالم والمكافح العنيد في حروب الأنصار، وهو يحاول تلمّس طريق خاص للاشتراكية في كوبا، انطلاقاً من مواقعه المؤثرة في السلطة الثورية. ولم يكتفِ جيفارا بقراءة التجربة السوفييتية والاطلاع على مشاهدات مباشرة والاستماع إلى تفسيرات من العلماء السوفييت فحسب، بل حاول دراسة ظروفها مقارنة بكوبا، لاسيّما اختلاف

تاريخهما الاقتصادي. وذهب بعيداً عندما قرر دراسة الأدب الكلاسيكي الماركسي، لاسيّما كتاب رأس المال لماركس، إضافة إلى الإجراءات التي اتخذتها ثورة تشرين الأول (أكتوبر) الاشتراكية منذ انتصارها في العام 1917 بما فيها السياسة الاقتصادية الجديدة. وقد كان جيفارا يفضل استخدام مصطلح الرأسمالية ما قبل الاحتكارية على سياسة الـ NEP، لأنها اعتمدت على اقتصاد هجين يجمع بين العناصر الاشتراكية والعناصر الرأسمالية في آن. إلّا أن النقد الذي وجّهه للاقتصاد السوفييتي جاء بعد دراسة معمّقة ومحاولة إيجاد بدائل لخّصها في كتيبات ومطالعات، وخصوصاً نقده لدليل الاقتصاد السوفييتي، وهو عبارة عن كتاب مدرسي منذ عهد ستالين وكان يجري تحديثه بين فترة وأخرى.

امتلك جيفارا في الوقت نفسه، وربما بشكل مبكّر بُعد نظر واجتهاد فيما يتعلق بالنظرية الاقتصادية السوفييتية، وشملت ملاحظاته انتقادات جريئة في حينها، كان قد اختبرها ودققها من خلال عمله في إدارة البنك المركزي، ثم وزيراً للصناعة، وغيرها من المسؤوليات الحكومية.

وباستثناء ملاحظاته المكثّفة في خطاب الجزائر شباط (فبراير) 1965 الشهير والذي تضمن بعض الانتقادات للسوفييت، فلم يتسنّ لي الاطلاع على ما كتبه بخصوص «ملاحظات نقدية في الاقتصاد السوفييتي» إلّا مؤخراً وهي مساهمة جادة في نقد جوانب من النظرية الاشتراكية السوفييتية، بسبب أن تلك الملاحظات ظلّت حبيسة لنحو أربعة عقود من الزمان، ولعلّ حجبها يتعلق بمنهج التفكير السائد، لاسيّما مراعاة مصالح الدولة على حساب الفكر، ويقول مسعد عربيد الذي كتب إحدى عشرة حلقة عن تشي جيفارا ونقد الاتحاد السوفييتي إن أرشيف جيفارا في العاصمة الكوبية- هافانا، لا يزال يحتوي على مخطوطات لم ترَ النور بعد، ولا ندري متى سيطلق سراحها؟ (موقع الحوار المتمدن).

عندما اختارت كوبا الاشتراكية طريقاً للتنمية على لسان زعيمها فيدل

كاسترو في 16 نيسان (ابريل) 1961 (أي بعد حوالى سنتين ونصف على انتصار الثورة) وفي أعقاب الغزو الأميركي لخليج الخنازير وكرد فعل تسريعي له، بالرغم من ورود تصريحات وأحاديث لجيفارا عن الماركسية والاشتراكية قبل هذا التاريخ، لكن إعلان الخيار الاشتراكي لم يكن بعيداً عن التحدّيات والعقبات التي اعترضت طريق كوبا، وإنْ كان الخيار بحد ذاته مفترق طرق، لكنه هو الآخر كان تحدياً للنموذج الاشتراكي السائد من داخله، بحكم الثقافة التقليدية المهيمنة للمركز الأممي، وهو ما كان يروّج له الشيوعيون الرسميون، لتقليد الاشتراكية «الناجحة» والمطبقة بمعايير تلك الأيام بحذافيرها.

لقد حاول جيفارا نقد النمط الاقتصادي السوفييتي في سياق أطروحات جديدة لنهج اشتراكي كان يتمنّاه لكوبا، وسعى لشرحه في مطالعات ومطارحات عُرفت بـ«الجدل الكبير» لاسيّما الذي احتدم في الفترة بين 1963- 1965، بشأن معوّقات التنمية وسبل الخروج من غلواء التخلّف موجهاً نقده للمفاهيم السوفييتية الأرثوذكسية المتخشّبة، لاسيّما خلال الندوات الأسبوعية التي كان يشرف عليها العلماء السوفييت الذين أوفدوا إلى كوبا «للتثقيف الشيوعي»، خصوصاً وأن النقاش اتخذ مسارين متعارضين.

الأول- مؤيدو النمط السوفييتي، الذي كان يبرر «اشتراكية السوق» وهي النظرية المتبعة في الاتحاد السوفييتي وبقية البلدان الاشتراكية، لاسيّما في أوروبا الشرقية، وكذلك نظرية التمويل الذاتي للمشاريع، في حين طرح جيفارا ما أطلق عليه نظام التمويل بالميزانية.

الثاني- التخطيط المركزي، الذي دافع عنه جيفارا لعدم الوقوع في بعض أمراض النموذج الأول، الذي يحاكي الرأسمالية، خصوصاً عندما يأخذ بدور الربح والحوافز المادية ويمنح سلطات خاصة للمدراء «البيروقراطيين»، وهو ما يؤدي إلى تغيير وعي الجماهير وقيم المجتمع وأفكار الناس ومواقفهم، ويقود إلى إعادة إنتاج وعي رأسمالي وعلاقات اجتماعية رأسمالية.

ولأن جيفارا لم يكن ميّالاً للتقليد الأيديولوجي، فقد انطلق من التجربة،

ولاسيّما أنّه كان مأخوذاً بالفكر الاجتهادي، وبالاستقلالية العملية، بعيداً عن التبعية والتعويلية، التي غالباً ما كانت المدرسة التقليدية تأخذ بها، ولأن جيفارا أيضاً لم يأتِ إلى الماركسية من التنظيمات الشيوعية ذات المنهج المساير لموسكو، فقد كان يشعر أكثر بالحرية في النقد، والرغبة في إيجاد طريق خاص لكوبا وللدول النامية الاشتراكية الجديدة، ولم يتردد في نقد شروط التبادل التجاري التي تفرضها الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي على الدول الفقيرة في سوق تهيمن عليه الامبريالية، واعتبر ذلك معيباً على القوتين الاشتراكيتين اللتين كان عليهما تقديم دعم غير مشروط بما فيه الدعم العسكري لنضال الشعوب التحرري، لاسيّما في الكونغو وفيتنام على وجه الخصوص. ولعلّ مثل هذا النقد العلني الصريح والمباشر لم يكن مألوفاً بين الأحزاب الشيوعية، التي كان على قياداتها تقديم الولاء لموسكو أو لبكين في فترة الصراع العصيبة في الستينيات.

وبالرغم من أنني أعتقد أن الطريق الاقتصادي الذي تبنّاه جيفارا، قاد ويقود إلى النمط السوفييتي ذاته بهذا القدر أو ذاك، وإن اختلفت بعض مفرداته، لاسيّما الجوانب الفكرية والسياسية، وفيما بعد التطبيقات الاقتصادية الشديدة المركزية، إضافة إلى الواحدية والإطلاقية وعدم قبول التعددية وحق الاختلاف، ووحدانية الحزب ونظرياته المركزية، إلّا أنه كان مجرد محاولة جريئة لنمط تفكير مستقل ومختلف واجتهاد جديد.

ولأن جيفارا كان يفكر ويتصرّف من خارج النص، فقد رفض الدوغمائية، ولم يتردد في خوض التجربة حتى وإن أخطأ، ولذلك كان يحلم بنموذج خارج النسق السائد، لاختيار الطريق المناسبة. وكان جيفارا شديد الانتقاد للكتب المنهجية الدعائية السوفييتية التي كانت تستخدم للتثقيف، وفي رسالة إلى صديقه أرماندو هارت وزير الثقافة الكوبي الأسبق، شنّ هجوماً ضد «المحاكاة الأيديولوجية»، واعتبر ذلك بمثابة تلقين للجماهير وليس لتعميق الوعي، وقال حرفياً عن تلك الكتب إنها «ضارة لأنها لا تترك لك فرصة للتفكير» محمّلاً الحزب مسؤولية ذلك، لأنه قام بالنيابة عن الرفاق بضخ الأفكار وما عليهم إلّا هضمها، في حين كان ميله إلى نشر أمهات الكتب الماركسية الأصلية من

أعمال ماركس وإنجلز ولينين وستالين وغيرهم، وهي الأجدى والأجدر، وقد نشرت هذه الرسالة في وقت متأخر (العام 1997).

ولعلّ من الجدير الإشارة إلى أن بعض تحليلات جيفارا التي حُجبت، جرى تداولها في وقت لاحق، لاسيّما بعد وصول غورباتشوف إلى السلطة العام 1985 وإعلانه عن خطة وإجراءات للبريسترويكا والغلاسنوست (إعادة البناء والشفافية)، وربما يعود ذلك إلى استشعار الكوبيين بأن الباب أصبح مفتوحاً للمناقشة، لاسيّما إزاء المخاطر التي تواجه التجارب الاشتراكية جميعها، وليس الاتحاد السوفييتي فحسب.

لقد رفض جيفارا الاشتراكية المستنسخة، وكان ضد النماذج المقلّدة في أوروبا الشرقية، لا في جانبها الاقتصادي وحسب، بل في جانبها السياسي بالدرجة الأساسية، وأعني بذلك موضوع عبادة الفرد، ولم يدّخر وسعاً في توجيه النقد لسياسات وأخطاء ستالين الغليظة والتاريخية حسب تعبيره، تلك التي هيأت لعبادة الفرد. ولم ينظر إلى القادة بعين التقديس، فقد انتقد لينين أيضاً حين قال: «لقد اكتشفنا من خلال ممارساتنا وأبحاثنا النظرية أن الشخص الذي يستحق كل اللوم باسمه الكامل: فلاديمير أليتش أوليانوف لينين»، لكنه برر ذلك بقدر من الاحترام والإعجاب الذي يكنّه لهذا الشخص «المُذنب» معلناً ومتفهماً الدوافع الثورية لما قام به، (المقاصد المخلصة) داعياً لتكوين رؤية ماركسية متكاملة للعودة إلى الأدب الكلاسيكي الماركسي، للتوقف عنده بدلاً من «دليل الاقتصاد السياسي السوفييتي».

ولعلّ أهم انتقادات جيفارا تنطلق من رؤية مختلفة لأولويات العالم الثالث عن الدول الاشتراكية السابقة، خصوصاً أخذ أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية بنظر الاعتبار، دون إهمال العوامل الإقليمية والدولية، وهو بذلك انطلق من الواقع الكوبي المتخلف بفعل استعمار طويل الأمد من جانب إسبانيا، وأعقبها عقود من النهب والتبعية للرأسمالية الأميركية، حيث كان الاقتصاد الكوبي مختطفاً أو يكاد يكون كذلك منذ بدايات القرن العشرين، وتكاد الهيمنة الأميركية تكون مطلقة عليه، ومن المفارقة أن اقتصاد كوبا لا يزال

رهينة الرأسمالية الأميركية بسبب الحصار الأميركي الجائر الذي تفرضه عليها منذ خمسة عقود من الزمان، بالرغم من إدانة الأمم المتحدة بأغلبية كبيرة لهذا الحصار.

النقد الجيفاري للاقتصاد السوفييتي قاده إلى طرح بديل ينطلق من خصوصيات كوبا وتشكيلاتها الاقتصادية والاجتماعية، وحاول أن يركّز فيه على العامل البشري ودور الإنسان، لكن ذلك لم يكن بعيداً عن المنهج التطبيقي الذي كان سائداً في الاتحاد السوفييتي، أو قاد إليه فيما بعد، بالرغم من الحماسة والرومانسية الثورية العالية.

ولعلّ الصراع الصيني- السوفييتي، وسياسات التعايش السلمي التي اتبعتها موسكو، وصولاً إلى ما سمّي بالوفاق لاحقاً Détente، ومصالح الدولة الكبرى، وصعود دور حركات التحرر الوطني في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات هي التي كانت وراء دوافع جيفارا للتفكير بضرورة التحرر من النموذج الأحادي، وهو ما دفع ثمنه غالياً، فبعضهم اتهمه بمعاداة السوفييت وهي تهمة تصل إلى حد العداء للشيوعية، وبعضهم الآخر اتهمه «بالماوية» و«التروتسكية»، وهي تهم جاهزة لأية محاولة تتّسم بالتميّز والاستقلالية، ابتداءً من انشقاق «تيتو» ومروراً بنماذج اشتراكية استخدم فيها السلاح والتدخل العسكري لحسم الأمور، سواءً في ألمانيا العام 1953 أو في المجر العام 1956 أو في تشيكوسلوفاكيا العام 1968 أو غيرها، ناهيكم عن التدخلات المباشرة وغير المباشرة، العسكرية والمدنية، لتفضيل هذا الفريق أو ذاك، ولفرض اتّباع هذه السياسة أو تلك.

ولا يخفى أن ملاحظات جيفارا دفعت الأوساط المتنفّذة في الحركة الشيوعية حينها إلى اعتبارها مغامرة وتهوّراً وانتحارية، وهي ما كان يصفه به الأعداء أيضاً، الأمر الذي خلق نوعاً من الالتباس وسوء الفهم، لدى أوساط واسعة من الشيوعيين والماركسيين والاشتراكيين لاحقاً.

* * *

يوميات المغامر النبيل

أينما ذهبت في كوبا فهناك من يحدّثك عن الشخصية الأثيرة التي كلما ابتعد موسم رحيلها ازدادت قرباً، فقد كان لها سحر خاص ظلّ يفيض على كل من يتطلّع إلى حياة جديدة، لاسيّما من الشباب الحالم، الذين ما فتئوا يستعيدون ذكرى المغامر النبيل، وكأنها طيف، طالما تمنّوا أن يكون قريباً من اليقظة، فقد طبع حياتهم كلها بأحلام غامضة، وردية، هكذا يحدثني أحد الشباب في حانة أرنست همنغواي في هافانا «حانة بودغيتا دل ميديو». فقد حدس شكل ملامحنا الشرق أوسطية وربما سحنتنا العربية، فأراد أن يتعرّف علينا أو يثرثر معنا، وسرعان ما انضمت إلينا فاتنة حسناء، لكن حاجز اللغة حال بيننا وبينها. يقول الشاب الكوبي بإنجليزية طليقة: بالرغم من أن تشي جيفارا غادرنا سريعاً، لكن صورته وصوته وابتسامته لا تزال تعيش معنا.

لقد أعادني هذا الحديث إلى ما سبق أن قرأته عن مغامراته التي حاول تدوينها لاحقاً في رحلته الشهيرة لعبور القارة الأميركية الجنوبية. وبفضول معرفي ورغبة في اجتراح المغامرّة كنّا نحاول أن نجد طريقنا الخاص، بإعلان تمردنا ورفضنا للنمطية والرتابة والمألوف بما فيها شكوكنا أحياناً بماركسية معلّبة أو وصفة جاهزة، في حين اعتبرنا جيفارا ناقداً للجمود والتحجر، طامحاً في تجاوز السائد، حتى وإن كان ذلك جزءًا مما كنّا نعتقد فيه.

كيف نصنّف «يوميات دراجة نارية»؟ وهو عنوان كتاب عن رحلة جيفارا في أميركا اللاتينية، هل ندخله في أدب الرحلات والرحّالة؟ وهو ما حاول

المشروع الجغرافي العربي الذي يشرف على إصدار سلسلته الشاعر نوري الجراح، الإجابة عليه في تقديمه الذي كتبه محمد أحمد السويدي عن «ارتياد الآفاق» فضمّه إلى مجموعة المؤلفات التي وضعها الرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون، وإن كانت رحلة جيفارا من طراز خاص ولغايات أخرى.

إن يوميات جيفارا في تجربته الأميركية اللاتينية والتي قطع فيها مع صديقه ألبرتو غرانادو على دراجة نارية نحو 4500 كيلومتر، لم تكن مغامرة فحسب، مدروسة أو غير مدروسة، بل كانت تعبّر عن تطلع شاب إلى المعرفة واستعداده لاجتياز الصعاب، لإثبات التميّز، وبقدر ما في المسألة من جدّية، كان فيها الكثير من عناصر السخرية، إزاء الواقع، وإزاء ما صادفه من تحدّيات، وإزاء نفسه في الكثير من الأحيان، لكن تلك الرحلة كانت بروفة أولية ضرورية لمغامرة أكثر خطورة ومسؤولية لتشمل العالم كله هذه المرّة، مبشّراً بالثورة والحرية والتمرد على ما هو سائد، متطلعاً إلى عالم جديد أكثر عدلاً.

بواسطة الدرّاجة النارية جاب جيفارا مجتمع أميركا اللاتينية، وهو الطبيب الذي وجد المرض والتخلف والأمية منتشرة من جنوب القارة وصولاً إلى شمالها، وفي الشمال كانت أقلّية صغيرة متنفّذة تتمتع بالخيرات والموارد، ناهبة شعوب أميركا اللاتينية، واضعة كل ما تنتجه سواعد الملايين في خدمتها.

كان الطبيب الأرجنتيني الشاب يتنقل على دراجته النارية مع صديقه من الأرجنتين إلى شيلي، وبعدها يصل إلى بيرو ومنها إلى بوليفيا ثم إلى فنزويلا، ولو اطّلعنا على خارطة الرحلة، لاسيّما عبر دراجة نارية ليست على ما يرام، لاكتشفنا أية إرادة أسطورية نفّذت ذلك، وأية مفاجآت وتحديات واجهته، وكيف تعامل في ظروف بالغة القسوة والحساسية أحياناً، بكل ثقة بالنفس وبالسخرية، والخروج على المألوف.

هكذا التهمت الدراجة آلاف الكيلومترات في أميركا اللاتينية وصولاً إلى «سرّة العالم»- عاصمة الأنكا، وكأنه يحمل شعلة لصهر روحه ومزجها بآلام القارة المستلبة، والمتطلعة إلى الانعتاق. لعلّ ذلك كان مقدمة لطريق الحرية

والفداء الذي اختاره جيفارا دون تردد أو رجوع، حيث كان عمره لا يزيد على 24 عاماً عندما كتب «علمت أنه حين تشق الروح الهادية العظيمة الإنسانية إلى شقين متصارعين، سأكون إلى جانب الشعب، أعلم هذا، أراه مطبوعاً في سماء الليل، أرى نفسي قرباناً في الثورة الحقيقية، المعادل العظيم لإرادة الأفراد..». ولعلّ كتابة مثل هذا النص، وفي وقت مبكر من حياته، تكشف عن عمق مشاعره الإنسانية، وعن سحر كلمته الأنيقة.

يوميات جيفارا بدت أقرب إلى كونها مغامرة تلقائية لروح مجبولة على المغامرة، وماذا ستكون الحياة من دونها؟ ولعلّ المغامرة من أجل الحقيقة هي أجمل المغامرات وأحلاها.

لعلّنا في شبابنا كنّا قد تمثلنا تلك الرحلة المثيرة، فوق الجبال والبحيرات، في السهول والوديان، وفي عبور الحدود، والجميل في تلك المغامرة أن صاحبها حاول أن يكون أميناً في تدوينها، بل غير تقليدي أيضاً.

كان الشاب الأرجنتيني الأممي فيما بعد، اليافع، البالغ الحساسية، وهو يروي لنا يومياته ومغامراته، يظهر بقدر عقلانيته، جنونه أيضاً، وبقدر جديته، سخريته أيضاً، وهو ينقل لنا فقر وجوع واستغلال الأراضي الشاسعة التي يمرّ بها، متنقلاً من بلد إلى آخر، وقد حاول بتلك الروح المرحة مقاومة التحديات وتجاوز الصعاب، وبقدر صلابته كان رقيقاً، وكان يميّز دائماً بين الجمال والفجاجة، وبين الحب والعطش إلى المعرفة والرغبة في التغيير، وبين الكراهية والتخلف والاستكانة.

لقد كانت ابنته أليدا جيفارا مارش محقّة عندما كتبت عن رحلته تلك قائلة: «لم أعرف الشخص الذي كتبها، كنت آنذاك صغيرة وتماهيت مباشرة مع ذلك الرجل الذي سرد مغامراته بطريقة تلقائية كهذه.. عندما تنتهون من الكتاب ستودّون العودة إليه للاستمتاع ببعض القطع ثانية، إما لجمال ما تصفه أو لكثافة المشاعر التي تتضمنها»، ولقد فعلت ذلك مرّات ومرّات، كنت أريد مقارنتها ببعض تجاربنا تارة، وأخرى لاختبار طول صبره، وثالثة لمعرفة حكمته أو

جنونه، ورابعة لتقييم سجاياه الشخصية الشجاعة، لاسيّما في المحن وتحدّي الصعاب.

يقول جيفارا الذي سيتحوّل إلى بطل كبير من أبطال القرن العشرين إنّ يوميات رحلة درّاجة نارية «ليست قصة بطولة خارقة»، ولكن لا يمكننا إلّا أن نفكّر بتلك البطولة باعتبارها مقدمة لتكوينه الثوري وشعوره الداخلي وهو يدوّنها، وهو ما يعبّر عنه بوضوح بالقول: «الشخص الذي أعاد تبويبها وصقلها، أنا، لم يعد له وجود على الأقل، لست ذلك الشخص الذي كان. كل هذا التجوال هنا وهناك في «أميركتنا» لتكتب بحروف كبيرة، غيّرني أكثر مما حسبت»، فقد كان ولوج عالم التمرد والتغيير، قد مرّ عبر جولته الأولى داخل قارة أميركا اللاتينية، برحلته المثيرة تلك.

وقد سبق لي أن شاهدت فيلماً سينمائياً بعنوان (يوميات الدرّاجة النارية (The Motorcycle Diaries ـ من إخراج البرازيلي (والتر ساليز) (Walter Salles) أما السيناريو فقد أعده السيناريست العالمي خوسيه ريفري ((Jode Rivery وأدى دور جيفارا، المكسيكي جاييل غارسيا برنال .(Gael Garcia Bernal) أما دور غرانادو، فقد أداه الأرجنتيني رودريو دولا سيرنا (Rodrego de la Serna) وهذا الأخير من أقارب جيفارا من جهة الأم (ابن الخال الثاني). أخذت قصة الفيلم عن كتاب بعنوان (رحلة عبر أميركا اللاتينية) (Back on the road: A Journey through Latin America) أعده ألبرتو غراندو (Alberto Grando) وهو صديق جيفارا الذي رافقه خلال رحلته المثيرة تلك.

الجدير بالذكر أن هذا الفيلم الذي تمّ إنتاجه العام 2004 قد حصد العديد من الجوائز العالمية كان أهمها جائزة الأوسكار للعام 2005، وقد شارك في إنتاجه العالمي كل من الأرجنتين والبيرو وتشيلي والولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا.

* * *

جيفارا بين رامبو ودون كيشوت!

يسرد جيفارا على نحو تصويري تجربته في أول مواجهة مع العالم الخارجي من خلال درّاجته النارية وهي تلتهم آلاف الكيلومترات في مغامرة عاصفة، ولعلّه وهو يقوم بتلك الرحلة يحمل روح دون كيشوت الحالمة وكأنها استيقظت فيه!!

التجوال، أي الانتقال من مكان إلى آخر، ظلّ رفيقاً أساسياً لجيفارا نَمَتْ لديه بذرة التمرد الأولى، فضلاً عن كونه متعة وممارسة إنسانية له، لاكتشاف ثقافات وتمازج حضارات وتفاعل صداقات وتكامل علاقات إنسانية قومية وإثنية ودينية وسلالية بحيث تشكل تناسقاً ومشتركاً علوياً، عابراً للمكوّنات الفرعية، لحساب المشترك الإنساني.

لعلّ روح رامبو الشاعر الفرنسي كانت قد تلبّسته هي الأخرى، وهو القائل: «يذهب بعيداً بعيداً جداً، عبر الطبيعة»، حيث كان رامبو ضجراً وغير قادر على الاستمرار في مكان واحد (من قصيدة لرامبو وهو في سن السادسة عشرة). فقد كان الفتى جيفارا مثل رامبو يحبّ التجوال منذ صباه. فالحياة دائماً في المكان نفسه لديه أمرٌ بائس جداً.

كان جيفارا يكتشف مثل رامبو أزهاراً جديدة ونجوماً جديدة ولغات جديدة وربما بشراً آخرين، كل ذلك من أجل «حريته المشتهاة». لقد غادر أرتور رامبو الفرنسي شارل فيل (Charleville) الفرنسية، إلى لوغانو (Lugano) السويسرية ومنها إلى جنوى (Genoa) الإيطالية ووصل إلى الإسكندرية المصرية ومنها إلى

جزيرة قبرص وبعد ذلك إلى جدّة السعودية، فالحديدة اليمنية، واستقرّ به المقام في عدن جنوب اليمن، التي ناسب جوّها الحار مزاجه. وجيفارا الأرجنتيني اخترق كل أميركا الجنوبية على ظهر دراجة نارية وصولاً إلى شمالها حتى الولايات المتحدة، ومن أميركا اللاتينية إلى أدغال أفريقيا بعد أن زار 15 بلداً وعقد صداقات جزائرية، مصرية، مغربية، كونغولية، وإفريقية وآسيوية ومنها عاد إلى بوليفيا، لا من أجل الهمّ الإنساني الخاص فحسب، بل لحمل مشعل الثورة، متماهياً مع الهمّ الإنساني العام.

النثر الجميل المفعم بالحياة الذي يسرد فيه جيفارا يوميات رحلته الدونكيشوتية يجعلنا نتوقف أمام مهارته وأسلوبه الأدبي الرقيق، لاسيّما إذا كان ممزوجاً بروح مخلصة لتجربة فريدة، حيث يلقي ضوءاً على مشاعره وأحاسيسه خلال تلك الرحلة. ولعلّ جيفارا يبحث عن نفسه في تلك اليوميات عندما ينقل عن الفيلسوف الإغريقي بروتاغوراس (Protagoras) قوله: «الإنسان مقياس كل شيء»، فالشخص الآخر يتكلم ويروي على لسانه وبلغته الخاصة، ما رأته عيناه، حتى وإن بدت بطريقة المراقبة، فيصف الطريق بلمسة رسام ماهر بالقول:

«تتلوى الطريق بين سفوح الجبال التي تسير بداية سلسلة جبال الإنديز، ثم تهبط منحدرة حتى تصل بلدة بائسة غير جذّابة محاطة بنقيض حاد من الجبال العظيمة الكثيفة المشجرة».

لم يتورّع جيفارا أن ينقل إلينا بشيء من المتعة والسخرية وحسّ الغرابة، واقع حاله مع صديقه غرانادو، وهما يقومان بمحاولة سرقة النبيذ، وهي مزاوجة بين سلوكه حين يكون ثملاً وبين سخرية القدر في كشف اللص، وبشيء من الدونكيشوتية والشارلشابلنية حسب تشيتيو فيتير، يعرض المطاردة بين الراقصين وكأنه في فيلم يعود للحقبة الثلاثينية للأفلام الصامتة من القرن الماضي.

مغامرات الشاب المملوءة بالفرح والسخرية تنتقل إلى هذه «الجبّارة» (الدراجة النارية) كما كان يطلق عليها، للسير أحياناً والعطب في أحيان أخرى

والتوقف لإصلاحها في مرات كثيرة، ومفاجأة العلاقة بالناس البسطاء و«الشغيلة» والفلاحين المعدمين، عبر الحدود واجتياز دول، وتنوّع تضاريس وجغرافيات ومناخات، وامتزاج ثقافات وحضارات.

ولعلّ الغرابة والجسارة والفضول، كانت من أولويات عنصر المغامرة لدى جيفارا وصديقه غراندو، وهو ما كان يقرّبهما من دون كيشوت، الوحيد المحاط بالعزلة والحماقة، بالرغم من أن قلبه مملوء بحب الكادحين والفقراء والأطفال الجياع. وينقل علاقته بمرضى الجذام ومستعمرتهم، لاسيّما عندما قاموا بتوديعه وصديقه وداعاً غنائياً، حيث انطلق المرضى الذين ساعدوهما، على صوت لحن شعبي، فانساقت الحمولة البشرية بعيداً عند الشاطئ، وأضفت أضواء قناديلهم الخافتة على الناس، سمة الأشباح.

لقد شعر جيفارا وصديقه غراندو أنهما لا يحسنان لمرضى الجذام فحسب، بل يشاطرونهم، محنتهم، ليس بالمعاملة والمعالجة فحسب، بل حين لعبا معهم كرة القدم، وتحدثا إليهم بروح أخوية إنسانية، مفعمة بالتفاني والمشاركة في البؤس الإنساني، والإحساس بألم العزلة والحيرة والمصير البائس.

ولعلّ مجلة التايم كانت قد أصابت كبد الحقيقة حين وصفت جيفارا المولود في 18 حزيران (يونيو) 1928 ولعائلة من الطبقة الوسطى بـ«أيقونة القرن العشرين». وتكشف رسائله لوالدته أحاسيسه الإنسانية وهواجسه وهمومه وتطلعاته، بما فيها نوبات الربو التي كانت تصيبه والقلق الذي يداهمه وأحياناً خوفه من المجهول، وحرصه على بقاء حلمه مستمراً وإرادته صلبة، كأن مقولة المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) حول «المثقف العضوي» كانت أمامه باستمرار، لاسيّما عندما يتحدث عن تشاؤم الواقع، فكل ما حوله كان مدعاة للتشاؤم والقنوط، لاسيّما بحق الإنسان واستغلاله أبشع استغلال من جانب قلة احتكارية متسلطة على شعوب مستلبة ومهضومة، لكنه بالرغم من كل ذلك لم يكن يائساً، وبقدر تشاؤمه، فقد كان يمتاز بتفاؤل الإرادة، الأمر الذي يضعه في صلب مواصفات المثقف العضوي، الذي أراد أن يتماهى مع قضية

العدالة والإنسانية، والتطلع إلى غدٍ جديد يتساوى فيه البشر ويتكافأون في الحصول على الرفاه، كلٌ حسب طاقته، ولكلٌ حسب حاجته!!

وعلى طول اليوميات وعرضها وعلى امتداد أميركا اللاتينية كلها، هناك من يتحدث عن الخيالات الهائجة، وغبار الطريق، واللحم المشوي، والارتجال، والنساء الجميلات، ورسائله إلى أمه، وطريق البجعات السبع، وأخوة الكائنات البشرية.. وكأنها مفردات حياة يومية متخيّلة، لكنها واقعية أيضاً!! وتلك كانت أقرب إلى قصائد رامبو في مرحلته العدنية ومغامرته الكونية!

فلتؤمني بالإنسان الآتي
فلتؤمني بالمستقبل الذي لن ترين
لا تصلي لرب قاسي
أنكر عليك حياة الأمل
ولا تطلبي الموت رحمة
لتشاهدي غزلانك الهجين تكبر
فالسماء صماء والظلام
يلفك
وسيكون لك الثار الأحمر
أقسم على ذلك
بحق مبادئي
سيعيش كل أحفادك
الفجر الجديد

(أرنست تشي جيفارا)

* * *

«الشبح» والأسطورة:
هل اختلط شبح جيفارا بشبح ماركس؟

ظلّت حكومة بوليفيا تطارد جيفارا لعدة أشهر، منذ أن شاع خبر التحاقه على رأس مجموعة ثورية تحضيراً للثورة في الأدغال، ليزحف بها من الريف إلى المدينة؛ يومها جنّدت المخابرات المركزية الأميركيةCIA جميع إمكاناتها وبالتعاون مع حكومات أميركا اللاتينية- لاسيّما حكومة بوليفيا- لتعقّب تحركاته ومعرفة مكانه، وسعت لاختراق التنظيمات التي كان يقودها، كما عملت لتوسيع رقعة الخلاف الذي دبّ بينه وبين الحزب الشيوعي البوليفي الذي يعمل ضمن المحور الرسمي للحركة الشيوعية بقيادة موسكو، وذلك بنشر نقاط الخلاف والمبالغة فيها، إضافة إلى معلومات مضللة.

لقد تلاقحت أوضاع البؤس التي كانت تعيشها أميركا اللاتينية مع النفحة الرومانسية الواعدة التي أطلقتها الثورة الكوبية والحركة الجيفارية، لدرجة أصبحت كل خطوة مهما كانت بسيطة تقلق الدكتاتوريات والقوى المستغلة والمحافظة، لاسيّما حين يستقبلها الشباب المتطلع إلى الحرية والعدالة بحيوية مفعمة بالاحترام، الأمر الذي كان ينذر بفتح جبهات شبابية جديدة وتجنيد فتيات وفتيان من كل القوميات والأديان للنضال ضدها، هكذا تصوّرت القوى الاستغلالية والإمبريالية أن الشبح حاضر وموجود، أينما وحيثما اتجهت أو توجهت فستجده أمامها.

وإذا كان شبح ماركس الذي أرعب أوروبا العجوز في القرن التاسع عشر،

حيث كان بلحيته وقلمه وخلفه كادحون ومستلبون، يبشّر بغدٍ أكثر إشراقاً وسعادة للإنسانية، لاسيّما بالخلاص من حكم الاستغلال، فإن ما كان يقلق الرأسمالية والإمبريالية في إطار الموجة الجديدة للاشتراكية في أميركا اللاتينية، هو ما كان يدعو إليه جيفارا، ولكن ببندقيته وقبعته العسكرية وسيكاره المميز.

ومثلما استحكم حكام أوروبا حينها، لاسيّما بعد صدور البيان الشيوعي (المانيفاستو) العام 1848، وفيما بعد عند حدوث كومونة باريس (Paris-commune) العام 1870، وسقوط إحدى أهم قلاع الرأسمالية حينها، فقد استحكمت «أميركا اللاتينية» وحكوماتها الرجعية والدكتاتورية، وبقيادة مباشرة من الولايات المتحدة، لتطارد الشبح الجديد- الذي حاول أن ينقل الثورة إلى أفريقيا ويدعو إلى لقاء ممثلي القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية- لملاحقته، مخصصةً مجموعةً عسكريةً متخصصةً زادت على 1500 جندي.

ولعلّ الأهم من السعي لقتله، كانت محاولة القضاء على أسطورته التي ظلّت تتناقلها الألسن والدفاتر والجامعات والصحف والمعامل والساحات والحقول وقلوب الشابات والشبان في كل مكان، بغض النظر عن نجاحه أو فشله في تحقيق حلمه الثوري، وبغض النظر عن صواب أو خطأ منهجه، لكن ما هو مؤكد أنه كان شجاعاً وحالماً، وساعياً لتحقيق العدالة على النطاق العالمي، وهو ما ينبغي أن يخضع لسياقه التاريخي.

لقد حاولت الدعاية الإمبريالية في حينها أن تنقل كلمة على لسانه ساعة احتضاره، بقوله: «أنا تشي جيفارا، لقد فشلت»، وبذلك ضجّت الوكالات بتكرارها ونقلها وكأنها هي النهاية المحتّمة لكل من يناضل من أجل الحرية والعدالة بطريقة لا تريدها القوى المتنفّذة.

وإذا كان النجاح والفشل نسبيّين، فإن جيفارا فشل في الوصول إلى تحقيق هدفه، وهو أمرٌ مؤكد، فليس كل من يختار طريقاً صحيحاً فإنه بالضرورة سيصل إلى هدفه وسينجح في مهمته، ولا بدّ من توافر عوامل سياسية ولوجستية وجيوبولتيكية وتوازن قوى، لكن ما هو مؤكد أنه نجح بصدقيته في طريقة

التعبير، كما نجح في جرّ مئات الألاف إلى النضال ضد الاستغلال وضد الإمبريالية والاستبداد، وهو نجاح باهر ومنقطع النظير، لأنه جسّد رمزية رومانسية ثورية حالمة وصادقة، حتى وإن اختلف الثوريون حول جدوى الأسلوب الذي اختاره وتوقيته وأفق عملية التغيير التي سعى إليها، ولعلّهم أكثر اتفاقاً حول طهرية وصدقية ونجاعة سجاياه الشخصية والنضالية وإنسانية الأهداف التي دفع حياته ثمناً لها. وكان خطاب كاسترو بعد أيام من مصرع جيفارا جواباً على الغدر ومنطق الخديعة، وإعلاناً جديداً بمواصلة النضال، بتأكيده أن «النضال سيستمر بعد موت تشي، والحركة الثورية لن تتوقف».

وقبل فترة قصيرة نشر فيلكس رودريجيس (Felix Rodregues)- العميل السابق لجهاز المخابرات المركزية الأميركية -CIA عبر الإنترنت صوراً لأول مرّة عن إعدام جيفارا، وهذه الصور تمثل حياة الثوري الأرجنتيني قبل إطلاق الرصاص عليه في «لا هيغويرا» في غابة «فالدي غراندي» في بوليفيا في 9 تشرين الأول (أكتوبر) العام 1967. وتُظهر الصور كيف تمّ أسر جيفارا وإلقاؤه على الأرض، ووجهه المتورم الكثير الكدمات، ودمه المسفوح بجواره، وعينيه شبه المغلقتين، والجديد أيضاً هو ما قاله رودريجيس عن بتر كفيه بعد قتله، لأجل التعرّف على بصمات أصابعه، ثم القيام بحرقه.

وإذا كان الذئب المفترس يحوم حول جيفارا ويلاحقه كظلّه، فإن شيئاً آخر شاطره حياته أيضاً، وهو مرضه، حيث كان مصاباً بالربو وتأتيه نوبات موجعة، وكان يئن زفيراً ويتمزق صدره لقلة الأكسجين، لكن شعلة الحرية الحمراء المتوهجة ظلّت ما يرنو إليه، وهي ما يريده وما يسعى له، مرفقة بالعدالة، وظلّ وفيّاً لها حتى آخر لحظة في حياته القصيرة.

لم يكن الموت يخيف جيفارا، وكان يشتهي موته، فقد قال مرّة لرفيق له العام 1957، وهما يقاتلان جنباً إلى جنب في الأدغال، وكانت القوات الحكومية التابعة لباتيستا تمطرهما بالرصاص: «أتدري كيف أتمنى أن أموت؟ ثم يجيبه: مثلما مات بطل قصة جاك لندن.. لقد تجمّد حتى الموت في أراضي

ألاسكا البيضاء المقفرة، فاستند بهدوء إلى شجرة، واستعد لمواجهة الموت بصمت وكبرياء». كان جيفارا يتمنّى عندما يأتيه الموت، أن يستريح عند جذع شجرة، ليهدأ زفيره الداخلي، ثم يموت بصمت، لكنه لن ينسى أن تكون بندقيته معه، لكي يفرغ ما تبقى فيها من رصاص في العدو الذي يهاجمه من خلف الأشجار.

قال جيفارا لكاسترو في الرسالة الأخيرة التي وجهها إليه العام 1965 قبل اختفائه: «ذات يوم، سألنا عن الشخص الذي ينبغي إنذاره أو إبلاغه عند موت أحدنا، وفوجئنا جميعاً لهذه الإمكانية الحقيقية، ثم أدركنا أن الثائر الحقيقي: إما أن ينتصر أو يموت. وكثيرون سقطوا في طريق النصر الطويل.. بمعنى إن لم يتحقق النصر فسيكون الموت حليفنا المنطقي».

ولعلّ أكثر ما تردد على لسان جيفارا عن الموت- وهو ما نشر عنه وزيّن واجهات ومكاتب المقاومة والحركات الثورية الفلسطينية والعربية- قوله:

«لا يهمني متى وأين سأموت؟ ولكن يهمني أن يبقى الثوار منتصبين، يملأون الأرض ضجيجاً، كي لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين».

ولعلّ هذا ما أراده جيفارا، فقد أفرغ ما في جعبته في المعركة، ونفذ عتاده، وحينها استقبل الموت كزائر تصالح معه بعد طول مطاردة وعناء، وبقدر ما كان موته مصدر حزن وأسى بالغين للثوريين واليساريين من كل الأشكال، وبالرغم من اختلافاتهم مع توجهاته، فقد كان ابتهاجاً منقطع النظير للقوى الاستكبارية العالمية الرأسمالية والاستبدادية على المستوى الدولي والمحلي أيضاً، التي اعتقدت أن القضاء على الرمز يمكن أن يقطع الطريق على نشوء حركة ثورية فاعلة وتبلورها.

وإذا كانت حياة جيفارا قد شهدت صخباً وضجيجاً، فإن موته هو الآخر كان الأكثر إثارة وغموضاً، وإذا كانت حياته قد توقفت، فإن إشعاع الفكر الجيفاري لم يتوقف، وهو اليوم الأكثر دراسة ومراجعة ونقداً وارتباطاً بالفكر

الماركسي ذاته، خصوصاً في ظل الأزمة المالية والاقتصادية العالمية منذ أواخر العام 2008 والتي قد تدوم- حسب بعض التقديرات- إلى مطلع العام 2012، وإن رمزيته كباحث عن العدالة على المستوى الأممي ازدادت تأثيراً، لدرجة أن قوى اليسار في أميركا اللاتينية- وهي اليوم تنهض عبر شعار «الثورة في صندوق الاقتراع»- لم تنس دور جيفارا الذي حفر الثورة بيديه في الستينيات، وكان جسراً نحو لاهوت التحرير في الثمانينيات، ثم انخرطت الملايين لتدلي بأصواتها للمثل والقيم التي دعا إليها في التسعينيات والعقد الأول من الألفية الثالثة، حين أحرز اليسار انتصارات كبرى في أميركا اللاتينية، من كوبا كاسترو إلى هوغو شافيز في فنزويلا، مروراً بعدد من أقطار أميركا اللاتينية.

آه، الموت،

ما ألذ نكهته حين تموت مناضلاً.. مدافعاً عن الوطن.

(خوسيه مارتيه)

* * *

جيفارا وعبد الناصر: أحلام الكبار!

حاولت أن أستعيد ما اختزنته الذاكرة وأنا أقوم بجولة في هافانا، للبحث عن أثر جيفارا قبل ذهابي إلى سانتا كلارا، وهناك داهمتني ذكريات وأحاديث قديمة مضت عليها خمس سنوات وأربعة عقود من الزمان.

حين زرت القاهرة لأول مرّة في شباط (فبراير) 1965 كنت أبحث أيضاً عن أثر جيفارا في حواريها وأزقتها ولكن على نحو مختلف عما فعلته في هافانا. في القاهرة كنت أحاول أن أقتفي أثره، حيث كان جيلنا الستيني متطلعاً حالماً، شديد الحماسة، أما في هافانا فقد جئت ناقداً، مقلّباً التجربة وأخطاءنا، مراجعاً المتن والمنهج والممارسة، متفحصاً ما أفرزته الحياة من غثّ ومن سمين.

ولعلّ الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي كنت التقيه يومياً في مقهى لاباس في القاهرة في أوائل العام 1969 ولمدة زادت على الأسبوعين، كان أول من حدثني عمّا ترك الرجل من عمق تأثير في القاهرة. وهو الذي نسج كلمات قصيدته المميّزة «موت طائر البحر» والتي يقول فيها:

في زمن المنشورات السرية
في مدن الثورات المغدورة
جيفارا العاشق في صفحات الكتب المشبوهة
يثوي مغموراً بالثلج وبالأزهار الورقية
قالت وارتشفت فنجان القهوة في نهم
سقط الفنجان لقاع البئر المهجور

رأيت نوارس بحر الروم تعود
لترحل نحو مدار السرطان
ونحو الأنهار الأبعد
في أعمدة الصحف الصفراء
يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين
العرّافة قالت هذا زمن سقطت فيه الكتب
المشبوهة
والفلسفة الجوفاء
دكاكين الوراقين
طيورٌ ميتة
فتعالي نمارس موت طيور البحر الأخرى
فوق سرير الحب الممنوع

أصغينا إليه، الشاعر عبد السامرائي وأنا، وهو يتحدث بإعجاب عن «شاعريته» ورومانسيته الثورية التي قال إنها أقرب إلى الشعر. كانت نقاط الاختلاف والالتقاء تدور حول الكفاح المسلح ودور الطليعة والبؤر الثورية ودور الحزب والعلاقة مع السوفييت. كان بعض ما أورده عبد الوهاب البياتي صحيحاً، بل متقدماً علينا، وهو الذي كتب قصيدته الشهيرة بعد مغادرته موسكو العام 1964:

مدنٌ بلا فجرٍ تنامْ
ناديتُ باسمكَ في شوارعها فجاوبني الظلامْ
وسألتُ عنك الريح وهي تئنُّ في قلبِ السكونْ
ورأيتُ وجهكَ في المرايا والعيون
وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد
وفي بطاقات البريد
مدن بلا فجر يغطيها الجليد
هجرتْ كنائسها عصافير الربيع

فلمن تغنّي والمقاهي أوصدتْ أبوابها
ولمن تصلّي أيها القلب الصديع!

كنت أشم رائحة جيفارا وأنا أتجوّل في الساحات والشوارع وأنتقل بين المكتبات والحانات والمعارض الهافانية وأستمع إلى موسيقى السالسا والسامبا.

استعدتُ الزمن الجميل في القاهرة، يوم كنت أبحث عن مجلة الكاتب، ومجلة الطليعة، وأزور دار الأهرام العتيدة، وجامعة القاهرة «الحية». أتصفح ما يقع تحت يدي آنذاك من أثر لجيفارا وعلاقته بعبد الناصر، ومواقفه من القضية الفلسطينية وقضايا التحرر الوطني، و«الحلم» المنشود.

كانت القاهرة أولى محطات جيفارا إلى أفريقيا، حيث كانت زيارته الأولى لها قد استمرت أسبوعين، من 15 حزيران (يونيو) إلى 30 من الشهر ذاته العام 1959، وذلك يوم عيّنه فيدل كاسترو زعيم الثورة المنتصرة في الأول من كانون الثاني (يناير) 1959 «سفيراً مطلق الصلاحيات»، لشرح أهداف الثورة وخططها وتوجهاتها، ولعلّ اختيار القاهرة له أكثر من دلالة:

الأولى: أن زعيمها هو جمال عبد الناصر، بطل حرب السويس، والصامد بوجه العدوان الإسرائيلي، الأنجلو- فرنسي، والرافض لحلف بغداد ومشروع أيزنهاور، والمساند لثورة العراق.

والثانية: أن توجهه الاجتماعي بتعميق ثورة 23 تموز (يوليو) 1952 اتخذ مسارات جديدة أكثر راديكالية وثورية بعد تأميم قناة السويس وفشل العدوان، لاسيّما الصداقة مع المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفييتي تحديداً.

والثالثة: أن مصر هي قلب العروبة وأكبر بلد عربي ولها إشعاع فكري وثقافي وسياسي على العالم العربي كلّه، لاسيّما الدور الريادي الوحدوي لجمال عبد الناصر وارتفاع رصيده في مواجهة الإمبريالية، وهي مصدر إلهام لحركات التحرر العربية، التي أخذت تعبّر عن نفسها بالناصرية أو العروبية، وأنا هنا أتحدث عن جانبها الإيجابي، مع وجود نواقص وثغرات وجوانب سلبية للظاهرة، لاسيّما الموقف من الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان.

والرابعة: أن مصر تشكّل قاعدة لتحالف دولي عُرف باسم عدم الانحياز لاحقاً، أو دول الحياد الإيجابي، لاسيّما من خلال الزعامات الثلاث، جمال

عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، وجوزيف بروز تيتو، والذي اتخذ تسمية مجموعة الـ77 فيما بعد.

الخامسة: أن مصر هي مركز ملهم لأفريقيا ولحركاتها التحررية، فضلاً عن كونها جسر الوصل مع آسيا، وكانت القاهرة يومها تعجّ بالثوار الأفارقة والقيادات والزعامات المختلفة.

السادسة: أن مصر يمكن أن تشكل إقليماً قاعدياً لوحدة عربية أو اتحاد عربي أكبر من مصر وسورية، لاسيّما بعد انتصار الثورة العراقية في 14 تموز (يوليو) 1958 التي شكلت ضربة كبيرة لمخططات الإمبريالية والغرب الاستعماري في المنطقة وبخاصة لحلف بغداد، لولا الصراعات التي لا مبرر لها والأخطاء والثغرات التي رافقت العلاقات حينها، مثلما وجّهت الثورة الكوبية ضربة موجعة لواشنطن في فنائها الخلفي، لهذه الأسباب اختار جيفارا زيارة القاهرة وبدء تحالفه الثوري- الاستراتيجي منها.

السابعة: أن جيفارا أراد دراسة التجربة المصرية، لاسيّما الصناعية منها والزراعية، وبخاصة الإصلاح الزراعي وتجربة سد أسوان بهدف استفادة الكوبيين من خبرة مصر في هذه الميادين، ولعلّ شخصية القائدين المستقلين المتميزين (عبد الناصر وكاسترو) ووضعهما مسافة بين بلديهما والاتحاد السوفييتي، بحيث لا تتحول كوبا أو مصر إلى «تابعين» كما هي البلدان الاشتراكية، أعطاهما أهمية استثنائية في العلاقة، بالرغم من عدائهما الشديد للولايات المتحدة، ولعلّ ذلك بحد ذاته كان عنصر جذب لتعزيز الصداقة المديدة بين عبد الناصر وجيفارا، لاسيّما تقارب وجهات نظرهما بهذا الخصوص!

وقد انجذب جيفارا إلى الثورة المصرية وتأثر بمواقف عبد الناصر منذ أن كان مع صديقه فيدل كاسترو في المكسيك وكذلك صديقه راؤول، يومها نَظَم بضعة أبيات أسماها نشيد النيل (العام 1956- إثر العدوان الثلاثي الإسرائيلي، الأنجلو- فرنسي).

لم يكن جيفارا يحب البروتوكول الدبلوماسي أو السجادة الحمراء التي يفرشها له مستقبلوه المصريون، وقد حاول عدة مرّات تضليل مرافقيه، ليذهب

إلى المناطق الشعبية ويلتقي بالناس البسطاء، ويأكل أسياخ اللحم المشوي من الكباب والشقف في أزقة القاهرة وحاراتها.

خلال حضوره مناورات عسكرية مصرية في البحر الأبيض المتوسط، سأل جيفارا الرئيس جمال عبد الناصر «كم عدد الأشخاص الذين اضطروا للهروب من البلاد بسبب الإصلاحات الزراعية؟» فأجابه عبد الناصر «إنهم قلّة» فردّ عليه جيفارا وقد غلبه الشك: «هذا يعني أن الثورة لم تُحدث تغييراً مهماً في مجال الإصلاح الزراعي». وأردف جيفارا قائلاً: «إنني أقيس عمق التغييرات الاجتماعية بعدد الأشخاص الذين تنالهم هذه الإصلاحات»... أُعجب عبد الناصر بالشاب جيفارا الذي يصغره بنحو عشر سنوات، وبدأ يشرح له مسعى تدمير القاعدة الاجتماعية والسياسية التي ارتكز عليها الإقطاع.

خلال زيارته الأولى إلى مصر حصل عدوان على غزة التي كانت تحت الإدارة المصرية، فلم يتوان عن القيام بزيارتها يوم 18 حزيران (يونيو) 1959، ويتجوّل في المخيمات الفلسطينية، حيث استقبل بهتافات ترحيبية وتضامنية مع الثورة الكوبية، مشدداً على موقف كوبا من ثورة مصر وثورة الجزائر والتضامن الأممي الأميركي- اللاتيني- العربي الإفريقي.

وفي خطاب له في المؤتمر الأفرو- آسيوي، قال جيفارا بروح أممية: «لقد بدأت أفريقيا وآسيا بالنظر إلى ما وراء البحار»، ولعلّ ذلك كان مرتكزاً لدراسة كان قد كتبها بعنوان «أميركا من على الشرفة الإفريقية والآسيوية» وقد نُشر هذا البحث الذي يمثل رؤية إستراتيجية بما عُرف لاحقاً بالجيفارية في أواخر العام 1959.

يذكر الصحافي الكبير محمد حسنين هيكل، أن عبد الناصر كان معجباً بجيفارا وارتبط معه بعلاقة حميمة، وكان جيفارا من جهته شديد الإعجاب بقيادة عبد الناصر التي بإمكانها لا الانخراط في جبهة البلدان المتحررة من الاستعمار فحسب، بل أن تلعب دوراً مهماً فيها، لاسيّما في أفريقيا وآسيا، وبالخصوص في العالم العربي. وقد حاول تفسير أسباب ثورة 23 تموز (يوليو) 1952 بتشديده على أن الفقر والاستغلال هما سبب تحرّك الضباط الشباب للإطاحة بالنظام السياسي واستعادة الثروات المنهوبة وإجلاء القوات الأجنبية البريطانية

وتأميم قناة السويس، الأمر الذي ردّت عليه بريطانيا وفرنسا ومن خلال العدوان الإسرائيلي بالهجوم على مصر، في معركة راح ضحيتها 300 مدني في مدينة بورسعيد وحدها، ولكن بفضل التضامن العالمي ومقاومة الشعب المصري تمّ دحر العدوان.

يروي محمد حسنين هيكل، أن عبد الناصر شعر بأن جيفارا كان حزيناً ومهموماً فطلب منه أن يفضي إليه بمكنونات قلبه، فقال جيفارا إنه متجهٌ إلى الجزائر وبعد عودته سيصارحه ويفضي إليه بهمومه، كان ذلك لدى توقف جيفارا في القاهرة لمدة ثلاثة أيام في 19 كانون الثاني (يناير) 1965 قبل ذهابه إلى الجزائر، وكان وقتها يدير مجموعة خلايا لقوى تحررية إفريقية من قاعدة في الجزائر ودار السلام (تنزانيا) إضافة إلى القاهرة، ولعلّ خطاب الجزائر 24 شباط (فبراير) 1965 كان الإعلان الأول عن «قطيعة» جيفارا مع المواقع الرسمية، وهو ما سيبوح به لعبد الناصر.

كوبا كانت عارية... حافية القدمين
تعدو في حقل السكر حافية القدمين
تسكن كوخاً من طين
تلحس صحناً...
تسكر من رائحة الأفيون
كوبا كانت حسناء صغيره
خدعوها، أغروها بالغزل العاري
قالوا: صدرك يا كوبا غابات مترفة الأشجار
شفتاك السكر، والثمر الحالم
نهداك خمور، فاسقينا
اسقي زائرك الهائم!!

(الشاعر الفلسطيني محمود درويش)

* * *

جيفارا وعبد الناصر:
قلق وهواجس!

انتظر الرئيس عبد الناصر عودة جيفارا من الجزائر، وعاد إليها فعلاً قبل سفره إلى كوبا، وكان عبد الناصر قد اطّلع على خطابه المشحون بالهمّ والمسؤولية والقلق الذي حمله على كاهله، إزاء مستقبل «الحركة الثورية» وآفاق نضالها.

إذاً من الجزائر فجّر جيفارا القنبلة يوم ألقى خطابه الشهير، والذي سيُعرف في الأدب السياسي «بخطاب الجزائر» الذي كان عبارة عن رؤية مكثفة لتوجهاته الاشتراكية ونقده للبيروقراطية السوفييتية، التي احتجّت على ذلك الخطاب رسمياً لدى كوبا، وجرى حديث في السرّ والعلَن عن ضغوط موسكو على كاسترو، لاسيّما وأن كوبا كانت بحاجة إلى المساعدات السوفييتية.

كان خطاب الجزائر في 24 شباط (فبراير) 1965 محطة فاصلة عبّر فيها جيفارا عن ما كان يلوّح به من انتقادات ووجهات نظر إزاء التحديات والمصاعب النضالية، ليس في جانبها الموضوعي من طرف «العدو الطبقي» وحسب، بل من جانب الذاتي، خصوصاً مواقف البلدان الاشتراكية والاتحاد السوفييتي تحديداً، الأمر الذي جعله في تناقض بينه وبين الواقع من جهة، وبين الرغبات والإرادات من جهة أخرى، وبين الدول الاشتراكية ومصالحها من جهة والدول النامية وحركات التحرر الوطني في أميركا اللاتينية وأفريقيا وآسيا من جهة أخرى.

ولعلّ التناقض الأكبر كان بينه وبين نفسه، فبالرغم من آماله الكبيرة كان ثمة تشاؤم قد بدأ يتسلل إليه، لم يطرده إلا بشحذ العزيمة والإرادة بديلاً عن الواقع، وهو ما عبّر عنه في حديثه مع عبد الناصر، الذي وإن كان يكنّ له محبة أخوية لأفكاره النبيلة ولشخصه الكريم الآتي من قارة أخرى (لنصرة الثورة في أفريقيا) لكنه كان يأمل «اعتدال» مطالبه الثورية، وفي الوقت الذي حصل فيه جيفارا على موافقة أحمد بن بيلا على دعم ثوار الكونغو، الذين سيتولى هو تقديم المساندة الكوبية لهم، كان يتقلّب في فراشه لليلة كاملة: هل يطلب ذلك من عبد الناصر أيضاً وماذا سيكون رد فعله؟

بعد خطاب الجزائر الشهير، توجّه جيفارا إلى القاهرة يوم 2 آذار (مارس) 1965 ومكث فيها 8 أيام، ودار بين الزعيمين المصري القومي العربي وبين الكوبي الأممي حديث حول سبل تحرير أفريقيا. وعندما علم عبد الناصر بمشروع جيفارا بالانخراط في العملية العسكرية في الكونغو، أبدى قلقه ومخاوفه، ووجه الخطاب مباشرة إلى صديقه، قائلاً له بكل وضوح: «أنت تدهشني جداً.. هل تريد أن تصبح طرزاناً جديداً؟ رجلٌ أبيض بين الزنوج من أجل قيادتهم وحمايتهم.. هذا مستحيل!! لن تنجح أبداً.. سيسهل كشفك لأنك أبيض، وإذا أتيت مع الكثير من البيض.. فستعطي الإمبرياليين الفرصة للقول بأنه لا يوجد فرق بينكم وبين المرتزقة».

وأردف عبد الناصر بالقول ببعد نظرٍ ودراية بظروف الصراع الدولي وشؤون السياسة والدبلوماسية، فضلاً عن كونه عسكرياً ميدانياً يعرف خطورة اتخاذ قرار من هذا القبيل: «إذا ذهبت إلى الكونغو مع كتيبتين كوبيتين، وإذا أرسلت معك كتيبة مصرية فسيتهموننا بالتدخل في الشؤون الداخلية في الكونغو، وهذا يضرّ أكثر مما ينفع»!

في منزل عبد الناصر في المنشية، تابع الصديقان حوارهما في ليلة أخرى أفضى فيها جيفارا بهمومه ومشاغله الفكرية والسياسية، ومتاعبه العملية، وشرح

أسباب انتقاده لمعاملة الدول الاشتراكية «الأنانية»، كما وصفها، وأفاض ما في قلبه من حنق، كان قد عبّر عنه في خطاب الجزائر.

في تلك الليلة جرى الحوار بين عبد الناصر وجيفارا حول الموت، الذي كان يتردد على لسان جيفارا باستمرار، فقال عبد الناصر وهو الأخ الأكبر: «لماذا تتكلم دائماً عن الموت؟ أنت رجل شاب، إذا اضطررنا أن نموت سنموت من أجل الثورة، ولكن الأفضل أن نحيا من أجلها»، لكن جيفارا برومانسيته وحسّه لما هو ذاهب إليه، كان قد وضع الموت نصب عينيه، وعندما اضطر أن يضرب مثلاً حول بيرون (Juan Domingo Peron) الزعيم الأرجنتيني أشار إلى جبنه وهروبه، لأنه لم يقوَ على مواجهة الموت، وشدد جيفارا قوله وهو ما أوفى بعهده: «اللحظة الحاسمة في حياة الإنسان هي عندما يتخذ قراراً بمواجهة الموت، فإذا قرّر ذلك فهو البطل سواءً توّجت معركته بالنجاح أو بالفشل»!.

لقد كان يدرك خطورة قراره، وربما لم يتأكد من نجاحه في معركته، لكن ما كان متأكداً منه هو صدقية خياره وشجاعته في مواجهة الموت لحظة يتطلب ذلك منه، وهنا مقياس اختبار لقيمه ومبادئه، لاسيّما حين يبدي استعداده للتضحية بحياته من أجلهما.

وبقدر حبّه للحياة وتمسكه بأهدابها، فقد كان يسترخص الموت من أجل حياة حرة كريمة.

زار جيفارا سد أسوان العظيم وأعجب به أشدّ الإعجاب، وكان بصحبة عبد الناصر، وزار معه أيضاً افتتاح أحد المصانع، فلقي ترحيباً هائلاً من عماله وأهل القرية، وقد تأثر جيفارا كثيراً لما أسماه «بالخميرة الثورية»، وقد علق عليها عبد الناصر، ببساطة: «الحصول عليها يتطلب هذا»، مشيراً إلى المعمل. ودار حوار بينهما حول انتصار الثورة التي تتحقق بجهود الثوار، لكن البناء يتم بمساعدة التكنوقراط البيروقراطيين الذين هم أحياناً ضد الثورة كما يُقال.

ولعلّ حواره مع عبد الناصر كان وراء كتابة مقالة بعنوان «الاشتراكية والإنسان وكوبا» التي تعتبر أساساً في الفكر الجيفاري، الذي ألهم شباناً وشابات من جميع القارات، فقد أراد أن يضع بعض النقاط على الحروف، لاسيّما فيما يتعلق بالحصول على التقنية وبناء الإنسان الجديد.

يقول جيفارا في خاطرة حول الموت: «لون حريتنا وخبزنا اليومي أحمر كالدم وهما منتفخان بالتضحيات، تضحياتنا واعية، نحن نبني ثمن الحرية.. تسلّموا تحيتنا الطقسية كمصافحة أو كلام ملائكي: النصر أو الموت».

لخّص جيفارا في الزيارة الأولى التجربة المصرية بقوله: «أول خطوة قامت بها الحكومة المصرية لتنظيم الهيكل الاقتصادي هي الإصلاح الزراعي الذي تناول ألفاً و768 من كبار الملاكين مع توزيع الأراضي المسترجعة على الفلاحين والتي تشكل 10 % من الأراضي. أصبحت التعاونية أساس الاقتصاد الزراعي وهي مؤلفة من صغار الملاكين لهكتار أو اثنين ويعملون في الأرض جماعياً ولكن يستفيدون منها قروياً. وكان جريئاً عندما ندد في 28 أيلول (سبتمبر) 1962 بتجربة المعامل المؤممة وهو وزير للصناعة، لأنها فشلت والآلات مهملة ويعلوها الصدأ».

وكانت آخر زياراته لمصر عندما جاءها متخفياً بهوية روسية، وأمضى نهاراً واحداً في القاهرة، وذلك في 5 نيسان (أبريل) 1965 قبل سفره إلى دار السلام لبدء العملية العسكرية في الكونغو، التي يتحدث عنها بمرارة. لعلّه تذكّر ما دار بينه وبين عبد الناصر. وإذا استعدنا الأمر الآن، فكلاهما كانا على صواب، وربما في الوقت نفسه على خطأ، فعبد الناصر تحدث من موقع الدولة، كمسؤول، يحسب تبعات انخراطه في عمل مسلح لمجموعات ثورية وردود فعل الولايات المتحدة والقوى الإمبريالية الكبرى، ولكن كان بالإمكان التنسيق معه وتسهيل مهمته بشكل غير رسمي وهو غالباً ما كان يحدث.

أما جيفارا فقد أراد للثورة أن تبقى حلماً وردياً، حتى وإنْ كان بعيد المنال، فأسقط إرادته على الواقع، لكي يستعجل في إنضاج العامل الذاتي،

حتى إن تطلّب الأمر أن يأتي من أميركا اللاتينية ليقود كتائب ثورية في الأدغال، دون حساب للمخاطر والتحديات التي قد تطال حياته، وهو ما كان يتطلّب وربما لا يزال حتى الآن وقفة مراجعة جدّية جريئة، بخصوص دور العامل الذاتي سلباً أو إيجاباً، وكذلك تقدير دور العامل الموضوعي داخلياً ودولياً، دون استخفاف أو مبالغة بالذات أو بالآخر «العدو» ومراعاة مسألة التراكم الكمي والوضع الاجتماعي والعادات والتقاليد، التي تحول دون تحقيق الحلم الثوري!

كان جيفارا يستعد لتنظيم مؤتمر القارات الثلاث حيث كان من المزمع عقد اجتماعات تمهيدية في 24 آب (أغسطس) 1965 بتنسيق مع المهدي بن بركة تضم ممثلين عن: آسيا، وأفريقيا وأميركا اللاتينية، لكن الذي حدث كان مفاجئاً بكل المقاييس: حصل الانقلاب ضد أحمد بن بيلا في 19 حزيران (يونيو) 1965 وقبل انعقاد المؤتمر اختطف المهدي بن بركة في باريس في خريف العام ذاته، واختفى جيفارا عن الظهور قبيل ذلك!

* * *

جيفارا وأحمد بن بيلا:
العنفوان!

ثلاث شخصيات عربية كبرى جمعتها صداقة مديدة مع جيفارا، أوّلها أحمد بن بيلا أول رئيس جزائري بعد الاستقلال، وثانيها الرئيس جمال عبد الناصر، وثالثها المهدي بن بركة الذي اختطف في باريس في ظروف غامضة.

تميّزت علاقات جيفارا بأحمد بن بيلا بالتفاعل والتأثّر المتبادلين، لاسيّما وقد نظر هو إلى أفريقيا كفضاء جديد للثورة، خصوصاً في أعقاب إحراز الجزائر استقلالها بعد معاناة من الاستعمار الفرنسي دامت 132 عاماً. وكان جيفارا قد عُيّن في بدايات الثورة الكوبية «سفيراً بصلاحيات مطلقة» من قبل زعيم الثورة الكوبية فيدل كاسترو، حيث توجّه في 12 حزيران (يونيو) 1959 إلى زيارة العديد من البلدان للتعريف بكوبا وثورتها ونضال أميركا اللاتينية، في جولة طويلة زار فيها 15 دولة.

وخلال جولته أبرم اتفاقيات تعاون اقتصادية وعسكرية مع العديد من البلدان في آسيا وأفريقيا، لاسيّما دول عدم الانحياز، وزار الجمهورية العربية المتحدة (القاهرة ودمشق)، كما اطلع على تجاربها فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي والنظم الاقتصادية والاجتماعية ومشاكل التصنيع وسبل الانفكاك من هيمنة الاحتكارات وإحراز الاستقلال.

بعد الاستفتاء الذي حصل في الجزائر يوم 13 تموز (يوليو) 1962 وتصويت الجزائريين على الاستقلال عن فرنسا بنسبة 7.93 % جاءت النتيجة طبقاً لما أكدته اتفاقية «إيفيان» (Evian convention) في 19 آذار (مارس) من العام ذاته بين قيادة الثورة الجزائرية (جبهة التحرير الوطني الجزائرية) والحكومة

الفرنسية، وقد تشكلت الحكومة الجزائرية برئاسة أحمد بن بيلا أول رئيس بعد الاستقلال.

وكان من أول البلدان التي زارها أحمد بن بيلا هي كوبا، وذلك بعد مشاركته في أعمال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، حيث توجّه بعدها إلى زيارة كوبا في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1962، والتقى فيدل كاسترو وتشي جيفارا وراؤول كاسترو وقيادات الحزب والدولة.

ولعلّ للزيارة دلالاتها:

الدلالة الأولى أنها جاءت إثر احتدام حدّة التوتر بين واشنطن وهافانا بسبب أزمة الصواريخ الكوبية التي بناها الاتحاد السوفييتي في الجزيرة لمواجهة احتمالات هجوم تقوم به واشنطن للإطاحة بالنظام الكوبي، تلك التي تطورت إلى أزمة دولية عُرفت بأزمة الصواريخ بعد خليج الخنازير (Bay of Pigs) والتي كادت تهدد بحرب عالمية، لولا محاولات احتوائها من جانب الإدارة الأميركية والرئيس جون كيندي (John Fitzgerald Kennedy) والقيادة السوفييتية ممثلة في نيكيتا خروشوف (Nikita Khrushchev)، حيث تمت المساومة على سحب الصواريخ، مقابل الحصول على تعهّد يقضي بعدم مهاجمة الجزيرة، في إطار تسوية سمحت بها ظروف تلك الأيام.

والدلالة الثانية أن الزيارة كانت بإصرار من جانب أحمد بن بيلا الذي يقول إن كيندي حذّره من زيارة هافانا مباشرة بعد حضوره اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، ويضيف: «دُعيت في صباح 15 تشرين الأول (أكتوبر) (أي قبل يوم من زيارته إلى كوبا) إلى البيت الأبيض حيث أجريتُ حوارات ساخنة وصريحة مع الرئيس كيندي بشأن كوبا» ويواصل: «أجابني الرئيس عن سؤال مباشر وجهته له: هل أنتم ذاهبون إلى مواجهة مع كوبا؟» ومن دون أن يترك مجالاً للشك في نيّاته الحقيقية أجاب: «لا إذا كانت الصواريخ السوفييتية غير موجودة.. نعم إذا كان الأمر عكس ذلك»، ولعلّ إجابة الرئيس كيندي تلك تحمل قدراً من التهديد ورسالة إلى القيادة الكوبية عبر أحد أصدقائها وهو أحمد بن بيلا، ويمضي أكثر من ذلك ليؤكد تهديداته حتى بالنسبة لبن بيلا حين يقول الرئيس الجزائري الأسبق: «حاول كيندي أن يثنيني وبإصرار عن الذهاب من

نيويورك إلى كوبا مباشرة»، حتى إنه ذكر احتمال حصول اعتداء على الطائرة التابعة للقوات الجوية الكوبية التي سأستقلها، من قبل «المعارضة» الكوبية المتمركزة في ميامي.

ويجيبه بن بيلا بكل ما تحمل إجابته من بساطة وعفوية، لكن لها دلالاتها في الصدق والشجاعة حين يعلّق رداً على تهديداته المبطّنة: «إنّي فلاح لا ترهبني المعارضة الجزائرية ولا الكوبية» (من خطاب ألقاه بن بيلا حين أدلى بشهادته عن جيفارا بعد مرور 30 عاماً على استشهاده ونقلته جريدة لومانيتيه الفرنسية (L'Humanité) التي يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي في 9 تشرين الأول/ أكتوبر/ 1997).

كان تاريخ زيارة بن بيلا إلى كوبا هو تاريخ صداقة مديدة مع جيفارا استمرت بضع سنوات قبل أن يقطعها الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال هواري بومدين في 19 حزيران (يونيو) العام 1965، ويذكر بن بيلا في شهادته أن يوم 9 تشرين الأول (أكتوبر) 1967 مكتوب في ذاكرته بأحرف من نار، لاسيّما وهو سجين متفرّد، عندما سمع من جهاز الراديو إعلان خبر رحيل «أخيه» جيفارا كما يقول.

وقد زار جيفارا الجزائر بمناسبة الذكرى الأولى للاستقلال ممثلاً لكوبا وذلك في 4 تموز (يوليو) العام 1963، ومكث فيها نحو 3 أسابيع، اندمج جيفارا خلالها بالجو الجزائري طبيعياً وسياسياً، حيث المناخ الحار و«الناشف» الذي ذكّره- كما يشير- بطبيعة أرض الأرجنتين التي ترعرع فيها، كما أبدى إعجابه بقدرة الشعب الجزائري وبطولته في طرد المستعمرين الفرنسيين، لاسيّما بعد اندلاع الثورة، وفي حرب الأنصار، والكفاح المسلح الذي دام 7 سنوات (من العام 1954 وحتى العام 1962)، وإضافة إلى علاقته مع بن بيلا، فقد استضاف في كوبا خلال عودته قائد القوات المسلحة الجزائرية هواري بومدين بمناسبة يوم 26 تموز (يوليو)، وهو يوم انطلاقة الحركة المسلحة التي قادها فيدل كاسترو.

زار جيفارا الجزائر مرّة أخرى بعد زيارة نيويورك في 9 كانون الأول

(ديسمبر) 1964، حيث ألقى خطاباً باسم كوبا في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان جيفارا قد التقى خلال وجوده في نيويورك الزعيم الأسود مالكولم إكس (Malcom X) ووجه عِبرَه رسالة تضامن إلى «إخوته وأخواته» من الأصول الإفريقية، ولاسيّما أن أفريقيا حسب تقييماته تعتبر مرتكزاً جديداً للثورة التي شغلته.

ودامت زيارة جيفارا إلى الجزائر نحو 3 أشهر، حيث وصلها يوم 18 كانون الأول (ديسمبر) 1964 وكانت هذه الزيارة الثالثة، واتفق مع بن بيلا على دعم حركات التحرر الوطني ومساندتها، معتبراً الجزائر العاصمة البيضاء المنوّرة للثورة، غرفةَ قيادة، وهي في الوقت نفسه القاعدة السرّية للعديد من قيادات وكوادر حركات التحرر في أميركا اللاتينية وأفريقيا. وقد سهّلت معرفة كل من جيفارا وبن بيلا للغتين الفرنسية والإسبانية، صداقتهما الحميمة وتفاعلهما المستمر والمتواصل.

وقد اقترح جيفارا على بن بيلا أن تصبح الجزائر محطة لتزويد الحركات الثورية الأميركية اللاتينية بالأسلحة، دفعاً لعيون واشنطن التي هي قريبة من كوبا، وكان رد بن بيلا الموافقة الفورية والإيجابية، بل والأكثر من ذلك تحضير التجهيزات اللازمة لذلك، وحدد مركز القيادة الذي وضع تحت تصرف جيفارا فيلّا كبيرة في مرتفعات العاصمة تدعى فيللا «موزيني»، ولهذه الفيلّا رمزية خاصة، إذ كانت مخصصة للتعذيب ومركزاً للفرنسيين أيام الاحتلال، وإذا بها تتحول إلى مركز للحركات التحررية لدول العالم الثالث، وللتغطية على نشاطها في أميركا اللاتينية، وقد أُنشئت عدة شركات للاستيراد والتصدير بهدف التمويه وذرّ الرماد في العيون!.

اعتقد جيفارا أن أفريقيا هي الحلقة الضعيفة للإمبريالية وهي غنية بالمواد الأولية، ولذلك يتوجب كسر هذه الحلقة من السلسلة. وتحضيراً لفكرته قام بزيارة 7 بلدان إفريقية نالت استقلالها في حينها، واحتسبت ضد المعسكر الإمبريالي، ولعلّ جيفارا هو من دعا إلى تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية الإفريقية، وكان قد قال: «وجدت شعوباً بكاملها تحت الضغط مثل الماء الذي

يوشك على الغليان»، وقد سُمّي خلال زيارته إلى جمهورية مالي في 17 كانون الثاني (يناير) 1965 بـ«ماو أميركا اللاتينية» (نسبة إلى ماو تسي تونغ).

وخلال زيارته الرابعة إلى الجزائر في 24 شباط (فبراير) 1965 ألقى خطابه الشهير في ندوة اقتصادية لمنظمة التضامن الأفروآسيوي، والذي عُرف لاحقاً «بخطاب الجزائر»، وهو وثيقة أو لائحة مرافعة ضد بعض مواقف الاتحاد السوفييتي كما جرت الإشارة إليه، علماً بأن كوبا لم تكن سوى مراقبٍ في المؤتمر وسوف نعود لمناقشة هذه الوثيقة التي تشكل محتوى الفكرة الجيفارية بعد ست سنوات على انتصار الثورة الكوبية، وجوهر الخلاف الذي اتّسع بينه وبين التيار الاشتراكي الرسمي السائد.

ومن الجزائر توجّه إلى القاهرة في 2 آذار (مارس) 1965 ومكث فيها 8 أيام كما ذكرنا، بعد سلسلة من التأملات والاعتراضات والمراجعات، ويبدو أن هذا التحوّل كان أقرب إلى القطيعة بينه وبين المناصب الرسمية، فعاد إلى ميدان المعركة الحقيقي في الكونغو ومنها إلى كوبا حيث اجتمع بكاسترو، وبعدها قرّر السفر إلى بوليفيا حيث اختفى هناك، حتى أعلن عن جرحه وأسره ثم إعدامه.

وإذا كان عبد الناصر أو بن بيلا قد رحبا بحماسةِ جيفارا وانجذبا إليه بصداقة مديدة، لكنهما كل من موقعه حاولا تبصيره بتعقيدات النضال في أفريقيا، وقد سهّل بن بيلا جميع متطلباته، بما فيها كما يقول وضع معاونته الشخصية مريم مرزوق في خدمته، التي شعرت بصداقة قوية تجذبها إلى جيفارا، الذي داعبها مازحاً ذات يوم «أشعر بأن روحي مسلمة لأني متعدد الزوجات، وأعتقد أن بالإمكان محبّة عدّة نساء في آن واحد»، حيث كان متزوجاً مرتين.

يقول بن بيلا: «كنت أحاول لفت انتباهه إلى أن خياراته في العمل المسلح، ليست الطريقة الأجدى في مساعدة النضج الثوري الذي ينمو في القارة الإفريقية، فإذا كانت ثورة مسلّحة، فيمكن أن تحظى بدعم خارجي، إلا أنها لابدّ أن تتهيأ الظروف الذاتية التي تعتمد عليها»، لكنه كما يذهب بن بيلا ظلّ مصرًّا على خياره، وصادقاً في اختياره مضحياً بحياته من أجل ذلك.

ويلخّص بن بيلا علاقته بصديقه جيفارا بالقول:

«من بين جميع السياسيين الذين التقيتهم في حياتي، ترك جيفارا عندي انطباعاً أكثر من الآخرين.. كان يحبّ الجزائر كثيراً وبقي فيها مدّة أطول مما يعتقده الناس، من خمسة إلى ستة أشهر مع ذهاب وإياب.. كان ثورياً من النوع غير المألوف، إنسانياً.. كان يعرف أن يعيش وأن يتألم، كان رجلاً ساخراً حتى من نفسه، شجاعاً ومتيقظاً..».

ويمضي بن بيلا بالقول: وذهب إلى كابيندا في أنغولا، ثم إلى الكونغو برازافيل (البرتغالية كما تسمّى)، ولم يكن مرتاحاً من علاقاته مع بعض الأحزاب الماركسية للدول التي زارها، ولعلّه كان ساخطاً على مفاهيمها وتطبيقاتها، الأمر الذي ترك عنده خيبة أمل ومرارة كبيرة، وهو الذي حاول التصدي لقتلة لومومبا وإذا به يُحاصَر، فكرياً وسياسياً، ويداهمه المرض، ليضطر إلى الرحيل بعد فشل تجربة الكونغو كما يقول، ثم يرحل ليلتقي بكاسترو ويغادر بعدها راكضاً وراء حلمه، ليُقتل في بوليفيا، وفي ذلك روايات كثيرة وجدتها في كوبا ولدى أوساط الثوريين القدامى والشباب مع تفسيرات متباينة، سأحاول المرور عليها.

قبري.. يا أمي!.. ليس لقبري عنوان
أنا حي في كل مكان
أمشي.. لكن مالي قدمان
أحكي.. لكن من دون لسان
وأرى.. لكن مالي عينان
أنا حي في كل مكان
أنا ربٌّ عصريٌّ...
من صنع الثورة.. والأحزان!

(أناشيد كوبية ـ النشيد الثالث)
(الشاعر الفلسطيني محمود درويش)

* * *

جيفارا والمهدي بن بركة: غياب غامض!

«لحيةٌ، شعرٌ طويل، بدلة عسكرية خضراء، وبعض الجبال من دون موقع محدد في بلد لا يعرف أحد عدد سكانه، ولا أحد يعلم بأنه جزيرة».. بهذه الكلمات اختزل جيفارا «الثورة الكوبية» وهو يتحدث في القاهرة في أول زيارة لها في عام 1959، وقد أعيد نشر مداخلته تلك التي ذاع صيتها تحت عنوان «أميركا من على الشرفة الإفريقية والآسيوية» في أيلول (سبتمبر) 1959. ولعلّ جيفارا كان رساماً ماهراً في التعبير عن تطلّع جيل الستينيات وأحلامه بما اتّسمت من عنفوان ورومانسية وآمال.

كانت مهمة جيفارا التعريف بالثورة الكوبية كسفير «مطلق الصلاحيات» بعد نجاح الثورة مباشرة، لكنه شعر أن أميركا اللاتينية قارّة تكاد تكون مجهولة بالنسبة للعرب والأفارقة والآسيويين على حد سواء، فما بالك بكوبا الجزيرة البعيدة، ولذلك قدّر ثقل مهمته، فضلاً عن أنه هو الآخر شعر بأن الكثير من العالم العربي والإسلامي وشعوب آسيا وأفريقيا كانت مجهولة بالنسبة إليه، وهو ما عبّر عنه في مداخلته تلك حين قال «ونحن نجهل جزءًا كبيراً من العالم».

ولعلّ جيفارا أراد بهذا التقديم التمهيد لجسر التواصل بحثاً عن المشترك الإنساني للقارات الثلاث، وهو ما كان شاغل صديقه المهدي بن بركة، الزعيم المغربي الذي اختفى قسرياً في باريس في خريف العام 1965، وهو يحضّر لمؤتمر القارات الثلاث مثل صديقه جيفارا، وينتقل من عاصمة إلى أخرى ليبشر بالثورة ويعمل لتحقيق تضامن عالمي من أجلها.

لقد كان هاجس المهدي بن بركة وجيفارا إضافة إلى الزعيم الجزائري أحمد بن بيلا والرئيس المصري جمال عبد الناصر وعدد من قادة دول عدم الانحياز، تنسيق الجهود لتحرير إرادة المُستغَلين ومواجهة أسباب الاستغلال وتحدي مسبّبيه، لاسيّما الاستعمار والرأسمالية الاحتكارية العالمية التي نهبت خيرات وموارد شعوب القارات الثلاث: أميركا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، وهذا السبب بحد ذاته يمكن أن يكون عامل اشتراك بين القوى التحررية من أجل الانعتاق والاستقلال واستعادة الثروات المسروقة، وتحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية.

وبالرغم من أن علاقات أميركا اللاتينية مع العرب تمتد إلى زمن بعيد، منذ وصول المستعمرين الإسبان في القرن الخامس عشر، وفيما بعد المستعمرين البرتغاليين، الذين أسهموا في فتح حلقة اتصال مع الحضارة العربية- الإسلامية، فإن العلاقات ظلّت شحيحة ومحدودة. كانت كوبا الجزيرة الوادعة الجميلة شبه مجهولة قبل الثورة، لكنها أصبحت بوابة أميركا اللاتينية بعدها، وكان لجهود جيفارا وعمله الحثيث، لاسيّما صداقاته مع المهدي بن بركة وأحمد بن بيلا وعبد الناصر، دور في ذلك حيث تمّ بناء جسور بين القارات الثلاث عبر المشترك في الأهداف والمصالح والسعي لتقريب المواقف والتوجّهات.

ومثلما جرت الإشارة إلى أن كوبا هي أول أرض في أميركا اكتشفها كريستوفر كولومبس (Christopher Columbus)، وعُدّت مستعمرّة إسبانية منذ ذلك التاريخ، ولم تتمكن من التحرر من الاستعمار الإسباني إلا بحرب طويلة ودامية دامت نحو 30 عاماً، من العام 1868 إلى العام 1898، وعندما كانت وحدات المقاومة الكوبية تهاجم الجيش الإسباني العام 1868 كانت كوبا تعيش ازدواجية اجتماعية وسياسية؛ فمن جهة كان الإسبان يستغلون الكوبيين، ومن جهة أخرى كانت توجد أعداد كبيرة من العبيد في كوبا، ولكن المقاومة استطاعت توحيد الصفوف، فانضم الزنوج إليها، وهم بذلك تحرروا من العبودية من جهة، وحرروا بإسهاماتهم مع الكوبيين الآخرين كوبا من الاستعمار الإسباني.

وقد تدخلت الولايات المتحدة عشية حصاد نتائج التحرير، مستغلة انفجار الباخرة العسكرية الأميركية «مني» في كوبا، ونزل الأميركيون في سانتياغو الكوبية واستولوا على الجزيرة، الأمر الذي جعل استقلال كوبا مشوباً بالشبهة، واستخدمت واشنطن كوبا فناءً خلفياً، لاسيّما لكبار المحتكرين الذين استغلّوها كمنتجع رخيص وعملوا على نهب ثرواتها.

واستمرّ الأمر على هذه الصورة حتى انتصرت الثورة في مطلع العام 1959 بعد بداية انطلاقتها بالهجوم على ثكنة المونكادا العام 1953؛ هذا الهجوم الذي مُني بالفشل وتحوّل إلى نكبة على حد تعبير جيفارا، حيث سجن الأحياء، لكنهم عادوا بقيادة كاسترو إلى النضال الثوري بعد حصولهم على العفو، بحرب عصابات مثّلت طليعة كما قيل، إزاء خدر الشعب الذي سعى المقاومون إلى تحريكه، وقد مثّلت الطليعة «الضمير الثوري»، وكانت وسيطاً لخلق الظروف الذاتية الضرورية للانتصار. وهذه الفكرة هي التي شكّلت جوهر حركة الكفاح المسلح التي راجت في الستينيات.

وإذا كان سيمون بوليفار (Simon Bolivar) قد مثّل بطولة أميركا اللاتينية وساعد في نجاح نضال العديد من دولها في الحصول على الاستقلال من إسبانيا، ودعا إلى اتحاد فيدرالي بين دولها الناطقة بالإسبانية، فإن جيفارا مثّل تطلّع الشباب وحيويته، وكأنه في نضاله كان أقرب إلى مغامرته لقيادة دراجته النارية مع صديقه ألبيرتو غرانادو التي قطع فيها أميركا من جنوبها وحتى شمالها، مثلما قطع جيفارا رحلته الشيّقة ومغامرته النضالية الممتعة من جبال السيرامايسترا وحتى بلغ كماله في موته المبجّل في كيبرادا ديل ورو في بوليفيا يوم وقع أسيراً ثم شهيداً في الوادي الضيق شديد الانحدار يوم 8 تشرين الأول (أكتوبر) 1967، ذلك الوادي الذي ذكّرني بمنطقة نوكان (ناوزنك) في كردستان العراق، تلك المنطقة الحدودية النائية، لاسيّما وعورتها ومناخها القاسي، حيث تصل درجات الحرارة في الشتاء إلى نحو 20 درجة تحت الصفر وعلى حد تعبير بعض الفلاحين أو المتعهّدين الذين يزورون المنطقة كل بضعة أسابيع: إن

المنطقة لا تصلح إلّا للخنازير، وهو تعبير القصد منه قدرة الشيوعيين الأنصار على الصبر والجلد واحتمال الطبيعة القاسية حيث كان الوادي عميقاً وانحدار النهر (الروبار باللغة الكردية) شديداً والمياه سريعة، وفي إحدى المرات جرفت معها خيامنا وبعض المباني الطينية، التي كنّا نضطر للعيش فيها، فضلاً عن الاضطرار إلى تركها عندما تقدّمت القوات الإيرانية باتجاهنا، حيث انتقلنا إلى بشتاشان.

وحسب بعض المعلومات فإن الكثير من المهاجرين العرب، لاسيّما من المسيحيين في سورية ولبنان وفلسطين، أخذوا يتوافدون على أميركا الجنوبية، منذ عام 1875 ويقدّر عددهم اليوم بنحو 18 مليون نسمة من أصول عربية يعيشون في أميركا اللاتينية.

وإذا كان الاهتمام بما كتبه جيفارا كبيراً، فإن الكثير من الكوبيين اليوم يعرفون، بالقدر نفسه من الهيبة والاعتزاز، أن جيفارا بلور أفكاره الرئيسية في العالم العربي ومع أصدقاء عرب، ولعلّ هذا ما نجهله نحن، وربما لم نعطهِ حقه بما فيه الكفاية، وهو يحتاج إلى عمل متواصل، أرشيفي ووثائقي، وحوارات ومقابلات مع من التقاهم وتحدث إليهم وكانوا قريبين منه، ولعلّ الصحافي الكبير محمد حسنين هيكل بذاكرته الخصبة يمكنه أن يكشف جانباً من هذه العلاقة مع عبد الناصر وربما مع بن بيلا (الذي كتب شهادته بشكل مقتضب ولكنه مهم جداً) والمهدي بن بركة، بحكم لقاءاته غير القليلة مع جيفارا وصلته بعبد الناصر، وما تراكم لديه من معلومات ووثائق.

لقد لعبت ظروف جيفارا، لاسيّما مكانياً وزمانياً وعلاقته مع عبد الناصر وبن بيلا والمهدي بن بركة دوراً كبيراً في صياغة منظومة أفكاره أو في التأثير على تلك الصياغة، بحيث اقترب إلى حدود غير قليلة من توجهات الزعماء الثلاثة على الرغم من ماركسيته، مثلما هم اقتربوا منه وتأثروا به وصار الجميع يكمّل بعضهم بعضاً!

لعب المهدي بن بركة مثل صديقه جيفارا دوراً في بلورة خطة قبول كوبا

وعضوية دول أميركا اللاتينية في المؤتمر الذي كان مزمعاً عقده في هافانا، والذي انعقد بعد رحيله، وكان قد صاغ مع جيفارا برنامج «التحرير الكامل» بدعم من الدول الاشتراكية، لاسيّما الصين والاتحاد السوفييتي في حينها وهو البرنامج الذي تضمن عدة أهداف منها:

-مساعدة الحركات الوطنية التحررية وبخاصة منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف) ومنظمة فتح التي تأسست في 1/ 1/ 1965. وكانت كوبا قد أقامت علاقات معهما.

-تعزيز وتعميق النضال السلمي والمسلح في القارات الثلاث.

-دعم ومساندة الثورة الكوبية.

-العمل على إلغاء القواعد العسكرية الأجنبية للدول الإمبريالية.

-تشجيع سياسة نزع السلاح، لاسيّما تحريم الأسلحة النووية.

-النضال ضد العنصرية والتمييز العنصري.

وإذا كان ثمة تغييرات كبيرة قد حصلت على الصعيد العالمي، فإن برنامج المهدي بن بركة- جيفارا لا يزال حتى هذه اللحظة يحظى من حيث الجوهر باهتمام غير قليل، لاسيّما ما تضمنه من أهداف بعيدة أو قريبة، لكن غيابهما الغامض أضفى عليه نوعاً من الروتينية، وهو ما كانا بحيويتهما يتجاوزانها نحو أفقٍ أكثر رحابة وشفافية.

* * *

التغريد خارج السرب:
رومانسيان حتى الموت!

بلْوَر جيفارا أفكاره الثورية تلك التي تجسدت في مداخلاته وأحاديثه المثيرة و«الشهيرة» خارج التفكير الرسمي للاشتراكية النمطية الوظيفية البيروقراطية السائدة، لاسيّما في ثلاثة مواقع على الأقل:

الأول يتعلق بمداخلته تحت عنوان «أميركا من على الشرفة الإفريقية والآسيوية».

والثاني «الاشتراكية والإنسان وكوبا».

والثالث «خطاب الجزائر».

ولم يكن بإمكان جيفارا أن يحتل هذه المساحة من الرمزية النضالية الكبيرة في العالم الثالث، بل وفي العالم أجمع لو حصر نفسه في أميركا اللاتينية، ولأنه كان أممياً بامتياز فقد كرّس جهداً استثنائياً لتجميع الطاقات النضالية للقارات الثلاث في أفريقيا وآسيا، إضافة إلى أميركا اللاتينية، ولهذا السبب قطع آلاف الأميال لينقل الثورة- كما أعتقد- إلى أحراش الكونغو وليحوّل أفريقيا إلى أرض متزلزلة تحت أقدام المستعمرين، ويحفّز نضال آسيا عندما يكون حلقة الوصل من هافانا إلى الجزائر إلى العمق الآسيوي، كل ذلك جرى في هارمونية رومانسية عالية، لا تعرف الحدود، سعياً وراء أسطورة خلاص لعالم أفضل وغد أكثر إشراقاً ونبلاً.

ولعلّ الفضاء العربي كان له عوناً في بلْوَرة تلك الأفكار التي ما كان جيفارا يكون دونها، وهو ما ينبغي أن نعتزّ به أيّما اعتزاز ونعيد قراءته، بما فيها انتقاداتنا السابقة للتوّجه الجيفاري، حتى وإن كان بعضها على صواب، ولكن القراءة الارتجاعية للتاريخ وللأفكار، وبشكل خاص ما أفرزته الممارسة، وما أثبتته الحياة، تعطي نكهة خاصة، لاسيّما إذا كانت المراجعة جريئة والنقد شجاعاً والهدف مخلصاً والقصد صميمياً.

وإذا كان جيفارا قد تمثل روح سيمون بوليفار (Simon-Bolivar)، فإن كاسترو تمثّل روح الزعيم الوطني الكبير خوسيه مارتيه (Jose Marti)، الذي كان شاعراً وكاتباً وخطيباً وصحافياً معروفاً، أسس الحزب الثوري الكوبي العام 1892 لمقاومة الاستعمار الإسباني وأعلن الاستقلال العام 1895 وأبدى بطولة نادرة، وقتل خلال المعارك دفاعاً عن كوبا من قبل المستعمرين والغزاة الإسبان.

لقد وجد جيفارا في المعارض المغربي المهدي بن بركة خير صديق له في حلمه الثوري مثلما وجد بن بركة في جيفارا نموذجاً للرومانسي الحالم المستعد للموت في أية لحظة وعلى أية أرض. إن بحثهما عن الحرية ومعنى الوجود الإنساني دفعهما للتقارب والتماهي أحياناً، في إطار الثورة التي ظلّت فناراً هادياً لهما. أراد بن بركة حلّ معادلة الداخل- الخارج، والعامل الذاتي بتلقيحه بالعامل الموضوعي، والبعد الوطني- العروبي- الإفريقي، بالبعد الكوني- الأممي، لاسيّما الأميركي اللاتيني، وكان جديراً بذلك فهو متمرّسٌ في النضال وكان أستاذاً للرياضيات من بين تلامذته الملك الحسن الثاني، واضطر للهروب إلى الجزائر وتنقّل بين عدد من العواصم والبلدان حاملاً قضية التحرر والتضامن الإنساني بين يديه من الجزائر إلى القاهرة إلى جنيف إلى روما إلى هافانا إلى أفريقيا، مثلما وجد في منظمة التضامن الآفروآسيوي التي تأسست العام 1957 منبراً يستطيع من خلاله أن يرفع صوت المغرب وأفريقيا وجميع قوى التحرر.

وكان جيفارا الوجه الآخر لبن بركة، فقد أراد الخروج من دائرة نضال

أميركا اللاتينية إلى جبهة القوى التحررية على النطاق العالمي، لاسيّما بالاستفادة من التحالف مع الدول الاشتراكية، ومع المناضلين ضد الرأسمالية في الغرب.

ومثل بن بركة أراد جيفارا منظمة التضامن الأفروآسيوي منصة ينطلق منها باسم أميركا اللاتينية، حيث اعتبرت كوبا منذ مؤتمر القاهرة العام 1961 عضواً مراقباً فيها، خصوصاً في إطار مناقشات قامت بها لجنة الاستعمار الجديد التي كان يترأسها المهدي بن بركة.

خلال التحضير لمؤتمر هافانا للقارات الثلاث: حصل الانقلاب على بن بيلا وأطيح به في 19 حزيران (يونيو) 1965، وبعدها أطيح بالزعيم الإندونيسي سوكارنو في ظل منبحة لليسار والشيوعيين، ثم شهدت اختفاء جيفارا في مهمة ثورية في الكونغو، وأخيراً اختفاء المهدي بن بركة قسرياً في باريس في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، ولم يظهر له أثر حتى الآن ولم يتم إجلاء مصيره.

كان بن بركة قد زار هافانا للتحضير للمؤتمر قبل شهر واحد من تاريخ اختفائه، أي في يوم 29 أيلول (سبتمبر) 1965 وبالرغم من أن المؤتمر انعقد لاحقاً في هافانا في شهر كانون الأول (ديسمبر) العام 1966، أي أنه تأجّل نحو عام وحضرته وفود يسارية من العالم العربي، لاسيّما من سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف)، إلّا أن رموزه الأساسية كانت قد غابت، وهو ما ترك فراغاً كبيراً.

لقد وجد المهدي بن بركة في صداقة جيفارا تكاملاً نضالياً، فهو الآخر كان يسعى للتضامن منذ أن اضطر للهروب من المغرب إلى الجزائر، وحكم عليه لاحقاً غيابياً بالإعدام، وهو المناضل الذي قاوم الاستعمار الفرنسي وأنشأ حزب الاستقلال وترأس مجلسه الاستشاري حتى العام 1959. وقاد المهدي بن بركة تحركاً واسعاً في الخارج، وكان أهم وأكبر عمل يقوم به هو التحضير لمؤتمر القارات الثلاث، الذي تربصت به الولايات المتحدة وحلفاؤها.

مثلما كان المناضلون يسعون للتضامن، فإن الأجهزة الأمنية المعادية في الدول الكبرى ودول أفريقيا وآسيا كانت متضامنة بعضها مع بعض، بل داعمة ومساندة ومشاركة لها وإنها- كما هي العادة- الأكثر انسجاماً مع نفسها، ويشهد على ذلك اجتماعات وزراء الداخلية في العالم العربي، ولم يكن أحد يتخيّل حينها، أن يختفي المهدي بن بركة بكل ثقله وجبروته وزعامته من مقهى ليب (Lib Cafe Paris) في قلب باريس، ويضيع له كل أثر منذ ذلك الحين وحتى الآن، بالرغم من وجود روايات عديدة، وهو ما أصاب جيفارا بصدمة كبيرة.

أُطلق على المهدي بن بركة «سفير الثورة المتجوّل»، لما لعبه من دور من خلال أسفاره ولقاءاته تحضيراً لمؤتمرات ومشاركة في حوارات، وأصبح سفيراً عالمياً، لم يعد مغربياً أو عربياً أو أفريقياً أو آسيوياً أو أميركياً لاتينياً، إنه مثل جيفارا خرج من محليته ليصبح كونياً، أممياً، إنسانياً، حالماً لتحرير العالم وإلغاء الظلم والاستغلال.

ولعلّ اختفاءه كان له تأثير رمزي ومعنوي سلبي على الحركة التحررية العالمية، التي فقدت بخسارته، رجلاً مجرّباً وإنساناً شجاعاً، ومناضلاً عابراً للقُطريات والقوميات والهويات المحلية، ليتحدث بلسان العالم الحر الرافض للعبودية والاستغلال، وقد يكون تفسير ذلك منطقياً بأن من أراد إخفاءه أو تغييب صوته، كان يدرك أية ضربة يمكن توجيهها ضد حركة التحرر الوطني الصاعدة آنذاك، حتى وإن اقتضى ذلك ارتكاب جريمة في وضح النهار وفي فرنسا، بل وفي قلب باريس بالذات، بلد الحريات والحقوق، فالمرتكب لم يكن يتورّع عما يمكن أن تجلب فعلته تلك من ردود فعل عالمية، لاسيّما وهي جريمة ضد الإنسانية وضد شخصية عالمية مرموقة.

كان انعقاد مؤتمر القارات الثلاث بناءً على اقتراح من المهدي بن بركة وبالتنسيق مع صديقه جيفارا، لاسيّما بعد الإعلان عن فصل كوبا من منظمة الدول الأميركية في شباط (فبراير) العام 1962، وهو ما أعلنه بن بركة قبيل اختطافه بأن المؤتمر القادم سينعقد في هافانا، وكان هذا يعني بحساب تلك

الأيام شيئاً كبيراً وتضامناً عالمياً وتحدّياً جريئاً، وجاء ذلك على لسانه أثناء المؤتمر الرابع للمنظمة الأفروآسيوية المنعقد في أكرا في أيار (مايو) 1965 وبدعم من الصين والاتحاد السوفييتي في حينها.

قيل لنا
الأشعري وأنا
إن للمهدي بن بركة
نُصباً بكوبا
أين؟
لم أدر حتى هنا
والآن
في أي مكان
من لاهابانا
أو ماتانزاس
أو باراديرو
حيث بحثت كثيراً
والعرق المتصبب مني
حارّا
وغزيراً
كالمطر الكوبيّ،
المدرار،
المتهاطل، طوفانا،
إعصاراً...

(الشاعر المغربي إدريس الملياني)

* * *

جيفارا والمباراة المصرية- الجزائرية!

لا يستهدف هذا العنوان الإثارة الصحفية لكن ما فيه من مفارقة تعطيه أكثر من دلالة وراهنية، ولاسيّما أن الحدث أساساً يمتد إلى أكثر من أربعة عقود ونيّف من الزمان، يوم صادف وجود جيفارا في الجزائر عند إجراء مباراة لكرة القدم بين الفريقين الجزائري والمصري.

في أحد تصريحاته لصحيفة فرنسية أعرب جيفارا عن ولعه بالجزائر بالقول: «هذا البلد ثوري، وحتى الفوضى فيه ثورية». ويبدو أن هذا الشغف كان متبادلاً بين جيفارا والشعب الجزائري، الذي أحبّ جيفارا وأخلص له وسمّى أحد أبرز شوارع العاصمة الجزائر باسمه، حيث تعتبر جادة جيفارا من الشوارع المهمة، والدليل على ذلك هو ما ينقله الدكتور جاد عبد الله حريكي في كتابه الموسوم «جيفارا والعرب» والصادر عن دار الفرات، العام 2007 (بمناسبة الذكرى الـ40 لرحيله) ونقلاً عن أحد الصحافيين: «إن الجمهور الجزائري الذي كان يحضر مباراة بكرة القدم بينه وبين المنتخب المصري، وهي مباراة ذات أهمية كبرى، خصوصاً وقد التأمت بعد تأسيس جمهورية الجزائر الديمقراطية، المستقلة حديثاً، هذا الجمهور هتف لتشي جيفارا، حيث لم يكترث أكثر من 20 ألف جزائري لمتابعة تلك المباراة المشوّقة والمثيرة، لاسيّما عندما حضر جيفارا الذي توجّهت إليه جميع الأنظار».

قلت في نفسي وأنا أتابع ما حصل من ردود فعل واحتدامات حادة لجماهير غاضبة من الطرفين: هذا اليوم لا يشبه البارحة!! وبخاطرة سريعة وأنا

أعدّ الحلقة الخامسة من انطباعات وقراءات التجربة الكوبية بعد 50 عاماً ومن خلال أميركا اللاتينية: أين هو جيفارا اليوم، «اليُعقْلِن» على أقل تقدير برمزيته ووهجه الثوري، جماهير مستفزّةً ويائسة ومشحونة، وادعاءات مفرطة بالانحياز إلى حد التعصب، واتهامات تصل إلى الإدانة، والأكثر من ذلك هناك من كان يصبّ الزيت على النار، ليبقى الفتيل مشتعلاً، لينسف جسر المودة والمحبة والتضامن بين شعبين شقيقين، كانت علاقاتهما هي الأسمى والأجمل والأنبل، منذ عقود من الزمان، يوم اجتمع عمالقة مثل عبد الناصر وأحمد بن بيلا وأرنستو تشي جيفارا، ولم تكن الكرة أو غيرها تفرّق ثواراً من أميركا اللاتينية وأفريقيا، فما بالك بين شعبين عربيين شقيقين.

لم يجرِ في تاريخ العلاقات الجزائرية- المصرية أن تمّ استدعاء سفراء وإجراء اتصالات بين وزراء على أعلى المستويات وعلى هذه الدرجة من الحساسية، والسبب هو مباراة لكرة القدم، بل الأكثر من ذلك حين انطلقت دعوات للقطيعة، في ظل احتدام عاطفة بدائية وتجييش إعلامي وغياب للعقل والعقلانية وتفاقم أزمة دبلوماسية، شملت السودان أيضاً، وتدخلت فيها جامعة الدول العربية ووساطات كثيرة دون أن تجدي نفعاً، لاسيّما بحدوث حالات شغب وعنف لا مبرر له على الإطلاق.

وبدت صورة «العروبة» باهتة في زمن أفل بريق الكثير من إشعاعها الذي كان يحمله رموز كبار ويتطلع إليه ثوريون كبار، وتمور جماهير واسعة مائزة ورائزة حين تهبّ لنصرة جماهير البلد الشقيق، والأكثر من ذلك فقد نكصت العروبة والأممية اللتان كانتا يوماً مساراً لطريق مشترك تمّ تخطيطه بين أحمد بن بيلا وجمال عبد الناصر وجيفارا.

لم ينصرف الجمهور الجزائري الذي حيّا جيفارا يوم لعبة كرة القدم قبل أربعة عقود ونيّف من الزمان عن التشجيع لمنتخبه، لكن الفارق كان كبيراً، لأنه كان ثمة ما يجمعه بالجمهور المصري المشجع أيضاً، وهو جامع مشترك ضمّ بين ظهرانيه أخلاق الرياضة والسياسة معاً وفي ملعب واحد، وكان الفائز بالطبع

هو العروبة والحرية وعلاقة أفريقيا والعرب بأميركا اللاتينية، في حين أن الجميع خسروا مباراة العام 2009 في القاهرة أو الخرطوم لاحقاً، التي هيمن عليها العداء والكراهية ومحاولات الكيد ولغة الاتهام كلٌ إلى الآخر، ومن ضمنهم السودان البلد المضيف الذي أفرز أكثر من 15 ألف جندي ورجال أمن وشرطة وإداريين بعدد أكبر لحماية اللاعبين ولمنع أعمال العنف والشغب، ولم يكن له مصلحة بفوز هذا الفريق أو ذاك، سوى استضافة الأشقاء وتوفير أسباب الراحة والنجاح واللعب النظيف للجميع، بمن فيهم المشاهدون ومحبّو لعبة كرة القدم، سواءً من أتى منهم من الخارج، من مصر والجزائر اللتين شجعتا وبأسعار متهاودة سفر المشجعين إلى الخرطوم، أو من أبناء السودان من محبي كرة القدم، ولعلّ عدد المشجعين من الخارج كان أكثر من 35 ألف مشجع.

الأحداث المأسوية المؤسفة تأكيد جديد على طغيان القُطرية والفئوية والنرجسية على حساب الوطنية والعروبة والإنسانية، لدرجة أن الحكمة قد غابت من رؤوس العديد ممن كان يمكنهم إطفاء النار، وإخماد الفتنة بين شعبين شقيقين، حيث كانت الرياضة على الدوام تصلح ما تفسده السياسة، أما في حالة مصر والجزائر، فإن «الرياضة» أساءت إلى ما قدمته السياسة من مساعدات وتضحيات وعلاقات بين البلدين والشعبين، منذ إعلان مصر تبنّيها للثورة الجزائرية في العام 1954 عند اندلاعها، حيث تحوّلت القاهرة إلى مركز جذب للثوار وعلاقاتهم، لاسيّما لجبهة التحرير الجزائرية وقياداتها، خصوصاً عند اختطاف الطائرة التي أقلّت خمسة من قيادات الثورة من جانب فرنسا.

جيفارا الذي شاهد جمهور المتفرجين في المباراة المصرية الجزائرية في الجزائر، كان حالماً وظل حلمه مستمراً، كان أمامه مثالان وتجربتان كبيرتان تعلّم منهما، ولعلّهما أثّرتا في حياته وتوجهاته لاحقاً، مثلما أثّر هو الآخر فيهما.

الأولى: هي نموذج وتجربة الثورة المصرية.

والثانية: هي نموذج وتجربة الثورة الجزائرية.

الأولى: ضد الفساد والظلم والاستغلال.

والثانية: ضد الاستعمار والاستعلاء ومحاولات تدمير الهوية.

لقد شاهد جيفارا الهوية العربية الجامعة، بشقيها الجزائري والمصري من خلال لعبة كرة القدم، في حين ضعفت وخفتت ألوان هويتنا العربية بعد أربعة عقود ونيّف من الزمان، وبدلاً من مواجهة الاستعمار والرأسمالية الاحتكارية وذيولهما، لاسيّما الصهيونية العالمية في عالمنا العربي وفي أفريقيا مثلما هو في أميركا اللاتينية وآسيا وشعوب البلدان النامية في كل مكان، فإذا بالاستعمار الجديد والنيوكولونيالية في عصر العولمة تسود وتهيمن، وتنقسم العائلة العربية إلى «عدوين» لدودين بسبب مباراة كرة القدم التي حملت معها أشد المشاعر سفلية وانحطاطاً، كأنها مقدمات حرب داحس والغبراء في زمن رديء.

هل نحن إزاء نستولوجيا الماضي (nostalgia)، واستعادات الزمن الجميل؟ أم أن البحث عن مخلّص جديد واستلهام أسماء ذات وزن مثل عبد الناصر وبن بيلا وجيفارا، أمر نفتقده، خصوصاً النهج الذي ساروا عليه، لدرجة جعلنا نشعر بالفَقْدِ، لاسيّما نهج التحدي!!

لعلّ ذلك كان هاجساً، وربما هيمن على عقلنا الباطن ونحن نستعيد شكل العلاقات الثورية- الإنسانية في لحظة تصدّع وتشظٍ، مستذكرين الصداقة المديدة التي صهرت هؤلاء الثوار، من أرض المليون شهيد، إلى أرض الكنانة ومعارك السويس والتصدي للعدوان الإسرائيلي، الأنجلو- فرنسي ومشاريع القوى الامبريالية بقيادة الولايات المتحدة، إلى أرض الأرجنتين وابنها البار الثائر الكوبي الذي وضع الثورة على كتفه وجاب بها العالم، من الكونغو إلى بوليفيا من خلال قاعدة ثورية في الجزائر وخطوط واتصالات في القاهرة، وأساسات قوية وقويمة في هافانا، وعلاقة وطيدة ونقدية بمعسكر اشتراكي أراد له جيفارا وجهاً إنسانياً جديداً ومشاركة في دفع ثمن الثورة وسلاحها واستحقاقاتها. لم يتابع جيفارا كرة القدم العربية فحسب، بل تابع شؤون الثورة مصعّداً من نبرته الانتقادية للحلفاء السوفييت، تلك التي قد لا تكون بمعزل عن مواقف وبعض

هموم عبد الناصر وبن بيلا، مثلما هي هموم السوفييت إزاء بعض مواقف البلدان النامية، لاسيّما تردد بعض قيادات حركات التحرر الوطني في السلطة، وربما قلقها إزاء المستقبل.

لقد تمكّن جيفارا من تطوير خطابه الثوري، وبعد مشاهدات لمدة ست سنوات خلص إلى باقة من الأفكار التي شكلت أهم ملامح الجيفارية أودعها في ثلاث خطب مهمة، ومن المفارقة أن هذه الخطب الثلاث كان قد ألقاها كلها في العالم العربي (باللغتين الفرنسية والإسبانية) وتحديداً في الجزائر ومصر؛ وهذه الخطابات هي «أميركا من على الشرفة الإفريقية والآسيوية» و«الاشتراكية والإنسان في كوبا» و«خطاب الجزائر» الذي أغضب السوفييت كما جرت الإشارة إليه، ووضع حداً فاصلاً بينه وبين المسؤوليات الحكومية الإدارية، متفرّغاً بعدها للثورة التي أراد إشعال أكثر من فيتنام أمام واشنطن، وأكثر من موقد لها في العالم. ولعلّ خطاباته وعلاقاته تلك جعلت من جيفارا كما عرفناه، الأممي الرومانسي الذي ظهر واختفى مثل شعاع، لكن ذكراه في العالم أجمع وفي العالم العربي على نحو خاص، ظلّت تحمل نكهة مستساغة، وها نحن نتذكّره في الزمن العصيب في مباراة كرة القدم بين الفريقين الجزائري والمصري، كأن خياله لا يزال يظهر بين الحين والحين!!

* * *

القبعات الخضر والصيد الثمين!

أخيراً تمكّن ذلك «الذئب» اللعين الذي ظل يترصّد جيفارا في حلّه وترحاله من الإمساك به، ثم افترسه على نحو شرس وفي ظرف ملتبس وغامض، حيث تعدّدت الروايات حول مقتله. وكانت السلطات البوليفية قد ألقت القبض على المفكر الفرنسي «الماركسي» ريجيس دوبريه (Régis Debray) في نيسان (أبريل) 1967 وسجنته وعذّبته، وحاولت أن تنتزع اعترافات منه حول مكان اختباء جيفارا، الذي اتهمته بالتعاون معه في حرب العصابات «الأنصار» التي قادها في بوليفيا على رأس عصبة ماركسية اختارت طريق الكفاح المسلح والعنف الثوري، معتقدة بأن إنزال الضربات بالعدو ومباغتته بالهجوم بفرق مسلحة، لاسيّما في الريف والأطراف يمكن أن يحقق الانتصار عليه، ويمهّد الطريق للوصول إلى العاصمة.

وبعد عمليات تعقّب معقدة وطويلة واكتشاف بعض الخيوط والحلقات الموصلة إلى مكان وجود جيفارا، وفي محاولة دعائية في إطار الحرب النفسية، «بشّر» الرئيس البوليفي الجنرال رونيه باريتوس (René Barrientos) «العالم» بأن عملية اصطياد جيفارا باتت وشيكة، وأنه واثق هذه المرّة من إلقاء القبض عليه حياً أو ميتاً، بعد أن كانت الإشاعات الرسمية قد «قتلته» عدّة مرات وأعلنت عن موته، لكنها هي نفسها عادت وكرّرت خبر ملاحقته ومحاصرته واحتمال إلقاء القبض عليه أو قتله.

ولعلّ واحداً من أسباب ثقة الرئيس باريتوس يعود إلى تخلّي بعض أنصار

جيفارا عنه ومحاولتهم كشف مكان وجوده، لاسيّما بعد أن خصصت السلطات البوليفية مبلغ 5000 (خمسة آلاف دولار) هديّة لمن يبلّغ عنه، وثانيهما وهو الأهم اعتماد السلطات البوليفية على قوات متخصصة في حرب العصابات، والسعي للتصدي للأنصار بوسائل مستحدثة وقديرة.

وكانت وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) (Pentagon) قد أنشأت في بنما (Panamá) مدرسة حربية العام 1949، وتألف طاقمها القيادي من مجموعة من الخبراء العسكريين برئاسة الجنرال بورتر، وهي مدرسة تأهيل وتدريب عالية الكفاءة، لتخريج ضباط متخصصين بفنون الحرب في أميركا اللاتينية، الشاسعة والبالغة الصعوبة. وقد أضيف إلى اختصاصات المدرسة الحربية وعلى المنهج التدريبي والتأهيلي قسم جديد يتعلق بتدريب الجنود على أصول ووسائل حروب الغوار (العصابات) Guerrilla war لمواجهة الثوار في أميركا اللاتينية، لاسيّما بعد انتصار الثورة الكوبية العام 1959 والخوف من امتدادها إلى دول القارة التي كانت أشبه بمرجلٍ يغلي، خصوصاً مع صعود نمط التفكير الجيفاري، والدعوة إلى تأسيس البؤر الثورية في الريف، للانتقال بالثورة من الأطراف إلى القلب، بالزحف على المدن، لاسيّما العواصم ومراكز التمدن.

لقد كانت مدرسة بنما نموذجاً للتعاون ما بين القوى المهيمنة على أميركا اللاتينية بقيادة الولايات المتحدة، والحكّام الدكتاتوريين لمواجهة المدّ الثوري، الذي تحرّك في مطلع الستينيات، وتضمن البرنامج التدريبي 40 أسبوعاً من التدريب المتنوّع في ظروف وعرة وقاسية وتشبه إلى حدود غير قليلة، أوضاع حروب العصابات وتحمّل المصاعب والظروف الديموغرافية والطبيعية القاسية. وأوكل إلى خريجي مدرسة بنما الذين تدربوا على أيدي ذوي «القبعات الخضر» مطاردة جيفارا ونصب الكمائن له للإيقاع به تمهيداً لتصفيته، حيث تصاعد نشاطهم في مطلع العام 1967.

كان الرئيس البوليفي بارينتوس قد صرّح للصحافيين بأنهم توصّلوا إلى محاصرة ريمون إحدى القيادات «المتمردة»، ولم يكن يعرف أنه أحد الأسماء

المستعارة التي كان يستخدمها جيفارا في تحركاته بين الفصائل الأنصارية، وأكّد أنه سيلقي القبض على «تشي». وتأتي بقية القصة حيث كان قد اعتقل اثنان من أنصار جيفارا واعترفا أثناء التحقيق معهما وتعذيبهما بأنهما يعرفان مكانه، وأن مرض الربو اشتد عليه، ثم قاما بإرشاد القوات البوليفية المتعاونة مع خريجي مدرسة بنما إلى طريق الوصول إليه، فدارت معركة طاحنة يوم 8 تشرين الأول (أكتوبر) 1967 في منطقة «لاهيغويرا» بالقرب من «فالدي غراندي» وقتل 6 من الأنصار إضافة إلى جيفارا نفسه الذي جرح وظل يعاني حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في التاسع من تشرين أول (أكتوبر) بعد أن اخترقت جسده تسع رصاصات ثم أحرق جثمانه.

وبغض النظر عن رواية أسره حيّاً أو جرحه وغيابه عن الوعي أو قتله بإطلاق الرصاص عليه في المعركة، ثم مفارقته الحياة، فإن روايات كثيرة وغامضة ظلّت تكتنف غيابه، بما فيها رواية تقول عن أسره وتعذيبه بعد إلقاء القبض عليه، لكن أخطر تلك الروايات وأكثرها ألماً بالنسبة للثوريين وأصحاب المبادئ والقيم الذين يكرّسون حياتهم من أجلها هو خيانة الأوساط المقرّبة إليه، وبخاصة من رفاقه أو من المتعاونين مع قوات الأنصار، أو من يدافع عنهم وأعني بذلك، بعض الفقراء أو الكادحين، ممن يتم الضغط عليهم.

ولعلّ ثمة حكايات كثيرة عن الاختراقات الأمنية يعرفها من عاش وعمل مع القوات الأنصارية، مثلما تعرفها القوى الفلسطينية المسلحة، وقوى البشمركة الكردية، وقوات الأنصار الشيوعية. وحسبي هنا أن أشير إلى الرواية التي تقول إن السلطات البوليفية ورّطت أحد الأنصار القدامى بجائزة مالية للإدلاء بمعلوماته عن جيفارا، تلك التي ضعف أمامها فسهّلت كشف مكانه ومن ثم تصفيته.

ولعلّ أجواءً سلبية كانت قد نشأت حتى داخل الأوساط الماركسية، لاسيّما الرسمية، التي وقفت ضد «إستراتيجيته» في الكفاح المسلح، بغض النظر عن صوابها أو عدم صوابها، فتسريب المعلومات عن الخصم أو المنافس. لكن

مهما كانت الحجج والادعاءات فإنه لا يخدم بالنتيجة إلا العدو المشترك، ومع كل ما قيل لا يوجد ما يؤكد أو ينفي، الدور الذي لعبته مثل تلك «الثرثرات» في الوصول إلى جيفارا واغتياله، لكن ظروف المنافسة وادعاء الأفضليات تدفع أحياناً إلى التصرف على نحو لا مسؤول في الكثير من الحركات الثورية والسرية بشكل خاص.

هكذا باعه بعض رفاقه إلى العدو لينتقم منه ويقتله بتلك السادية الوحشية، وهو الذي ظل يسخر من الموت، لذلك ظل الكثيرون يعتقدون بأن جيفارا لم يمت وأن الإعلان عن مصرعه، ليس سوى خدعة إمبريالية، وبقي أفراد عائلته: والده وشقيقه يبحثان عنه ويتوقعان أن الثوري الشجاع والمشرد الأبدي سوف يتواصل معهم في أية لحظة ليقول لهم: إنه انتقل إلى بقعة أخرى من العالم ليواصل نضاله من أجل إسعاد البشر والدفاع عن حقوقهم.

لقد قتلوا جيفارا عدة مرّات وأعلنوا ذلك للعالم، الأمر الذي لم يصدقه الكثيرون يوم إعلان مصرعه الحقيقي، وهو الذي كان في كل مرّة ينفض عنه غبار الموت ويُبعد قدر المستطاع أنياب الذئب الذي حاول أن يغرسها في لحمه، ويظهر بابتسامته وسخريته، أكثر قدرة على الصمود والمواصلة لحلمه الثوري الأزرق حتى وإن كان طيفاً؛ فالأخبار السيئة، لا يمكن التكتّم عليها!

بعد أسبوع على إعلان مصرع جيفارا قطع فيدل كاسترو الشك باليقين يوم أعلن في 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1967 بحزن شديد في خطاب دام ساعتين أنهم متأكدون من مقتله، وذلك بعد دراسة جميع الوثائق المتعلقة بمقتله، لاسيّما الصور وفقرات من يومياته التي نُشرت، والظروف التي رافقت اللحظات الأخيرة من مصرعه، وقال كاسترو بنبرة حزينة «تأكدنا للأسف أن تشي مات فعلاً».

* * *

جيفارا والحلم الغامض

بعد أربعة عقود ونيف من الزمان على اغتيال تشي جيفارا الطبيب الأرجنتيني والثوري الأميركي اللاتيني، الذي رافق كاسترو في مسيرة جبال السيرامايسترا الشهيرة وصولاً إلى العاصمة هافانا وانتصار الثورة على الديكتاتور باتيستا، والوزير الذي ترك وراءه الوزارة والوجاهة والأبهة، لينتقل إلى الأحراش والغابات ويعيش بين الفلاحين، ليستشهد في بوليفيا، أقول بعد هذا الفارق الزمني وغياب جيفارا المادي عن الوجود، يعود اسمه يتردد وكأنه يعيش بيننا، ونكاد نعرفه ونلتقي به، في الأسواق والحانات والساحات والجامعات، بين جوقة الأساتذة وعلماء السياسة ونخبة المثقفين والشحاذين وأطفال الملاجئ والشوارع وضحايا الحروب والنزاعات والجوع.

مثل الكثير من القضايا كان الانقسام قائماً بشأن بعض توجهات جيفارا، الفريق الأول تبنّى أطروحاته بالكامل وحاول تقليدها أو اقتفاء أثرها، حتى أن شبّاناً يافعين بعمر الورد شدّتهم حماستهم ونبلهم الإنساني إلى حتفهم وكان من بينهم صديقاي أزهر الجعفري وسامر مهدي وآخرون، فراحوا ضحية عدم تقدير الظروف في ظل الاختلافات وعدم توازن قوى واختلالات كما جرت الإشارة إلى ذلك، وكان هذا الفريق يمجّد حركة جيفارا ويؤيد مواقفه بشأن فكرة «البؤر الثورية» و«دور الفلاحين» في الثورة وإنضاج «العامل الذاتي».

أما الفريق الثاني فكان ينتقد الأداء وحرق المراحل، لاسيّما إهمال دور الحزب والمبالغة في دور العمل المسلح للبؤر الثورية، طالما لم تنضج الظروف

الموضوعية والذاتية بعد، ناهيكم عن اختلافات تتعلق بالموقف من المركز الأممي (موسكو). لكن هذا الفريق كان يبدي إعجابه به، وربما كان هناك فريق ثالث (حشد من الفريقين) بالرغم من بعض تحفظاته، إلّا أنه كان يعبّر عن إعجابه الشديد بحركة جيفارا، لاسيّما وهي تخوض الكفاح في الميدان، غاضّاً النظر أحياناً عن بعض السجالات النظرية وإن كان لا يهملها.

ويوم جاءنا خبر اغتياله أقمنا احتفالاً تأبينياً كبيراً في كلية التربية ببغداد، وعلّقنا اللافتات والصور ووقفنا دقيقة صمت حداداً على روح جيفارا؛ فقد اختلطت لدينا رمزية التضحية مع تضحية الرمز، حيث كان جيفارا حسب قول مكسيم غوركي (Maxim Gorky) بشأن أحد الثوريين الكبار، بأن نصف عقله يعيش في المستقبل، الأمر الذي جعله ينتقل من المكاتب الوثيرة إلى ساحات الكفاح في الكونغو وبوليفيا، وكان يخطط لتأسيس البؤر الثورية في بلدان أخرى.

كان ذلك اليوم الخريفي المشرق الجميل، كأنه يوم إلغاء الخلافات، فقد وحّدنا مقتل جيفارا، ولاسيّما أن اغتيال ذلك الشاب الذي لم يبلغ الأربعين (39عاماً) الوسيم، الشجاع، محبوب النساء، الحالم، كان عاصفة مأساوية، حيث بلغنا يومها أن جثته تمّ إخفاؤها ولم يُعثر عليها إلّا بعد نحو ثلاثين عاماً (1997) فنقلت إلى كوبا مع رفات رفاقه، وترقد اليوم في ضريح مهيب في مدينة سانتا كلارا المدينة التي قاد عملية تحريرها من سلطات باتيستا في 30 كانون الأول (ديسمبر) 1958 أي عشية الثورة التي انتصرت في الأول من كانون الثاني (يناير) 1959.

صورة جيفارا الشهيرة التي التقطها المصور ألبرتو كوردا (Alberto korda) تجوب العالم اليوم، وهي تعود مثل طائر العنقاء تحطّ على اللوحات والقمصان والمحفظات وعلب الموسيقى وتتصدر منشورات العروض المسرحية والأفلام وقصائد الشعر والروايات والمنحوتات والدراسات والأبحاث. إن صورة جيفارا اليوم تزيّن البيوت والمكاتب والقاعات والساحات، والأهم من ذلك أنها تسكن

في قلوب النساء والرجال، ولاسيّما الشباب منهم من ألوان وأجناس وأمم وشعوب وقوميات ولغات وأديان شتى.

الصورة ليست للتسويق أو «الماركتينغ» (Marketing) كما يتمّ التداول، بل تختزل كل الأشياء الآن، فهي لرمز صنع نفسه وصنعته الأحداث، لبطولة ورومانسية ومثالية نادرة، لذلك الحلم الغامض الذي ظلّ يسكنه، فترك الوزارة وكان يردد ما كان إنجلز يكتبه: «السعادة في النضال والتعاسة في الخنوع». إن صورة جيفارا ليست مدفوعة الثمن، إنها ملك مشاع لكل من يرغب للتمثل به أو إحياء ذكراه.

وحيث تمر اليوم الذكرى الثانية والثمانين لميلاده، فقد ولد في 14 حزيران (يونيو) 1928 (في روزاريو الأرجنتين)، فإن حياته تبدو أكثر أهمية وآراءه أكثر إثارة وأحلامه أكثر طوباوية، لكنها مع كل ذلك لا تزال حيّة، تذكّرنا بالمآسي التي نعيشها يومياً، وكأنها تردّد «تبّاً لهذه الحياة التعيسة، لنتحدَّ الموت» من أجل الحرية والكرامة والعدالة والمساواة، من أجل خير ورفاه البشرية ضد الاستبداد والاستغلال والظلم والعدوان، فليس ثمة حنين (نستالوجيا) إلى الماضي، بل إن الحاضر هو أكثر بؤساً من الماضي حيث الحروب والحصارات والعدوان وهيمنة الغطرسة والاستعلاء، والانكسار والنكوص والألم.

لقد بالغ بعض المثقفين «الثوريين» بدور جيفارا لكنهم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي انتقلوا إلى الصف الآخر، الذي بالغ بالتبشير بموت الاشتراكية وحلمها الطوباوي الغامض، بل أخذ بعضهم يبشر بعصر الهيمنة الليبرالية الجديدة، والتي لا يجمعها جامع مع قيم الليبرالية الحقيقية التي تعلي من شأن الفرد ومن الحرية واحترام حقوق الإنسان، ومن دور السوق كعامل مؤثر في التطور.

وإذا كانت الاشتراكية قد سقطت أنظمةً وتعرضت للاهتزاز أفكاراً، فهي بحاجة إلى مراجعة انتقادية جادة لمساراتها الفكرية والعملية، لاسيّما الموقف

من الدولة وتطورها وديكتاتورية البروليتاريا ودور الطليعة «الحزب» ونظرية التأميم الشامل والموقف من الحريات العامة والخاصة والتطور السلمي والتراكم التدرّجي وقناعة الرأي العام في بناء الاشتراكية، إذ لا يمكن تحقيق ذلك من دون الديمقراطية. وكان لينين يردِّد أنَّ من يعتقد أنه يمكن بناء الاشتراكية بطريق غير الديمقراطية، سيتوصل إلى استنتاجات خرقاء ورجعية سواءً بمعناها الاقتصادي أو السياسي، كما ينبغي الاهتمام بدور الفرد والعامل النفسي، والموقف من الأقليات وحقوقها وحقوق المرأة والموقف من الدين والبعد القومي.

وإذا كان هذا أمر الاشتراكية، فالرأسمالية في وضع لا تُحسد عليه، فقد دفعت أكثر من مليار و300 ألف إنسان إلى حافة الفقر حيث يعيش هؤلاء بأجور متدنية لا تزيد على دولار واحد في اليوم، وهناك نحو مليار إنسان يعانون من الجوع ونحو مليارين يعيشون في ظروف قاسية تقترب من خط الفقر، بل إن أسئلة كبيرة بحاجة إلى إجابات وتحديد مسؤوليات عن تدهور البيئة والاحتباس الحراري وذوبان جليد سطحي القطبين الشمالي والجنوبي وتصحّر الغابات، إضافة إلى شحّ الغذاء وارتفاع أسعاره، وتفشي الأمية والتخلف التي يعاني منها مئات الملايين، في حين يغرق بالتخمة عدد محدود من الناس على حساب الغالبية الساحقة من سكان المعمورة.

إذا كان اسم جيفارا يرتفع اليوم في سماء القارة الأميركية الجنوبية بحلول ربيع جديد للديمقراطيات، في أعقاب الديكتاتوريات العسكرية والحكومات الموالية لواشنطن باسم الليبرالية الجديدة، فإن شعوب هذه البلدان بدأت تنحاز بعد كوبا إلى فنزويلا، الأمر الذي يحتاج إلى وقفة أخرى لمراجعة النواقص والثغرات الجدّية التي حملتها التجربة بما يعزز التوجه الديمقراطي والنموذج الاشتراكي القائم على الحرية والعدالة والرفاه، بالرغم من الحصار الجائر الذي عاشته كوبا ما يقارب خمسة عقود من الزمان.

لقد ظلّ صدى كلمات جيفارا يتردد: «لا يهمّني متى وأين سأموت؟ لكن يهمّني أن يبقى الثوار منتصبين، يملأون الأرض ضجيجاً، كي لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين».

ترافق موت جيفارا مع صعود حركة شعبية طلابية وعمالية وثقافية في العراق توّجت في خريف العام 1967 لاسيّما بعد عدوان حزيران (يونيو) ولعلّ خير من رصد تلك الإرهاصات الفكرية وترجمتها عملياً فاضل العزاوي في كتابه القيّم «الروح الحيّة- جيل الستينيات».

كان موت جيفارا يمثل نوعاً من أنواع الرمزية «فلن يكون لدينا ما نحيا من أجله، إن لم نكن على استعداد أن نموت من أجله». هذه العبارات أعادتني إلى أربعة عقود ونيف من الزمان، خال بعضهم أنها لن تعود، لكنها محفورة في الذاكرة ومنثورة في التراب وكأن اليوم متواصل مع الأمس.

ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟
قولي لي، كيف أستطيع أن أحبّك إذا لم أكن حرّاً!؟
كيف أهبك قلبي إذا لم يكن مُلكي؟

(الشاعر الإسباني لوركا)

* * *

أرنستو همنغواي: حانة بودغيتا دل ميديو!

أعادني الصديق صباح المندلاوي في مؤلفه الجديد عن الشاعر الكبير الجواهري «الليالي والكتب» الصادر في بغداد عام 2009، إلى نظرة الجواهري إلى الكثير من زملائه المبدعين بينهم بيكاسو (Pablo Picasso) وبابلو نيرودا (Pablo Neruda) وهمنغواي (Ernest Hemingway)، ولوركا (Federico Garcia Lorca) وماركيز (Gabriel José Garcia Marquez) وغيرهم، وهو ما كنت قد أشرت إليه في كتابي «الجواهري- جدل الشعر والحياة» الصادر في بيروت عن دار الآداب، ط2، 2009، ولعلّ بعض الحوارات التي نشرتها مع الجواهري تتضمن وقفات مهمة لبعض علاقاته بالمبدعين عرباً أو أجانب. وهو ما يذكره الجواهري أيضاً في مذكراته «ذكرياتي» في جزءين، دمشق، دار الرافدين، 1988، لاسيّما في علاقته بالفنان الإسباني- الفرنسي بيكاسو الذي شاركه «المقصورة» ذاتها خلال رحلته بالقطار عائداً من وارسو إلى باريس بعد حضوره مؤتمر السلام العالمي العام 1949 حيث شاركت فيه نخبة من كبار المثقفين والمفكرين، يقول الجواهري: «استلقيت أنا في الطابق الأسفل من المقصورة (المقصود بالمقصورة غرفة تحتوي على سريرين، سرير علوي وآخر سفلي) وقد أخذ بيكاسو الطابق الأعلى أي «السرير العلوي»، ثم علمت أنه يود النوم في السرير السفلي، وهو ما حدثتني به السكرتيرة؛ لأنه قصير القامة وأنا طويل

القامة وبإمكاني الصعود إلى الأعلى، وقد يتعذر عليه القيام بذلك، في حين كنت أقوم بها بسهولة، وضحكنا لهذا الالتباس والمفارقة من خلال الكلمات القليلة التي تحدثنا بها بالإنجليزية البسيطة، وطلب مني بيكاسو أن نأخذ صورة تذكارية فقلت له: هذا شرف لي».

ويسرد الجواهري الكثير من إعجابه بإبداع الفنان الكبير بيكاسو، ويقارن ما يتمتع به المبدع في فرنسا والغرب بشكل عام، وفي بلادنا العربية، لاسيّما العراق بشكل خاص، ولعلّ ذلك إحدى المفارقات المريرة التي غالباً ما يتوقف عندها الجواهري، وهو ما يمكن قراءته من خلال تقييمه لأرنستو همنغواي، وحيرته بخصوص مقتله الغامض.

ويعلق الجواهري على كتاب مذكرات الشاعر التشيلي بابلو نيرودا «أشهد أنني قد عشت» الذي تضمن سرداً غنياً وجميلاً لحياة مفعمة بالحيوية، تلك التي أحبّها الجواهري بكل ما فيها من جنون وعبقرية، وكان قد قال مع نفسه ذات يوم: وهل لي أن أكتب مذكرات بعدها، وهو ما أوردته في حواراتي المنشورة معه.

في حانة بودغيتا دل ميديو وأنا أحتسي كأس الموهيتو Mojito اللذيذ، استعدت حواري مع الجواهري (الموهيتو هو نوع من الروم Rum، مضافاً إليه الثلج والليمون والنعناع) عن كوبا وهمنغواي الذي كانت شخصيته محيّرة للجواهري، لاسيّما وهو الذي اكتسب شهرة كبيرة ومالاً عظيماً (ويذكر الجواهري أن همنغواي كان يطلب من الناشرين 750 ألف دولار للاتفاق على طبع رواياته) وعاش مرفّهاً في جزيرة حالمة وبأوضاع متميزة (بعد حرمان)، وهو الأميركي الذي كان صديقاً لفيدل كاسترو، بالرغم من العداوة المتصاعدة بين الولايات المتحدة وكوبا بعد انتصار الثورة في مطلع العام 1959.

لقد ظلت ظروف مقتل همنغواي غامضة وملتبسة، وهي التي جعلت الجواهري يتساءل: «كيف يستطيع من هو في هذه البحبوحة أن يقدم على الانتحار؟» فقد قيل إنه توفي بانطلاق رصاصة من بندقيته أردته قتيلاً في ظروف

غامضة في 2 تموز (يوليو) 1961، وهو الذي ولد لأب طبيب في أواخر العام 1899 في مدينة صغيرة اسمها أوك بارك Oak Park، غير بعيدة عن شيكاغو، ونشأ في أسرة محافظة، لكنه أبدى ميلاً إلى التمرد منذ نعومة أظفاره. وبالرغم من أنه كان تلميذاً نابهاً فإنه كان كثير الفرار من المدرسة، ومنذ وقت مبكر دخل عالم الصحافة والكتابة، ولم يكمل دراسته، لاسيّما عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، حيث توجه همنغواي إلى ساحات القتال.

لعلّ هذا الكتاب الممتع يحظى بامتياز آخر لأن صاحبه الفنان صباح المندلاوي هو صهر الجواهري، زوج ابنته الدكتورة خيال، الذي عاشه معه ورافقه في السنوات الأخيرة من حياته، باذلاً كل الصبر والجهد، لتدوين ما يصدر عن الجواهري من ملاحظات وتعليقات، لاسيّما بخصوص كتّاب ومبدعين في فترة لم يسلّط عليها الضوء بما فيه الكفاية، حيث كان المؤلف أقرب إلى حامل كاميرا لتصوير حياة الجواهري، وما كان يختلج في ذهنه من آراء وأفكار يعبّر عنها بطريقته الخاصة، وهو يدلف بأيامه الأخيرة نحو تلك الحقيقة المطلقة، التي ظل يزوغ عنها ويراوغها ويتحايل عليها، حيث كان بينه وبين الموت- ذلك الذئب اللعين الذي ظلّ يترصده منذ عقود من الزمان وبأنيابه دم الأخوة والأحبة والأصحاب- صراع مرير وهدنات طويلة، وكرٌّ وفرٌّ وإصابات لم يسلم منها الجواهري، لاسيّما عندما رحلت رفيقة عمره أمّونة «أم نجاح» وهو القائل:

«يظلُ المرءُ مهما أدركتهُ يدُ الأيام طوع يد المصيبُ»

فقد كان مصابه بوفاة الحبيبة نائبة كبيرة ألمّت به وتركت فيه جرحاً لم يندمل، ولكن الجواهري العنيد لم يستسلم بسهولة، إلى أن اقتنع أن الصراع العبثي لا بدّ أن يتوقف، فعقد صداقة مع الموت، بحيث يكف كل منهما عن مطاردة الآخر، ليرحل بعدها الجواهري بهدوء كامل وهو الذي عاش في وسط العاصفة.

ذاكرة الجواهري كما يحدثنا المندلاوي، تروي قصة ذلك الصحافي الهاوي، الذي تقدّم للعمل في إحدى الصحف فاشترط عليه رئيس التحرير أن يجري لقاءً مع الكاتب الشهير همنغواي شرطاً لاستمراره في العمل، وبعد سلسلة اتصالات وتنقلات، يحطّ الصحافي في كوبا حيث يقيم همنغواي، ويخبره برغبته في اللقاء وشروط وحيثيات عمله، ويلتقي همنغواي والصحافي في حانة بودغيتا دل ميديو. وبعد احتساء كاسين من الموهيبا يشعر همنغواي بالتعاطف مع الصحافي ويقترح عليه العمل معه كسكرتير بظروف أفضل. يستبد الفرح والسرور- فضلاً عن المفاجأة- بالصحافي «هوتشز»، ويبدأ على الفور عمله سكرتيراً لهمنغواي، بدلاً من إجراء مقابلة معه، وبعد رفقة ومعايشة لسنوات يطالعنا هوتشز بكتاب قيّم ومثير عن تفاصيل شيقة ومثيرة لحياة همنغواي بعنوان «بابا همنغواي».

وخلال زيارتي لهافانا بحثت عن أثر همنغواي وسبب اختياره كوبا ومكوثه فيها، فزرت فيلّته لافيهيا «مزرعة همنغواي» في منطقة سان فرانسيسكو دي باولا ، وهي ضاحية قريبة من العاصمة.

المزرعة مدهشة إلى حد كبير، وفيها أنواع الزهور والأشجار التي جلبها من جميع أنحاء العالم، وهو ما كان يشغل الجواهري كثيراً، لاسيّما «المركب الصغير» الذي كان يصطاد فيه السمك في عرض البحر، وكانت تلك إحدى هواياته. ولايزال هذا المركب الأنيق موجوداً في مزرعته التي تحتوي على صالات وغرفة ضيوف وغرفة طعام ومناظير وأنواع من البنادق وصفارات، إضافة إلى سينما صغيرة وأفلام وصور ولوحات وخمور وكؤوس متنوعة.

ذكرتني الفيلّا بزيارتي للمنزل الجميل (Chascona) على ساحل جزيرة نيغرا الذي يبعد نحو 100 كيلومتر عن سنتياغو في تشيلي لبابلو نيرودا، الذي كان يحتوي هو الآخر على أنواع الخمور والزجاجات والكؤوس، إضافة إلى إسطبل للخيول، وفيه حصان بكل متطلباته، مصنوع بمهارة ودقة كعمل نحتي وفني جميل، مع أن نيرودا لا يجيد ركوب الخيل، مثلما لا يجيد السباحة، بالرغم

من أن منزله مطل على البحر مباشرة، ولعلّ أجمل ما فيه هو غرفة الحبيبة ماتيلدا التي تجلس فوق البحر وكأنه أراد أن يستمع إلى موسيقاه المختلطة بأمواج البحر، وذلك حين يداعب النوم عيونه، وللبحر وهمنغواي والجواهري قصة أخرى.

أينما وطئت قدماك
أمامك بحر
من الدُّريات
وخلفك بحر
من الحوريّات
الحسان
يغنين يرقصن
بوليرو.. ومامبو.. وتشاتشا
ورومبا.. وسلسا.. وصون
ويعشقن صفو الحياة
الجميلة، كأساً
وحباً
وأنساً
ويعشقهن صحبُ
يدخّن روميو وجولييت
سيجارهن الأثير
رحيق اللسان
الحفيّ الحنون

(الشاعر المغربي إدريس الملياني)

همنغواي والجواهري:
الشيخان والبحر!

الجواهري المأسور بالبحر والنهر خلدهما بقصائد خالدة «يا دجلة الخير..» و«سجى البحر»، الأولى كتبها في براغ والثانية في أثينا وقصائد أخرى، وكانت إحدى أمنيات حياته أن تكون له شقة على البحر، والتي يستذكر فيها أيامه الخوالي، عندما كان بيته على نهر دجلة، ويتذكّر شط الفرات في الكوفة، يندهش، بل لا يصدق الأمر عندما يعرف أن همنغواي، وهو يعيش بكل هذه العيشة الأبهة يفارق الحياة منتحراً، (تموز/يوليو/1899- تموز/يوليو/1961) أي أنه غادر الحياة في الشهر نفسه الذي ولد فيه، ولعلّ تلك مفارقة أخرى ما بين الجواهري وهمنغواي، فقد ولد الجواهري في 27 تموز (يوليو) العام 1900 حسب أكثر التقديرات رجاحة بشأن ولادته، وتوفي في اليوم نفسه من العام 1997، أي أن كليهما ولد وتوفي في شهر تموز (يوليو).

وإذا كان ثمة ما يجمع بين الجواهري وهمنغواي، فثمة ما يفرّق بينهما، وإذا كان كلاهما يعشق النساء، إلّا أن همنغواي كان ما أن يتعرّف على امرأة حتى يسارع بطلب الزواج منها! يقول هو عن نفسه: «تلك هي طبيعتي مع النساء، لا أعرف من أين جاءت إليّ..؟ عندما أحبُ أحب أن أتزوّج فوراً، فلا مكان لأوقات الغزل وساعات الانتظار». ومع أن الجواهري تزوّج مرتين، فبعد وفاة أم فرات في العام 1938، تزوج شقيقتها أم نجاح «أمّونة» التي رافقته حتى العام 1992، حيث توفيت في لندن، إلّا أنه يقول عن نفسه إنه لم يعرف طعم

الحب، أو يتذوق طعم المرأة الحقيقي إلّا وهو على مشارف الخمسين، وذلك يوم أحب أنيتا الكورسيكية من بنات السين في باريس العام 1949، ونظم فيها خمس قصائد، كما يقول في حواراته المنشورة في كتاب «الجواهري- جدل الشعر والحياة»، وفيما بعد علاقته مع بارنيا وماروشكا التشيكية.

كان همنغواي يصطاد السمك ولكنه يحبُّ تناوله في مطعم لاتراسا الشهير، حيث تنزل شرفته إلى البحر مباشرة في خليج صغير يرتبط بعمق البحر، في ضاحية على مشارف هافانا حيث الموقع الاستراتيجي، وبالقرب من المطعم اليوم ينتصب تمثاله على الساحل، بمحاذاة البحر، ومثلما في حانته الشهيرة وفي مزرعته فقد كان همنغواي يطبع المكان بطابعه، فقد اتسمت حانة بودغيتا دل ميديو بالبساطة والشعبية، وبالرغم من ذلك فقد أصبحت محجّاً يتسابق إلى زيارتها آلاف المشاهير ممن يزورون هافانا، حيث يبادر القائمون عليها بوضع صورهم وأسمائهم، على جدرانها المزدحمة بالأسماء والتواريخ لزيارات من كل أصقاع الدنيا. لقد كان «الشقي» همنغواي يعشق النساء والخمور والملذّات بجميع أنواعها، ويستهويه السفر بلا حدود، وهناك شيء من فوضاه الأثيرة.

وبالرغم من أنه عاش في الوقت الضائع كما يقال، حيث كان قد أصيب بـ237 جرحاً وأجريت له 12 عملية، ومكث في المستشفى في ميلانو نحو 6 أشهر، وقد حدث ذلك يوم كان في الجبهة الإيطالية عندما عمل مراسلاً حربياً في الحرب العالمية الأولى، فقد تشبث لاحقاً بالحياة على نحو شديد وخاض غمارها مواصلاً مغامراته التي بدأها منذ صباه، بكل ما في ذلك من حيوية وعنفوان، وهو ما ترك حيرةً واستفهاماً كبيرين حول موته.

لقد وصف همنغواي الموت الذي تعرّض له في الحرب العالمية الأولى عندما قال: «لقد متُّ في تلك اللحظة، أحسست روحي تخرج من جسدي. افهموا هذا الإحساس كما تريدون. شعرت بأن روحي تنسلّ من جسدي كما ينتزع منديل حريري من جيب سترة، لكن هذا الشعور تبدد فجأة وعاد إليّ شيء أنعش جسدي من جديد، وعرفت أنني لم أمت». وقد استوحى همنغواي من

هذه الحادثة فيما بعد قصته الشهيرة «وداعاً للسلاح»، وكان قد وصف الحرب باعتبارها أخطر قضية في حياة الإنسان وأصعب مشكلة للعقل البشري.. إنها الشيء الرهيب في حياة البشر، ولا نستطيع تناولها إلا إذا قدّرنا خطورتها في صدق وحرارة.

كان أول ما نشره همنغواي وهو ينتقل من الصحافة التي أحبّها، لأنها تعنى بالواقع، إلى الرواية التي تعنى بالمتخيّل هو قصة: لا تزال الشمس تشرق العام 1926، وهي تصوير حزين للحياة القلقة المتشردة، لاسيّما بعد الحرب العالمية الأولى، وبخاصة للأميركان في أوروبا. وبمجرد صدور الكتاب أصبح همنغواي مشهوراً، حيث هيمن على نفوس القراء، لاسيّما من الشباب، شعور بأن ثمة من يُحسن التعبير عن مشاعرهم.

التحق همنغواي بالجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية، فترك كل شيء، وكان همّه الأساسي هو القضاء على الفاشية. وكما يقول، فإنه لم يكتفِ بالقتال، بل اشترى سيارة إسعاف وأهداها إلى الثوار. وكانت حصيلة مغامرته الإسبانية «قصة موت بعد الظهر»!

وقد التقى همنغواي في أسبانيا بالكاتب الفرنسي المعروف أندريه مالرو (André Malraux) وارتبط معه بصداقة مديدة، وقرّرا الاشتراك في مشروع أدبي هو الكتابة عن الثورة واقتسما المراحل، حيث ألف مارلو كتاب الأمل في العام 1938 في حين أصدر همنغواي روايته الشهيرة «لمن تقرع الأجراس» (Whom the bell tolls) عام 1940. وقد تحوّلت روايات وقصص همنغواي إلى أفلام مثيرة غزت الشاشة وتركت انطباعات إيجابية على قدرته في تصوير حياة الحرب وتفاصيلها وآلامها. وهو ما قدّر لي أن أشاهده في أواخر الخمسينيات وبدايات الستينيات.

في عام 1946 تزوّج للمرّة الثالثة وقرّر الرحيل إلى كوبا للعيش فيها نهائياً، حيث سكن في فيلّا شهيرة تبعد نحو 20 كيلومتراً عن هافانا واسمها كما ذكرنا «لافيهيا» وهي عبارة عن مزرعة فيها أعداد من الحيوانات الأليفة. ونشر في

العام 1950 روايته «عبر النهر وتحت الشجر» (Across the river and under the trees)، ثم روايته الرائعة «الشيخ والبحر» العام 1952 التي في إثرها نال جائزة نوبل العام 1954، وقد اعتبر الناقد روجيه غرورينر (Roger Gruner) أن همنغواي كتب تلك الرواية «الشيخ والبحر» (The old man and the sea) متأثراً بالكاتب ملفيل وروايته «موبي ديك» (Moby Dick) وذلك كما ورد في كتاب لصدقي إسماعيل بعنوان «نبلاء الإنسانية» الصادر عن دار رياض نجيب الريس، بيروت، 2008.

وإذا كانت حياة همنغواي عرفت كل هذه المنعرجات والمغامرات والتحديات، فإن عزاءه كان في التأمل والعزلة والتفكير، وهو يتقدم في مرحلة الكهولة، إلى أن أنهى حياته بضربة واحدة من قدر غامض، لعلّه كان مثل غموض بعض شخصياته وربما شخصيته الغامضة هو بالذات أيضاً.

يشير الكاتب صباح المندلاوي على لسان الجواهري إلى تفاصيل غالباً ما كان الجواهري يردّدها بشأن رفض بعض الناشرين نشر كتب بعض المبدعين، وإذا بهم يتنافسون عليهم بعد أن يذيع صيتهم، وكيف أنه تمّ رفض بعض مخطوطات همنغواي، الذي عاش الفاقة والعوز والجوع، حتى وصل الأمر في إحدى المرات أن يجمع له بعض العاملين في تلك البارات مبلغاً من المال لغرض مساعدته وانتشاله، وذلك قبل حصوله على جائزة نوبل العام 1954، حيث انفتحت أمامه أبواب الدنيا، وهو ما ذكّرني بالشاعر المبدع عبد الأمير الحصيري، الذي عاش حياة متشردة، نؤاسية، متصعلكة، وكان في كل مقهى أو بار هناك من يقوم «بواجبه» بدفع متطلباته، ولعلّ الفارق الوحيد مع همنغواي، أنه مات منتحراً ولكن على طريقته، معوزاً ووحيداً ومحروماً من كل شيء بما في ذلك النساء، إلا أنه كان مُتخماً بالخمرّة صديقته الوحيدة وملاذه الأخير، في حين انتحر همنغواي وهو يرفل بكل أنواع الامتيازات والترف.

لقد مزج همنغواي تجربته الأدبية بتجربته الحياتية لدرجة التماهي أحياناً، حيث كانت حياته حافلة بالأحداث والمغامرات والخفايا وإن لم يجد إلى ذلك

سبيلاً فكان يخترعها أحياناً ويبدع في تخيّلها، وقد قال عن نفسه: لم أفهم حياتي بعد، لأنني أخشى الالتفات إلى الوراء.

صدق هادي العلوي عندما أطلق على صباح المندلاوي «صباح النجيب» وهو ما كنت أشاطره الرأي فيه منذ أن اقترن المندلاوي بكريمة الجواهري خيال، حتى أصبح عين الجواهري التي يقرأ بها، فالتزمه وحرص على تلبية جميع متطلباته، لاسيّما خلال فترة مرضه، وكان يجول معه في روائع وأمهات الكتب، وما يحب وما يرغب أبو فرات، وهو ما يكشف عنه في كتابه، الذي أحسن صنعاً بإصداره.

الشيخان همنغواي والجواهري، استلهما من البحر الشيء الكثير، ففيه عالم الأسرار والغموض واللانهايات والمتعة في الاكتشاف الأبدي.

* * *

نزيف بصمت!

تأسست أول جمعية للصداقة الفلسطينية- الكوبية العام 1981 في بيروت، وكان رئيسها محمد أبو ميزر (أبو حاتم)، وبعد العام 1988 تمّ «ترشيد» الجمعية وهيكلتها مجدداً من قبل الرئيس الراحل ياسر عرفات، حيث تم تعيين صلاح صلاح رئيساً لها بعد أن كان أميناً للسر، وهو لا يزال رئيسها حتى الآن، في حين أصبح عثمان أبو غربية أميناً للسر. ولقد عُقد لقاء بين الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (أبو عمار) وفيدل كاسترو، وآخر بين الدكتور جورج حبش وكاسترو، وكانت اللقاءات حميمية، لدرجة أنه في أحدها أخذهم الزعيم الكوبي إلى حقل رماية (وضمّت ذلك صورة كاسترو- حبش- صلاح صلاح).

كما شارك صلاح صلاح في عدد من اللقاءات العربية- الفلسطينية- الكوبية في الثمانينيات والتسعينيات وما بعدهما، ومنها ما تمّ في إطار مؤتمر الشعب العربي برئاسة عمر الحامدي، وبمشاركة صلاح صلاح وأحمد السويسي وإنعام رعد، وفي زيارة أخرى للجبهة الشعبية كان رئيس الوفد أبوعلي مصطفى.

ويُعتبر صلاح صلاح إحدى الشخصيات الفلسطينية الأكثر قرباً من الأجواء الكوبية، حيث درس هناك واستمرت علاقته طيلة العقود الثلاثة الماضية، وحرص على تمثيل فلسطين بغض النظر عن موقعه القيادي السابق في الجبهة الشعبية، ومن خلاله تعرّفه على أميركا اللاتينية ارتبط بصداقات واسعة وفضاء شاسع مع المجتمع المدني، وبخاصة خلال العقد الماضي.

يقول صلاح صلاح إنه التقى بكاسترو ثلاث مرات، في الأولى عندما كانوا

في بيت الضيافة وجاءهم من يخبرهم بلقاء أحد المسؤولين، فوجدوا كاسترو أمامهم، وكان الحديث غير بروتوكولي. وفي الثانية في مؤتمر الحزب (أواسط الثمانينيات)، والثالثة في المهرجان العالمي للصداقة مع كوبا في التسعينيات حيث ألقى في الجلسة الختامية كلمة فلسطين، وهناك التقى كاسترو حيث دعاه إلى قصر الضيافة والتقاه أكثر من مرّة.

ولعلّ واحداً من أسباب صمود كوبا واجتراحها الحرمانات والعذابات هو شخص كاسترو، الذي كان يتحسس نبض الناس ويعيش همومهم ويخاطبهم بلغتهم، ويتعامل ببساطة وشعبية معهم، فضلاً عن مصارحتهم بحجم المصاعب والتبعات، الأمر الذي كان فيه تخفيف للكثير من معاناتهم، بالرغم من أن الحصار الأميركي وصل إلى حدود لا تطاق.

وقد كان كاسترو بالرغم من مكانته الريادية ودوره الفكري والسياسي وقدراته التنظيمية الكبيرة في الثورة والدولة- حريصاً على إظهار رمزية جيفارا وكفاحه، وظل على هذا الوفاء طيلة العقود الماضية، من دون أن تتضخم لديه «الأنا» فيشطب أقرب المقربين إليه، حتى وإن كان هو الأول بامتياز.

وكان أقرب إلى رومانسية وراديكالية حيش منه إلى الوسطية والبراغماتية التي يتسم بها بعض قيادات الحركة الثورية الفلسطينية والعربية؛ وعندما اندلعت المشكلات الفلسطينية-الفلسطينية والموقف من التسوية، جاء وزير المواصلات الكوبي (من أصل لبناني) وبقي نحو شهر في بيروت في محاولة لحل الخلاف داخل فتح (1983). وكان نايف حواتمة هو الآخر قد التقى كاسترو كما ذكر ممدوح نوفل، وقد أقامت الجبهة الديمقراطية علاقات وطيدة مع كوبا بما فيها تبادل الزيارات، حيث فتحت كوبا ذراعيها لاستقبال أعداد من كوادر الجبهة الديمقراطية للتدريب والدراسة، وقد تقلّص العدد، لاسيّما بعد تفاقم الأزمة الاقتصادية الكوبية في مطلع التسعينيات.

وكان كاسترو يردد دائماً: «صحيح أننا وحدنا، لكننا دائما في القمة»،

وكانت فلسطين في قلب كاسترو ورأسه، وتعتبر كوبا الدولة الأكثر قرباً إلى فلسطين التي كانت تصوّت باستمرار في صالحها في الأمم المتحدة، بالرغم من أنه في أوائل الألفية الثالثة بدأت بعض العلاقات الاقتصادية تتشكل مع إسرائيل وأعيد افتتاح الكنيس اليهودي، لاسيّما إثر أطروحات كاسترو ومراجعاته عن الشيوعية والدين، وهي أطروحات بحثت في المشترك الإنساني والأخلاقي بين الكنيسة والشيوعية، وكانت تلك الأطروحات عبارة عن مقابلة مطولة مع رجل الدين المسيحي فراي بيتو، ونُشرت لاحقاً في كتاب ترجمه حامد جامع وصدر عن «الحقيقة برس» ومجلة «قضايا العصر» في بيروت وعدن العام 1988، واحتوى الكتاب على حوارات مثيرة تستحق أن تُقرأ، وأن يتم التوقف عندها فيما يتعلق بالموقف الماركسي من الدين وتجربة كاسترو الشخصية.

وقد قامت إسرائيل بشكل غير مباشر- وأحياناً بشكل مباشر- بفاعليات وأنشطة عبر شركات ومؤسسات، في محاولة للتغلغل لاستعادة العلاقة مع كوبا. ويروي عماد الجدع (نقلاً عن صلاح صلاح) أن أحد الفلسطينيين في أميركا اللاتينية حاول تقديم عطاءات حول استثمار الحمضيات، واتفق مع الكوبيين على المشروع، لكنه اعتذر لاحقاً حين وضعه الأميركيون أمام خيارين، إما إلغاء الشراكة والصفقة، أو أن مصالحه ستكون في خطر، الأمر الذي دفعه لاتخاذ قراره بالتخلي عن عطائه، وهنا تقدّمت على جناح السرعة شركة أخرى لأخذ المشروع، واتضح أنها لم تكن بعيدة عن الأيادي الصهيونية.

وبغض النظر عن صحة الرواية أو عدم صحتها فإن هذا هو ما فعلته إسرائيل مع أفريقيا، فبعد أن تم قطع علاقات 30 دولة إفريقية فيما بين العام 1967 والعام 1973، إذ بإسرائيل تعود بنفوذها الاقتصادي وعلاقاتها التجارية «ومساعداتها» كقوة نافذة يُحسب لها حساب، ابتداءً من السدود التي قامت ببنائها في إثيوبيا، مروراً باتفاقيات وامتيازات عسكرية، ووصولاً إلى تعاون سياسي وأمني متعدد الجوانب، وهو ما عملت عليه لتعزيز علاقاتها مع دول أميركا اللاتينية.

ولا يفوتني هنا وأنا أتناول العلاقات الفلسطينية- الكوبية كجزء من العلاقات العربية- الكوبية أن أذكر أن علاقة كاسترو بصدام حسين كانت قوية جداً، وهو ما أثار عليه حفيظة اليسار العراقي، لاسيّما التهاون إزاء القمع والملاحقات التي كان الشيوعيون واليساريون وغيرهم يتعرضون لها، وهو الموقف ذاته من الدول الاشتراكية الأخرى التي غالباً ما كانت تقدم مصالح الدولة على «المصالح الأممية»، وتلك إشكالية ظلت من دون حلّ، بل إن حلّها كان مستعصياً بحكم نهج الهيمنة وتفضيل ما هو قطري وحكومي على حساب ما هو أممي وإنساني، وتلك معاناة مشتركة لا تتعلق بالتيار الماركسي وحده، بل بالتيار القومي العربي والتيار الإسلامي اللذين وصلا إلى السلطة، وكيف تعاملت هذه التيارات أو القوى مع رفاقهم بتقديم مبدأ الدولة والمصلحة على مبدأ التضامن والمبادئ.

وبالنسبة لكوبا وكاسترو كانت الحساسية أشد؛ بحكم الجانب العاطفي والنظرة الرومانسية التي كان يتعامل بها اليسار العربي والعراقي مع كوبا، قياساً مع الدول الاشتراكية البيروقراطية التي كان لليسار معها تجارب مريرة، دون التقليل من حجم مساعداتها ومواقفها الإيجابية، لكن علاقة كاسترو بصدام حسين بدأت بالتصدع، لاسيّما عندما خاطبه برسالتين طالباً منه الانسحاب من الكويت، بالرغم من أن كوبا استمرت في موقفها ضد الحصار الاقتصادي على العراق وضد إعلان الحرب الإمبريالية عليه، كما وقفت ضد احتلاله العام 2003 وصوتت في الأمم المتحدة ضد القرارات الجائرة والمجحفة بحقه. ويروي صلاح عمر العلي الذي كان سفيراً للعراق في الأمم المتحدة عن زيارة صدام حسين إلى هافانا العام 1979 وما لقيه من استقبال حافل فاق على الكثير من مجايليه بما فيهم زعماء وأصدقاء أكثر قرباً إلى كوبا، الأمر الذي سبب إحباطاً للشيوعيين والماركسيين الذين كانوا يتعرضون للملاحقة والقمع.

ولعلّ هذه المسألة تستحق وقفة جدية من التقويم والمراجعة، وباختصار يمكننا القول إنه غالباً ما يجري التبرير من جانب الدول والحكومات

«الاشتراكية» بأن تعزيز علاقاتها مع دول التحرر الوطني سيعزز مكانتها ومكانة الاشتراكية موضوعياً، الأمر الذي يمكن النظر إليه بعيون مستقبلية في إطار الصراع الكوبي ضد الرأسمالية والإمبريالية.

وكانت تململات أو همهمات بعض الأحزاب الشيوعية- التي غالباً ما تقال على استحياء أو تقدّم كاستفسارات- تذهب أدراج الرياح. ويفضل المسؤولون عدم التعرّض لها في الإعلام، أو النقد العلّني لبعض المواقف التي تتخذها الدول الاشتراكية كمداهنات للدكتاتوريات «الثورية» الحاكمة، طالما كانت علاقاتها معها جيدة؛ وفي الكثير من الأحيان كان للقياديين من الأحزاب الشيوعية امتيازات لا يريدون تخفيض سقفها، ناهيكم عن أن أية مواقف متعاكسة مع «المركز الأممي» أو مواقف الدول الاشتراكية قد تطيح بهم وتشجع بعض المتنافسين والمغامرين على المواقع الأولى، حيث تبدي هذه العناصر استعدادها لتقديم الولاء الأعمى «للأممية الحاكمة»، الأمر الذي يمكن معه إزاحة خصومهم، فضلاً عن أن جزءًا من هيبتهم ونفوذهم اكتسبوه من علاقاتهم الأممية.

في التسعينيات ظلت كوبا تنزف بصمت، وأدار الكثيرون ممن حلموا بجزيرة الحرية وتغنّوا بها ظهورهم للتجربة بكل ما لها وما عليها، باستثناءات قليلة، ولعلّ واحداً منها هو الاستثناء الفلسطيني، فقد ساعد أبو عمار في دعم كوبا إبان أزمتها الخانقة، ويذكر صلاح صلاح في لقاء خاص في بيروت مع الكاتب (أواخر العام 2009) أن عملية وقف تصدير النفط إلى كوبا كانت أقرب إلى عملية خنق، لاسيّما بعد انهيار الكتلة الاشتراكية وتفتيت الاتحاد السوفييتي، حيث هيمن الظلام على كل شيء، وكاد كل شيء أن يتوقف ويتعثر ويتعطل، يومها استعانت القيادة الكوبية بأصدقائها الفلسطينيين، فجاء وكيل وزارة خارجية كوبا إلى لبنان وطلب مساعدة «أبو عمار»، وجرت اتصالات لتأمين ذلك، وذهب وفد كوبي إلى تونس، وكان أبو عمار حينها يتعامل مع شركات نفطية،

فأمّن له عدداً من البواخر التي نقلت النفط على جناح السرعة إلى كوبا، وهي مسألة لا ينساها الكوبيون!

ومع أن الأزمة التسعينية قد تمّ احتواؤها، إلا أن آثارها لا تزال باقية حتى الآن، ولعلّ هافانا لا تزال من أكثر المدن ظلاماً، حتى أنني تخيّلت- بسبب الاقتصاد في الطاقة الكهربائية والحرص على عدم تبديدها- أن ثمة خللاً مركزياً قد حصل في التوزيع الكهربائي لأحياء وبلدات تعاني من انقطاعه لأوقات طويلة، وهو أحد أعصاب الحياة الضرورية، حتى وإن تمّ تخصيصه للقطاعات الأكثر حاجة مثل المستشفيات والمراكز الطبية والغذائية والمعامل والجامعات وغيرها، وهذا ما انعكس على وجوه الناس وما أثر في سلوكهم، لدرجة أن الشعب الكوبي الطيب والكثير المرح والرقص والغناء، بدا كأنه منكمشٌ، وهو ما تركته عليه سنوات الحصار الأميركي الجائر.

* * *

كاسترو- ابو عمار- حبش:
رومانسية لا غنى عنها

ظل جيل الستينيات وإلى حدود معينة جيل السبعينيات يربط بين رمزية النضال الفلسطيني والكوبي، لاسيّما الالتقاء في الكثير من الشعارات والأهداف وأساليب الكفاح الثوري التي سادت آنذاك، خصوصاً ما مثّله جيفارا من أحلام وشجاعة جاءت به من أميركا اللاتينية إلى مصر والجزائر، ثم الاختفاء الغامض في الكونغو، وبعده انتقاله لقيادة الكفاح المسلح في بوليفيا، وفيما بعد مصرعه الذي حمل الكثير من المعاني والأسرار.

كل ذلك حصل في إطار رومانسية ثورية كانت تميل إليها حركات تحرر فلسطينية وعربية ومناضلون حالمون وجدوا في النموذج الجيفاري مثالاً، يتطلعون إليه في ملامسة واقع شديد البؤس، متجسداً في الاحتلال من جهة، ومن الجهة الأخرى في أنظمة حكم لا تستجيب لمطالب شعوبها. وعلى الرغم ممّا أثارته الموجة الجيفارية من جدل واختلاف وتباين في الرؤية وبين ما كانت الحركة التحررية العربية تعيشه، لاسيّما تياراتها الأساسية آنذاك، اليسارية الماركسية بما فيها الجديدة، واليسارية القومية، فإنها تركت الكثير من البصمات على الجو السياسي والفكري السائد آنذاك.

وأستطيع القول- إنه بالرغم من وجود نموذج فيتنامي ناجح وتجارب لحركات الأنصار الشيوعية، لاسيّما في الحرب العالمية الثانية وبخاصة في أوروبا- إلّا أن الموديل الجيفاري كان الأكثر جاذبية وتأثيراً، لدرجة أن بعض

خصومه الفكريين كانوا قد تأثروا به أيضاً، وعلى أقل تقدير كانوا ينظرون إليه بإعجاب كبير.

وقد زخر الأدب السياسي الفلسطيني المقاوم والأدب العربي خلال فترة أواخر الستينيات والسبعينيات بمصطلحات واقتباسات لم تكن بعيدة عن اللغة السياسية والأدبية التي كان يستخدمها جيفارا وكاسترو، فجرى الحديث عن «البؤر الثورية» و«الكفاح المسلح» و«الزحف من الريف إلى المدينة» و«تسريع دور العامل الذاتي في تثوير العامل الموضوعي» و«استخدام العنف الثوري» وتأسيس نُويّات لحركات الأنصار وإشعال المقاومة ودور القوى التحررية في القارات الثلاث كضلع ثالث للدول الاشتراكية والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية، ولاسيّما أن الثقل الثوري انتقل إليه.

وهكذا ساد نوع من الرومانسية الثورية والحلم الغامض الجميل، لدرجة حاول بعض الشباب تمثيل شخصية جيفارا فارتدوا قبعته وأطلقوا ذقونهم واتجهوا إلى الأرياف ومعهم كثير من الأحلام وبضعة كتب، على أمل حشد الفلاحين للثورة على الحكام الدكتاتوريين والأنظمة التقليدية، بل إن بعض الحركات الثورية كانت قد تبنّت هذا النهج حتى وإن كان في ظروف مختلفة، الأمر الذي أدّى في بعض الأحيان إلى حرق المراحل وتبديد إمكانات وطاقات كان يمكن ادّخارها، ولو كانت قد تُركت للتطور الطبيعي، التدريجي، التراكمي لأحدثت نوعاً من التغيير حتى وإن كان طويل الأمد. وهنا أستذكر كيف انخرط بعض الشباب في ما سمّي بالكفاح المسلح في العراق، وهو ما دعت إليه القيادة المركزية للحزب الشيوعي- جناح عزيز الحاج بعد الانقسام في الحزب (أيلول/سبتمبر عام 1967) ومجموعات صغيرة أخرى وقيل إن الفلاحين لم يستوعبوا ذلك، فجرى الإخبار عنهم، أو أن بعضهم قُتل من جانبهم، وبين هؤلاء صديقاي أزهر الجعفري وسامر مهدي، وهو ما أشرت له فضلاً عن بعض الشخصيات المعروفة مثل خالد أحمد زكي الذي قُتل في معركة غير متكافئة.

وكانت المقاومة الفلسطينية الصاعدة، لاسيّما بعد العام 1967 قد تمثّلت هذا النموذج واتّخذت منه شكلاً ومضموناً مصدراً أساسياً في نشاطها وأساليب عملها. وكان شعور عام قد ساد بأن كوبا هي الأكثر قرباً من الدول الاشتراكية إلى العالم العربي وأنها أكثر حرارة وصدقاً في التعامل مع قضاياه، لاسيّما ما مثّلته شخصياً كاسترو وجيفارا من رمزية كبيرة، دفعت الكثير من الشباب إلى التمثل بهما.

وقد كانت السبعينيات المحطة الأساسية التي توطدت فيها، بل واستقرت العلاقات الفلسطينية- الكوبية وربما العربية- الكوبية، لاسيّما زيارات ياسر عرفات وجورج حبش ونايف حواتمة وعامر عبد الله وجورج حاوي وآخرين إلى هافانا، كما تعززت العلاقات الكوبية- العربية على صعيد العلاقات الدولية، لاسيّما مع العراق واليمن الجنوبية والجزائر وسورية وليبيا، وقبل ذلك مصر وغيرها.

ويتذكر المقاومون الفلسطينيون باعتزاز كبير موقف السفير الكوبي في بيروت، خستو، الذي كان خلال فترة الاجتياح الإسرائيلي للبنان وصولاً إلى العاصمة بيروت العام 1982، يداوم يومياً في مقرات قيادات المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وهذا الموقف الذي اتّخذه لم يكن بعيداً عن المواقف التي اتخذتها القيادة الكوبية ممثلة بكاسترو وجيفارا في تأييدها للحقوق الوطنية الفلسطينية وفي المقدمة منها حق تقرير المصير، ولاسيّما أن إسرائيل حسب تقييمات القيادة الكوبية كانت حتى قبل العام 1967 بؤرة للتوتر وتهديداً للسلام والأمن في المنطقة ومصدراً للحروب والنزاعات المستمرّة.

لقد كانت حساسية الكوبيين شديدة إزاء ما حصل للفلسطينيين، وكلما تعرّفوا أكثر على الأوضاع العربية، كلّما ازدادت قناعتهم بأن ما حصل لفلسطين لم يكن بمعزل عن قوى الاستغلال والرأسمالية العالمية. وكان لجيفارا دور كبير في تكوين مثل هذا التصوّر، خصوصاً من خلال اطّلاعه على ما كان يُناقش ويصدر عن منظمة التضامن الأفروآسيوي، ومن خلال علاقته بأحمد بن بيلا

وجمال عبد الناصر والمهدي بن بركة وزياراته للجزائر والقاهرة، ولعلّ ذلك قد أسهم في بلورة الفكر الجيفاري تأثراً بالمحيط العربي، الذي علينا الاعتزاز به، لأنه جزء من المشترك اليساري الإنساني برفد متبادل على الصعيد الفكري.

اطّلع الكوبيون على المذابح التي ارتكبت بحق الفلسطينيين منذ قيام إسرائيل، حيث نفذّت مجازر شنيعة في دير ياسين العام 1948، وكفر قاسم العام 1956، وأدركوا أن إسرائيل بممارساتها تلك كانت جزءًا من المعسكر الإمبريالي، وقاعدة متقدمة له لوقف تقدم حركة التحرر الوطني العربية ومناهضة تطلعات الشعوب العربية في التحرر والانعتاق والتنمية والتقدم، لاسيّما مشاركتها في العدوان الثلاثي على مصر العام 1956 بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا، يوم قام الرئيس عبد الناصر بتأميم قناة السويس.

وقد تمت بعض اللقاءات بين الفلسطينيين والكوبيين، في إطار اتحادات الطلبة، حين كان يرأس اتحاد طلبة فلسطين تيسير قبعة القيادي في الجبهة الشعبية، وكان الاتحاد عضواً في اتحاد الطلاب العالمي، واتّسعت علاقاته لاحقاً في أواخر الستينيات والسبعينيات.

وتعزّزت العلاقة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية العام 1964 حيث التقى جيفارا بعض القيادات الفلسطينية خلال زياراته للقاهرة، وربما كان قد التقى خليل الوزير (أبو جهاد) في الجزائر خلال التحضيرات لمؤتمرات التضامن الأفروآسيوي تمهيداً لمؤتمر القارات الثلاث.

يقول صلاح صلاح، القيادي في الجبهة الشعبية الذي أجريت معه مقابلة بعد عودتي من هافانا باعتباره رئيساً لجمعية الصداقة الفلسطينية- الكوبية (أواخر العام 2009): إن كوبا اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية وفتحت لها سفارة في هافانا منذ وقت مبكر، لكن العلاقة تعززت في السبعينيات.

وأكثر التقديرات أن مؤتمر القارات الثلاث الذي كان يحضّر له أحمد بن بيلا والمهدي بن بركة وجيفارا، كان المحطة الأولى المهمة للعلاقة، لاسيّما بعد انعقاده العام 1966 على الرغم من غياب القادة الثلاثة عنه لأسباب تتعلق

بذهاب جيفارا إلى الكونغو لقيادة الثورة فيها وإزاحة أحمد بن بيلا عن السلطة إثر الانقلاب ضده، واختفاء المهدي بن بركة قسرياً في باريس.

وكانت منظمة «فتح» أول من فتح مكتباً لها في هافانا. ويتذكّر صلاح صلاح أن وفداً فلسطينياً كبيراً كان قد زار كوبا برئاسة تيسير قبعة العام 1978، لاسيّما بعد أن برزت بعض التمايزات بين ما أطلق عليه قوى اليسار واليمين في إطار منظمة التحرير الفلسطينية، حيث فتح الكوبيون خطّاً جديداً لهم مع الفلسطينيين واعترفوا بتنظيمين هما: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمة، وذلك بعد توثيق علاقة الجبهتين بالاتحاد السوفيتي. وكان صلاح صلاح قد شارك في دورة حزبية لمدة عام (1979-1980) وبدأت دورات أخرى أمنية وسياسية وأكاديمية للفلسطينيين عبر تقديم منح لهم عن طريق «م.ت.ف»، ثم بدأت بعض الفصائل تحصل على دعم سياسي وعسكري ومهني مباشر أيضاً.

* * *

ملكوت السماء وملكوت الأرض

شغل ماراثون الصراع الفكري بين الماركسيين والمتدينين القرن التاسع عشر والقرن العشرين كله، لاسيّما بعد أن قادت الحركات الماركسية أنظمة اشتراكية، وبخاصة بعد ثورة (أكتوبر) الروسية العام 1917 وما بعد الحرب العالمية الثانية في عدد من دول أوروبا الشرقية، ثم في الصين وبعض دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، ولاسيّما أن موقفها من الدين والإيمان الديني كان سلبياً، مثلما كانت مواقف رجال الدين مسيحيين ومسلمين ويهود وغيرهم سلبية هي الأخرى، وكان كل منها معادياً للآخر. لكنّ ثمة إرهاصات قليلة وخافتة ظلّت تبحث في جوهر الموقف الماركسي من نقد الدين، ولاسيّما أن ماركس لم يقدم أطروحة متكاملة على هذا الصعيد، بقدر استفادته من فيورباخ، الذي نادراً ما تناوله الأدبيات الماركسية.

وباستثناء كتاب ماركس عن المسألة اليهودية، فإنه لم ينصرف إلى دراسة الدين أو تقديم أطروحات ومساهمات تُذكر بخصوصه، اللهم إلا إذا اعتبرنا تأثيرات فيورباخ عليه. وإذا كان هذا يتعلق بالجانب النظري (الفكري) فإن الجوانب العملية شهدت صراعات حادة وخصومات شديدة مع التيار الديني. وتوقفت في كتابي «تحطيم المرايا» لأسلّط الضوء على الفهم الخاطئ والملتبس للعبارة الشهيرة «الدين أفيون الشعوب» سواءً من جانب بعض الماركسيين الذين فسّروها ضد الدين أو من جانب أعدائهم الذين استثمروها باعتبارها الموقف

الماركسي السلبي وعلى لسان ماركس من الدين، وهو ما لم يقصده ماركس على الإطلاق.

ولعلّ ما ساد في وقت متأخر حول إمكانية التحالف بين الماركسيين والمتدينين لم يتمّ في إطار مراجعة شاملة من الفريقين، بقدر ما كان يحمل في ثناياه إقراراً بواقع أليم، هو أن كلاً منهما لم يستطع إلغاء الآخر، بالرغم من محاولات التهميش والإقصاء والاستئصال؛ فضلاً عن ذلك فإن كلاً منهما لم يستطع أن يحقق ما كان يطمح إليه، لاسيّما الانفراد بالساحة، ومع ذلك فإن ما حصل حتى الآن لم يكن أكثر من آمال أو أمنيات لم تجد طريقها إلى الواقع إلّا في ظروف محدودة وعلى نحو محدود، الأمر الذي يطرح المسألة على بساط البحث مجدداً.

وإذا كان كاسترو قد بحث هذه العلاقة بين الماركسية والدين، لاسيّما في السبعينيات وبشكل خاص في الثمانينيات، فثمة فراغات فكرية وعملية، لا تزال بحاجة إلى جهد مثابر وعمل طويل الأمد للوصول من الطرفين إلى الهدف المنشود، إذْ إن المسألة لا تتعلق بالماركسيين فحسب، بل بالمتدينين أيضاً، الذين لا ينبغي عليهم الصراع على «الآمال والأحلام» الماورائية الغيبية بقدر ما عليهم دراسة الواقع والبحث عما يعانيه الإنسان من بؤس وظلم واستغلال، انطلاقاً من مقاربة نظرية فكرية ومصالح سياسية واجتماعية واقتصادية راهنة تخص البشر الذين يعيشون على الأرض، وليس في مملكة السماء، لهذا اقتضى أن يحتفظ كل فريق بما لديه من آمال وأمنيات تبشيرية بالخلاص على طريقته دون إرغام أو إكراه الطرف الآخر على الإيمان بها.

فالماركسيون يقولون إن المجتمع الشيوعي سيكون الأكثر سعادة، حيث لا وجود للطبقات والاستغلال، وسينعم البشر «كل حسب طاقته وحسب حاجته»، أما المتدينون فيقولون إن مملكة الأرض زائلة، والباقية هي مملكة السماء، حيث العالم الآخر الأكثر عدلاً وسلاماً وسعادة، والأرض مجرد دار فناء، في

حين أن السماء هي دار استقرار. «مملكتي ليست من هذا العالم» (إنجيل يوحنا الإصحاح 18: 33-36).

ولهذا فإن ترك أو تأجيل مسألة الاختلاف على ملكوت العالم الآخر الآتي سيضع مشكلات الأرض أمام استحقاقاتها، أما ملكوت المستقبل فهو لا يزال في رحم الغيب، ولن يوصل الصراع حوله أياً من المتدينين أو الماركسيين إلى أي نتيجة تذكر.

المهم البحث في إشكاليات ومشكلات عالم اليوم، حيث النضال المشترك والمصالح المشتركة للفقراء والكادحين، الذي هو الحقل الفعلي والمساحة الحقيقية الممكنة للعمل والتعاون وحتى للصراع، أي ترك مشكلات عالم السماء والبحث في مشكلات عالم الأرض، التي تواجههم يومياً، لأن التمسك بالصراع حول عالم الغيب لن يقرّب بين المظلومين بقدر ما يشتت نضالهم.

لقد اصطدم الحزب الشيوعي الكوبي الذي توحّد مع حركة 26 تموز (يوليو) بالكنيسة والأبرشيات بعد الثورة وتوّلد انطباع لدى الطرفين بأن صراعهما حتمي واستئصالي، ولذلك حُرما من رؤية رحبة بعيداً عن اللاهوت، إزاء قضايا الحاضر والمستقبل وسعادة البشر ورفاهم.

وإذا كان قد حدث تطور مهم في رؤية الكنيسة في أميركا اللاتينية، لاسيّما لدى المجمع المسكوني في الفترة بين 1962-1965، فإن تلك الرؤية قادتها إلى

أن تلعب دوراً مهماً في لاهوت التحرير في وقت لاحق. لذلك فإن النقاش الذي دار بين كاسترو ومحاوره بيتو العام 1985 عكس رؤية ماركسية جديدة إزاء الموقف من الدين من دون مجاملة أو مداهنة أو تنازل، ولكن في إطار قراءة وضعية نقدية للواقع دون تصغير من حجم الآخرين أو تضخيم بالذات. وكان بيتو قد قضى مع كاسترو 23 ساعة عمل كرّسها لرؤيته حول الدين.

وإذا كانت هناك جوانب متطورة في هذه الرؤية الجديدة، فإن الكثير من

الأحزاب الشيوعية والتيارات الماركسية لا تزال بعيدة عن هذه المراجعة الضرورية، إمّا تشبثاً بالماضي وإمّا تجنباً لفتح هذه السيرة، وإمّا مداهنة لتيار إسلامي صاعد في الكثير من البلدان العربية والإسلامية وفي بلدان آسيا وأفريقيا من جانب المتدينين.

لم يكن كاسترو وحده هو الذي درس في المدارس اليسوعية، فقد كان شقيقه راؤول رئيس الدولة حالياً هو الآخر قد درس على أيدي رهبان مسيحيين ويسوعيين في مدينة سانتياغو دي كوبا، وقد حضر- حسبما يقول- من القداسات ما يكفيه لبقية العمر، لكنه لم يبق على إيمانه بالكنيسة، ويعترف أنه حافظ على مبادئ المسيح، وهو لا ينكر هذه المبادئ ولا يجحد حقها. يقول راؤول كاسترو: «إن مبادئ المسيح تمنحني أملاً في الخلاص والثورة، إنها تطرد الأغنياء من الجنة خالي الوفاض وتهب الخبز للفقراء»، وهو ما ذكّرني بالباحث العراقي التراثي هادي العلوي الذي تحدث عن الفلسفة التاوية مشبهاً لاوتسة بالمسيح وبأبي ذر الغفاري وبماركس. وبحسب رأيه فإن المسيح يعتقد أنه لا مكان للأغنياء في الجنة «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر: الآية 25)، التي لا يمكنها أن تستوعبهم.

هل تتعارض الحياة الروحانية مع الحياة الدنيوية المادية؟ وهل هناك ضرورة لاعتزال العالم، واعتزال الحياة اليومية، تحت حجة التأمل والانصراف للاتصال بالخالق، في صومعة خاصة بدير أو أبرشية أو مسجد أو جامع أو خلوة مع النفس ومع الله؟ لعلّ هناك نوعاً من القداسة، فبركات الروحانية التي تظهر كمرايا إيمانية لإتباع طريق الحق والعدل، سواءً أكانت تجلياً أم انصرافاً لاهوتياً، هي ذاتها التي لا تفصل عن قضايا الحاضر ومشكلاته.

وإذا أردنا الحديث عن اللاهوت الخاص بالأناجيل، فهناك إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، ويعني اللاهوت فيما يعنيه انعكاساً للإيمان في نطاق واقع معين. إنّ الذي ميّز لاهوت التحرير في أميركا اللاتينية

فهو الوجود الجمعي لملايين من الجياع بعيداً عن الشخصانية، وهذا اللاهوت اكتشف أهمية وضرورة اللجوء إلى العلوم الاجتماعية، بما فيها الاستفادة من الماركسية، إذ إن الخوف من الماركسية كما يقول بيتو كان أقرب إلى الخوف من الرياضيات، لأنك تشك أنها ربما تأثرت بفيثاغورس، ولا يمكن لأحد في عالمنا المعاصر أن يتحدث عن التناقضات الاجتماعية من دون أن يعزو بعض التقدير للمفاهيم التي بلْوَرها وصاغها ماركس.

كان البابا يوحنا بولس الثاني قد اقتبس من ماركس عندما تحدث عن التوترات الطبقية والظلم الاجتماعي في رسالته البابوية عن العمل المتفاني الإنساني، والبابا هو نفسه الذي حاول محمد علي أغجا الذي ادعى أنه المسيح اغتياله في تركيا 1981 (كتابنا: قرطاجة يجب أن تدمّر، دار صبرا، نيقوسيا- دمشق، 1985)، واتُّهِمَت بلغاريا حينها بتنظيم عملية اغتياله في حملة دعائية وأيديولوجية شعواء، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتحلل المنظومة الاشتراكية، اتّضح بطلان تلك الحملة، وتم إسدال الستار على القصة بكاملها وقد (أنهى أغجا مدة محكوميته في ظرف غامض ليطلق سراحه بعد سجنه 20 عاماً، ويلفّه عالم النسيان بعد الضجة الكبرى).

* * *

الاشتراكية والإيمان الديني

سأل الكاردينال سيلفا هرناندز (Silva Hernandez) الزعيم الكوبي فيدل كاسترو عمّا إذا كان الكتاب المقدس الذي قدّمه إليه هدية قد أغاظه، فأجاب كاسترو: «ولماذا؟ هذا كتاب عظيم، قرأته ودرسته في الصبا، وسأستعيد العديد من المسائل التي تثير اهتمامي». لعلّ هذا ما ينقله محاور كاسترو فراي بيتو (Frei Betto) عن علاقة كاسترو بالدين ورؤيته للإيمان الديني والموقف من الاشتراكية، خصوصاً وهو يستعرض أحاديثه إلى الرهبان في تشيلي (تشرين الثاني/نوفمبر/ 1971)، التي كان قد قرأها وهو سجين سياسي في ساو باولو (البرازيل) عندما كان يقضي حكماً بالسجن لمدة 4 سنوات تتعلق بالأمن الوطني.

كان كاسترو قد زار الكاردينال هرناندز زيارة بروتوكولية في سانتياغو؛ حيث كانت كلماته تتردد عن أن «في الثورة هناك عوامل معنوية تغدو حاسمة»، وأن الحاجة الموضوعية لشعوبنا لأن تحرر نفسها، وهذه الحاجة تخص المسيحيين والشيوعيين، الذين عليهم أن يتّحدوا من أجل هذا الهدف. ولفت كاسترو النظر وهو يتحدث إلى رجال الدين التشيليين إلى أنه درس في مدرسة كاثوليكية ومع اليسوعيين، الذين وصفهم بأنهم أناس جادون منضبطون، صارمون، أذكياء، ذوو عزيمة قوية، وأردف: «لقد قلت هذا دائماً وأقول لكم فيما بيننا إن هناك تشابهاً عظيماً بين غايات المسيحيين وبين تلك التي يسعى إليها الشيوعيون، أي: أن من بين تعاليم المسيحية: التواضع والزهد والإيثار

وأن تحب جارك، وبين ما يمكن أن ندعوه فحوى وحياة ونشاط الثوري» (انظر: كاسترو والدين، حوارات مع فراي بيتو، مصدر سابق، ص 13-14).

وحول علاقة الدين بالسياسة يقول كاسترو: «إن السياسة في عصرنا دخلت في مجال يقترب من الدين، فيما يتعلق بالإنسان واحتياجاته المادية، ونستطيع أن نقارب الوصايا العشر: لا تقتل، لا تسرق، لا تكن أنانياً، لا تستغل الآخرين... إلخ، هناك توافق إذاً بين المسيحية والشيوعية أكثر من 10 آلاف مرّة مما بين المسيحية والرأسمالية»، ولعلّه بذلك قصد الجوانب الأخلاقية والروحية والمُثل الإنسانية، خصوصاً إذا استثنينا الموقف من الملكية الخاصة ودورها.

لا ينفي كاسترو أن الإيمان الديني لم يُغرس فيه أبداً، لكنه كان يحترم المقدسات الدينية، ويعتقد أن الدين مُحرّف على أيدي الطبقات الرأسمالية المستغلة؛ حيث وظّفته لصالحها وجعلته في خدمتها؛ فهناك دين مُلّاك الأراضي والأثرياء، وهناك دين الفقراء والمُستلبين.

لعلّ الشيء المتقدم الذي كان كاسترو قد طرحه ومنذ وقت مبكر هو الذي يتعلق بالتحالف الاستراتيجي وليس التكتيكي بين المسيحيين والشيوعيين «نحن مع أن نكون حلفاء استراتيجيين، ما يعني أن نكون حلفاء دائمين». وكان كاسترو يردد أن لا حاجة لوجود أي تناقض بين الثورة الاجتماعية ومعتقدات الناس الدينية، وحرصت الثورة الكوبية على ألّا تقدم نفسها كمعادية للدين بالرغم من بعض الالتباسات من الطرفين.

وبخصوص السيد المسيح كان كاسترو يعتقد أن المسيح ثوري عظيم، وأن عقيدته هي لصالح الفقراء وضد الظلم والتعسف وإذلال الإنسان، ولعلّ ذلك هو المشترك الإنساني الذي يجمع بين تعاليم الدين وبين تعاليم الاشتراكية.

هل ينقسم الناس إلى متدينين وغير متدينين، أي إلى مسلمين ومسيحيين وغيرهم، وإلى شيوعيين واشتراكيين، أم ثمة قسمة أكثر عدلاً، حين يمكن تقسيمهم إلى ثوريين وغير ثوريين حسب استخداماتنا السابقة، وإلى من هم مع الاستغلال والقهر ومن هم ضده، بغضّ النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم؟.

بودي هنا أن أقول إن الكثير من الحركات الشيوعية والماركسية ارتكبت أخطاء جسيمة عندما بشّرت على نحو ساذج بالحادية مدرسية نزقة، ما جعل الشيوعيين «غرباء» إلى حدود معينة في مجتمعاتهم بالرغم من تضحياتهم الكبيرة، لاسيّما عن جمهور الفقراء الذين يدّعون أنهم يمثلونهم. وهذا هو ما استذكرته في كتابي «تحطيم المرايا.. في الماركسية والاختلاف، حوار: خضير ميري، الدار العربية للعلوم، بيروت 2009» حين استعرضت كتاب المفكر الإيراني الإسلامي علي شريعتي «العودة إلى الذات» والمتعلق بموقف اليسار الماركسي من الدين.

وعلى الرغم من أن شريعتي يشيد بدور الماركسيين وما قدمه الفكر الماركسي ويعتبره شيئاً مهماً، لاسيّما لجهة الكفاح ضد الاستغلال والاستعمار والظلم، فإنه يعتبر أن مدخله كان خاطئاً، خصوصاً موقفه من الدين، ولعلّي هنا أتفق معه حول بعض التصرفات الطفولية والمراهقة التي حُسبت على الماركسيين والشيوعيين، وكان ينبغي أن يكون مدخلهم هو العدالة وليس الله، فالعدالة هي المشترك الذي يمكن أن يلتقي عنده المتدينون وغير المتدينين، المسلمون والماركسيون وغيرهم، خصوصاً إذا اتّسمت بالدعوة إلى الحرية، التي هي القيمة العليا للبشر، وأقتبس هنا ثلاث صور كاريكاتيرية طريفة من شريعتي.

الصورة الأولى: يرسم فيها مثقفاً يسارياً يخاطب جمهرة الفلاحين ويحرّضهم ضد السلطات الحاكمة، ثم يقنعهم بالهجوم عليها وأخذ زمام المبادرة لتحرير أنفسهم.

الصورة الثانية: يصوّر فيها جمهرة الفلاحين وهم يسيرون خلف المثقف اليساري لمواجهة السلطة عبر الاستيلاء على رمزها «مركز الشرطة».

الصورة الثالثة: يرسم فيها المثقف اليساري مختبئاً وراء أفراد الشرطة، في حين تطارده جمهرة الفلاحين وتريد قتله؛ لأنه شكّك بوجود الخالق.

ولعلّ هذه الصورة النمطية تكاد تتكرر على المستوى العالمي، ولكن تأثيراتها أكثر ضرراً وعمقاً في مجتمعاتنا العربية والإسلامية؛ إذ إن مجرد

التشكيك أو الاستخفاف بوجود الخالق حوّل ما بناه المثقف اليساري برمشة عين إلى الضد منه؛ لأنه تناول قضية مستقرة في أذهان العامة، وتمثّل جزءًا من وجدانهم، فانقلب مصدر سخطهم من عدوهم «السلطة الظالمة»، إلى نصير لهم ومدافع عن حقوقهم؛ لأنه شكك بعقائدهم.

لقد واجهت الماركسيين مثل هذه الإشكالات في حياتهم اليومية، ولم يتصرفوا إزاءها بنوع من الحصافة والحصانة الفكرية ومن المعرفة بخصائص وعقائد المجتمع وتاريخ بلدانهم سواءً أكانت مسلمة أم مسيحية، ذلك أن المساس بالعقائد المتوارثة سيلحق ضرراً كبيراً بقضية النضال المشترك الذي ستكون مادته هي جمهور الناس البسطاء، المُعدمين، المؤمنين على طريقتهم الخاصة وعلى ما توارثوه من معتقدات وأساطير وحتى أوهام أحياناً، لكن ذلك ينبغي مراعاته على نحو دقيق؛ إذ إن مجرد الاقتراب منه أو الشعور بأن ثمة خدشاً له وهو مستقر في الأذهان وغير قابل للنقاش، سيجعل المعنيين بالتغيير في دائرة الرفض، وسيحسب من يحاول ذلك على دائرة الإساءة إلى المقدسات، وهو ما يمكن اعتباره استراتيجياً وتكتيكياً أمراً خاطئاً. ولعلّ هذا هو ما توصّل إليه فيدل كاسترو عند حديثه في إطار النقد الذاتي عن التحالف الاستراتيجي، الدائم بين الماركسيين والمسيحيين.

وبالطبع لا يمكن بلوغ مثل هذا التحالف من الكتب والتفسيرات والتأويلات وحدها، على أهميتها وقيمتها التي لا يمكن الاستغناء عنها، فالأمر يحتاج إلى أرضية يلتقي عندها من هو معني بالتغيير والتحرير ومكافحة الاستغلال، ومن خلال عمل شاق وطويل وتراكم وتطور تدريجي وترويض للنفس.

الشيء الممتع والمثير للدهشة حقاً هو حوار كاسترو مع المتدينين، ولعلّك وأنت تتوغل في التعرّف والقراءة والنقد، تكتشف أنك أمام شخصية متميزة ومفتوحة وصريحة وتستطيع أن توجّه إليها أية أسئلة دون حرج، بما فيها ألّا توافقه في الرأي.

لقد تأثّر كاسترو مثلما تأثّرنا جميعاً، دون إغراق، لاسيّما من انحدروا من

عوائل دينية أو درسوا في مدارس دينية أو عاشوا في بيئة دينية، ببعض المثل والقيم الدينية الإنسانية، بالرغم من عدم إيمان بعضنا دينياً، إلّا أننا، وهذه تجربتي الشخصية أيضاً، لم نكن محصّنين إزاء ما ورثناه من تعاليم، وهذه أضافت إلينا بُعداً أخلاقياً ورمزياً؛ لأننا كنّا نعتبرها قيماً إنسانية اجتماعية وفي الوقت نفسه قيماً ثورية، نتعاطى معها بسليقية وانسيابية.

وسبق أن كتبت قبل عقد ونيف من الزمان عن السيد محمد باقر الصدر (الذي اختفى قسرياً هو وأخته بنت الهدى، العام 1980): «حلق في سماوات بعيدة وسبح في بحور عميقة»، عن العلاقة بين الماركسيين والإسلاميين، مفرّقاً ما بين الأيديولوجي المختلف، وبين السياسي والاجتماعي النضالي اليومي الذي يمكن أن يكون مؤتلفاً، بحثاً عن الحرية والعدالة، التي يُفترض أن تشكل المشترك الإنساني الذي يساعد في تكوين تصورات مشتركة إزاء أوضاع الظلم والقهر والاستغلال.

وفي هذا المجال كنت قد قرأت نقدياً فتوى السيد محسن الحكيم «الشيوعية كفر وإلحاد»، وكذلك موقف السيد محمد باقر الحكيم (المجلس الإسلامي الأعلى) في اجتماع للمعارضة العراقية في دمشق، 1996، وإصراره على استبعاد الحزب الشيوعي، وهو ما نشرته في صحيفة «الحياة» اللندنية في حينها، وذلك بتغليب طبق الأيديولوجيا على مقبّلات السياسة، خصوصاً أن هناك بعض المشتركات كان الطرفان يعيشانها، لاسيّما ضغط النظام السابق وكبته، خصوصاً في السجون والمنافي؛ حيث كان الواقع والعقل يقتضيان تقديم السياسة على الأيديولوجيا، ولكن من دون تنازل أو تهادن أو استرخاء أو مجاملة، بما فيها الخلاف الفلسفي والفكري.

* * *

الروح والمادة:
حوار المتدينين مع الماركسيين

إن الروحانية لا تتعلق بالحياة فقط، وإنما تتعلق بالبشر، بالعلاقة بين المادة والروح، وحسب الكتاب المقدس، فإن المعرفة الروحية هي المعرفة التجريبية، أي ما نجرّب ونختبر. ويربط كاسترو بين ما قاله خوسيه مارتيه بطل كوبا القومي «**الفعل أفضل طريقة للقول**» وبين ما تؤمن به المسيحية «**العيش أفضل طريقة للإيمان**» فالإيمان دون فعل عديم الجدوى.

وأتساءل هل أن الإيمان لدى المسلم أو المسيحي أو حتى بين المسلمين أنفسهم أو المسيحيين أو اليهود هو نفسه الإيمان ذاته بالإله نفسه، أم أن لكلٍ إلهه الذي رسمه وتخيّله على صورته، ووفقاً لبعض التعاليم التي تلقاها عنه؟ ويمكنني أن أضيف هل أن الإيمان بالله لدى المؤمن المكافح من أجل الحرية والعدالة، هو نفسه لدى الحاكم المستبد، والقائد العدواني النزعة، والمُحتكر، والمُستغل؟

ولعلّ الكثير من الحروب والغزوات والعدوان والنزاعات كانت قد تمت باسم الله وعلى بركاته، حتى إنّ القتل والتصفيات الجسدية، كانت تستخدم اسم الله أيضاً، في الكثير من الأحكام غير العادلة والمجافية للحق والإنسانية، كانت تصدر باسم الله كذلك، وحتى بعض أعمال الذبح وقطع الرؤوس وجزّ الأعناق في العراق التي قامت بها جماعة الزرقاوي وتنظيم القاعدة وغيرها من التنظيمات والميليشيات المسلحة كانت تتم باسم الله كذلك!!

الله يدعو إلى العدل والحق وحماية الضعفاء والفقراء، وتلكم هي روحانية السيد المسيح والنبي موسى والنبي محمد، أي أن روحانية الأنبياء ليست اعتزالاً عن العالم ونبّذاً للحياة اليومية أو إنكاراً للحقائق الدنيوية (الأرضية) بحجة التفرغ لمتطلّبات السماء، بل هي روحانية تتعلق بصميم الواقع والمعاناة الإنسانية والرغبة في الخلاص وإقامة العدل والمساواة والحرية.

ومن خلال المتابعة والتدقيق، فإن الدين ينتشر في القطاعات الشعبية والفقيرة ولدى أصحاب الدخل المحدود، وهم الأكثر نشاطاً في أداء الشعائر والطقوس الدينية، والأمر لا يتعلق بدين دون سواه، بل إنه ظاهرة عامة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود وغيرهم من أتباع الديانات السماوية وغير السماوية.

كانت الإشاعة السائدة في أوساط واسعة من الكوبيين تقول: ما أن تنتصر الشيوعية، فإن ذلك سيؤدي إلى إغلاق الكنائس وحرق الكتب المقدسة وقتل الرهبان وشنق الأساقفة، وتلك الحملة سبقت انتصار الثورة العام 1959، ولعلّها مفارقة أن تلقى تلك الحملة صداها في العراق أيضاً إبان انتصار ثورة 14 تموز (يوليو) العام 1958، حيث جرى الحديث عن مشاعية النساء وزواج الابن من ابنته أو أخته، والإباحية التي ستتفشى وعدم معرفة والد الأبناء، إضافة إلى حديث عن حرق القرآن وتحقير رجال الدين وغير ذلك.

وإذا كان ثمة دعاية سوداء ضد الحركة الشيوعية في حينها، لكن بعض الممارسات الضارة والتجاوزات الخاطئة لم تكن بعيدة عن نشر مثل تلك التضليلات، لاسيّما وأنّ الساحة آنذاك قد شهدت التضييق على رجال الدين، وعملت على ازدرائهم والاستخفاف بالإيمان الديني.

وفي واقع الأمر فإن رجال الدين في كوبا والعراق وقفوا بالأساس ضد الثورة، وفي العراق حرّضوا الفلاحين ضد الإصلاح الزراعي وضد القانون رقم 188 لعام 1959 بخصوص قانون الأحوال الشخصية الذي ساوى بين المرأة والرجل في الإرث، وأعطى حقوقاً متقدمة للنساء. وقد اشتبك الحكم الجديد

في العراق وكوبا مع الامبريالية، الأمر الذي ألّب عليهما قوى وتيارات كثيرة، لم تكن بمعزل عن أخطاء الحزب الشيوعي في كلا البلدين، لاسيّما محاولات الهيمنة على الشارع وإخضاع الخصوم السياسيين لإرهاب فكري وسياسي، الأمر الذي شجّع القوى الامبريالية على محاولات متكررة لغزو كوبا، وشجع شركات النفط الاحتكارية على التآمر ضد الزعيم عبد الكريم قاسم، لاسيّما بعد قانون النفط رقم 80 لعام 1961 وهو ما أدى إلى الإطاحة به في 8 شباط (فبراير) 1963.

وقد دفعت التصرفات الخاطئة للحزب الشيوعي أوساطاً شعبية للابتعاد عنه واستغلت القوى الدينية وجميع من تضرروا من الثورة تلك الأخطاء لتقف خلف فتوى السيد محسن الحكيم «الشيوعية كفر وإلحاد» بهدف الإطاحة بالثورة، وإضعاف موقف الشيوعيين. وإذا كانت الفتوى قد ألحقت ضرراً بالحزب الشيوعي، لاسيّما في المناطق البعيدة والنائية والأرياف، فإنها بالقدر نفسه أضرّت وأضعفت الحركة الدينية ذاتها، الذي بدا موقفها ملتبساً ومثيراً للتساؤل بل وللشبهة أحياناً، وحصل ذلك في النجف قبل غيرها.

صحيح أن البلدان الاشتراكية، بما فيها كوبا ارتكبت أخطاءً فادحة ضد الدين والمتدينين، الأمر الذي عزل أوساطاً غير قليلة ودفعها إلى الانسحاب من تأييدها، وكان الاعتقاد السائد لديها ولدى عموم الماركسيين ما أن يزول الاستغلال والاضطهاد، فإن ذلك سيؤدي إلى تقليص دور الدين، بل سيؤدي إلى انحساره إنْ لم يكن زواله. ولقد ثبت مع التجربة في البلدان الاشتراكية السابقة وفي أميركا اللاتينية وفي العالمين العربي والإسلامي، أن تأثير الدين ازداد في العقود الثلاثة ونيّف الماضية، وأن الإنسان بحاجة دوماً إلى الدين منذ أن وجد وسيبقى إلى ما لا نهاية.

الدين هو ملاذٌ، إضافة إلى كونه عقيدة، وهو جزءٌ من الهوية الثقافية لأمم وشعوب، وليس تعليمات أو فروضاً، بقدر ما هو مكوّن من مكوّنات سيرورتها وتمثيل لحضاراتها بغض النظر عن القومية أو اللغة أو التاريخ؛ والأمر يعود إلى

الجهل بأسرار الوجود والخوف من مصير الروح والقلق من احتمال الكوارث الطبيعية، حتى إنّ الإنسان البدائي كان يصنع إلهه لكي يعينه لاتقاء شر المجهول الغامض والمبهم والمخيف.

لقد ظل سؤال الدين لصيقاً بالإنسان، مثلما بقي حائراً منذ الخليقة وحتى يومنا هذا، إضافة إلى أسئلة تكميلية مستمرّة: كيف خُلق الإنسان؟ وكيف تكوّن؟ ولماذا يموت؟ وهل سينتظره شيء بعد الممات؟ إضافة إلى الأقدار والكوارث الغاشمة التي لا يجد لها أجوبة شافية أو مقنعة.

لقد حاولت جميع الأديان السماوية الإجابة عن الأسئلة الشائكة إزاء سرّ الكون والوجود ومآل الإنسان في الدنيا والآخرة، ومع ذلك ظل الإنسان خائفاً ومحتاراً، إزاء المستقبل والمجهول والغيب.

وبالرغم من التحسّن النسبي الذي حصل في تعامل الحركة الشيوعية مع رجال الدين والإيمان الديني والمؤسسات الدينية، إلّا أن غالبية برامجها، لاسيّما الحاكمة منها، ظلّت حتى وقت قريب (أي قبيل انهيار التجربة الاشتراكية) تشترط مبدأ الإلحاد (الحزب الشيوعي السوفييتي نموذجاً) وإن كان هناك مؤمنون إلّا أنه لا يحق لهم الدعاية للإيمان.

لعلّ الكثير من المنخرطين في الحركة الشيوعية تصرفوا بصبيانية إزاء الظواهر الدينية بصورة علنية أو شبه علنية أو ما يدلّ ويؤشر على ذلك، ولم يدركوا التأثير المهم للدين إلّا في وقت متأخر، وذلك بسبب الأدلجة وادعاء الأفضليات، ناهيكم عن أساليب الدعاية والترويج التي استخدمت في الدول الاشتراكية السابقة، حيث كانت المعلومات التي تضخّها إلى العالم موجهة وغير دقيقة إن لم تكن مبالغاً فيها أو مغلوطة، أي «دعائية». وكان الاعتقاد السائد أن حرية الأديان وحق ممارسة الشعائر الدينية كان مكفولاً في الدول الاشتراكية، واتضح لاحقاً أنهما معقّدتان وغير محلولتين، بل إنهما كانتا الأكثر التهاباً واستفزازاً بعد مسألة الحريات والوضع الاقتصادي وشحّة المدخول.

قد يكون بعض المواقف التي اتّخذتها الدول الاشتراكية ومن ورائها الحركة

الشيوعية ضد رجال الدين تعود إلى الحملة الأيديولوجية والدعاية التي اتهمتها بأنها ضد الأديان وتورّط بعض رجال الدين، بل وانخراطهم ضد إجراءاتها الاجتماعية، لكن ذلك الأمر غير مبرر، خصوصاً إذا ما بحثنا في الجذر الفكري والسياسي الخاطئ إزاء حرية المعتقد والحق في الإيمان والحق في ممارسة الشعائر والطقوس الدينية، تلك التي وجدت طريقها إلى بعض الدساتير، لكنها كانت حبراً على ورق في الواقع العملي، وهو ما ينقده الزعيم فيدل كاسترو في مراجعاته حول الدين.

* * *

الثورة والكنيسة

سأل فراي بيتو الزعيم الكوبي كاسترو الذي حاوره حول الدين: «**هل أغلقت الثورة الكنائس بعد انتصارها**»؟، لأنه كان قد سمع وهو صغير كما يقول أن على الكنيسة أن تدعو لمحاربة الشيوعية والاشتراكية، لأن انتصارهما يعني إغلاق الكنائس وقتل الرهبان واغتصاب الراهبات وشنق الأساقفة. ولعلّ مثل هذا السؤال وإنْ كان جزءًا من الدعاية المعادية، فإن له أساساً في الواقع حيث التصرفات الخاطئة بعد ثورة تشرين الأول (أكتوبر) في روسيا وفي الدول الاشتراكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ وثمة علاقة مع أميركا اللاتينية، لاسيّما إبان الحكم العسكري في البرازيل، حيث لوحق وعذب الأساقفة. وهو ما ارتبط بالأذهان من أن الثورات غالباً ما تصطدم مع رجال الدين.

وإذا أردنا استعراض علاقة الكنيسة تاريخياً بالثورات الكلاسيكية، بما فيها الكنيسة الكاثوليكية، فقد حصل نوع من الاصطدام، وشمل في عهد الإمبراطوريات القيصرية مع الكنيسة الأرثوذكسية وفي الثورة المكسيكية في المكسيك، وهو ما

قد استعاده كاسترو في جوابه، حين أشار إلى أن حركة الإصلاح الديني ولّدت سلسلة من الصدامات العنيفة، لاسيّما مع بروز حركة مارتن لوثر (Martin Luther) وحركة جين كالفن (Jean Calvin) (الإصلاحيتين) وظهور الكنائس المتعددة. وقد ترافق ذلك مع نشوء حركة الإصلاح والاحتجاج عنفاً وإراقة للدماء، مثلما سبقها العنف والعسف الذي اتسمت به محاكم التفتيش؛ ولعلّ

الدولة والكنيسة مارستا عنفاً متبادلاً، لاسيّما في ظل التطورات السياسية والاجتماعية، ويمكننا القول إن السيد المسيح ذاته كان ضحية العنف، مثلما كان ضحايا كنيسة روما الوثنية القديمة، ولم تخلُ نزاعات الكنيسة ذاتها من العنف أيضاً، بما فيها التصفيات المتبادلة.

لقد دفعت الثورة الفرنسية وهي حدث عالمي تاريخي للتطور الإنساني، لاسيّما الشعارات التي رفعتها الحرية والإخاء والمساواة، إلى الصدام مع الكنيسة أو مع جزء منها، لأن الثورة انطلقت من البرلمان (الجمعية الوطنية) التي كانت تمثل ثلاث طبقات اجتماعية متمايزة وهم:

1.النبلاء.

2.الكهنة.

3.الطبقة الوسطى، الممثلة للتجار والمهنيين والحرفيين وبعض هؤلاء من الرهبان والأساقفة، وكان هؤلاء قد انحازوا إلى الثورة ولا يمكن إغفال دورهم فيها، وبعضهم ذهب ضحية العنف أيضاً.

وإذا ما توقفنا عند الثورة البلشفية التي قادها لينين العام 1917 (ثورة تشرين الأول/أكتوبر/الاشتراكية)، فقد وقفت الكنيسة ضدها واحتدم الصراع بين الطرفين، وأقدمت حكومة الثورة على إعدام بعض الرهبان وقلّصت نفوذ الكنيسة وحاولت تدجينها باتخاذ إجراءات إكراهية ضدها، ولم يكن ذلك بعيداً عن الجذر الفكري والسياسي لفهم مغلوط عن الدين وكيفية التعاطي مع الإيمان الديني، مع ردود أفعال ضد تيار الكنيسة المناهض للثورة.

ويتناول كاسترو ما حصل خلال الحرب الأهلية الإسبانية حيث ذهب عدد من الرهبان ضحية العنف وأريقت الدماء على نحو واسع، ولكنه يميّز الثورة الكوبية وينزّهها من أعمال عنف ضد رجال الدين لأسباب تتعلق بإيمانهم، حيث يقول: إنه لم يعدم أي أسقف أو راهب أو يعامل بقسوة أو يعذب، وذلك لأن الثوار كانوا قد أصدروا قوانين (المقصود مشاريع لقوانين أو قرارات) تقضي بالامتناع عن التعذيب والقتل عندما كانوا في جبال السيرامايسترا، كما يقول إنه

لم يُعدم أي من رجال باتيستا أو يعذّب أو يرغم على الإدلاء بمعلومات، لكننا كما يقول كاسترو حاكمنا الجواسيس وأصدرنا حكماً بحقهم بما فيه الإعدام.

وإذا كان كاسترو يتحدث عن الجانب الأخلاقي في الثورة وعن القيم والمثل الإنسانية، وتلك هي التي يضحي المناضل من أجلها، فكيف تستقيم علاقة تقبل بممارسات منافية لها. ويغض النظر عمّا تقوله أجهزة الدعاية وخصوصاً في الولايات المتحدة حول القسوة والعنف التي لقيها الخصوم أو الأعداء، فإن هناك بعض القوانين ذات العقوبات الغليظة التي يمكن أن تحكم بالإعدام من تتهمهم بالعمل ضد الثورة. ويفاخر كاسترو بأن الكثير من الثوريين كانوا على رأس المنظمات المعادية التي تجاوزت الـ300، وبهذه الطريقة كنّا نحصل على المعلومات وكما نريد، عبر اختراقات أمنية محكمة، ودون اللجوء إلى التعذيب أو العنف.

وكانت بعض الأحكام التي صدرت بحق ثلاثة رهبان شاركوا في غزو كوبا مع عناصر الثورة المضادة المدعومة من واشنطن؛ ومع أنهم مدانون «بالخيانة العظمى» إلّا أنه لم يصدر حكم الإعدام بحقهم، ثم أطلق سراحهم لاحقاً ولم يكملوا فترة العقوبة الكاملة. وكان كاسترو يقول: لا نريد أن نعطي مبرراً للقوى الامبريالية والرجعية، بأننا نتصرف بشكل قاسٍ ضد رجال الدين، «ولم نرغب في زج الرهبان في السجون حتى ولو كانت العقوبة مبررة» (فيدل كاسترو والدين، حوارات مع فراي بيتو، مصدر سابق، ص 165-166)

وقد لجأت الثورة عند احتدام المواجهة السياسية إلى التضييق على الكنيسة، فطلبت من الرهبان الأسبان مغادرة البلاد وسحبت تصاريحهم بالإقامة، واستغرق الأمر وقتاً ليس بالقصير لتطبيع العلاقات، وكان أحد الكرادلة قد لجأ إلى دار السفارة الأرجنتينية أثناء غزو خليج الخنازير (النصف الثاني من نيسان/ ابريل/ 1961) حين بقي في بيت السفير الأرجنتيني، وكانت الأرجنتين قد أقدمت في شباط (فبراير) العام 1962 على قطع علاقاتها مع كوبا، وقتها أقنع القائم بأعمال كرسي الأسقفية الكاردينال بالبقاء في كوبا، وعومل بشكل لائق

حيث نُقل إلى دار للاستجمام لكبر سنه في منطقة ماريانو، وحاول كاردينال آخر تنظيم انتفاضة مسلحة في محافظة أوريتني، ونظم فريقاً لحرب العصابات، لكنه لم يعدم وإنما حُكم بالسجن.

ولعلّ من أخطاء الثورة الكوبية إزاء الدين والإيمان الديني، مثلما هي أخطاء السلطات الاشتراكية، هي أنها لم تسمح للمسيحيين بالانضمام إلى الحزب الشيوعي، ويبرر كاسترو هذا التوّجه بالسعي لأن يكون حزباً علمانياً في المستقبل، وهل يمكن «المسيحي» الانضمام إلى حزب علماني؟

* * *

كاسترو والدين

منذ اللقاء التاريخي بين ماركس (Karl Marx) وإنجلز (Friedrich Engles) وصدور «البيان الشيوعي» في العام 1848 (المانيفاستو) Manifesto وجهت الماركسية الجدل الفلسفي والاجتماعي التاريخي إلى بؤس الإنسان وأسبابه لا فيما يتعلق بالتفسير فحسب، بل انصبَّ الاهتمام على التغيير، وقد اصطدمت بالكثير من الدعاوى التي حاولت البرجوازية التعكّز عليها ومنها التستر بالدين وارتداء جلبابه أحياناً، ليس دفاعاً عن مملكة السماء، بل للدفاع عن مملكة الأرض «المقدسة»، ونعني بذلك «نظام الملكية» الذي لا يمكن المساس به، وليس لمثل الدين قدرة «أسطورية» على المواجهة مع الماركسية، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالملكية، أو إذا جرى التعرض لما استقرت عليه المجتمعات، لاسيّما المساس بالقواعد والأنظمة والقوانين السائدة التي تحمي مصالحها. وكان «اتهام» الماركسية، بالإلحاد والوقوف ضد الإيمان الديني، واحداً من الأسلحة الماضية التي استخدمت ضدها.

أنقل هنا حديثاً لأحد أساقفة المسيحية، وهو الرئيس السابق لأساقفة كانتربري عن علاقة رأس المال بالدين. ولعلّ مثل هذا الفهم قريب من التفكير الماركسي حين يقول: «إن الرأسماليين يعبدون المال ستة أيام في الأسبوع ويذهبون إلى الكنيسة في اليوم السابع»، ولعلّنا من خلال تجاربنا نعرف، كم من الذين لا علاقة لهم بالدين في سلوكهم وتعاملهم، ينتظرون موسم الحج للذهاب

إلى مكة، ليغسلوا ذنوبهم كما برر أحد المعارف من رجال الدين، ولا يهمّ إن عادوا إلى عاداتهم، ولعلّهم ليسوا بعيدين عنها حتى عندما يكونون في أوج تأديتهم للفروض الدينية، وفي الأماكن المقدسة أحياناً، وفي مقدمتها بيت الله الحرام.

إن مملكة المستغلّين هي الأرض، وليأخذ المؤمنون مملكة «السماء»، لهم وحدهم، ولذلك فقد سعى المستغلون لمنع أية تحالفات بين المؤمنين سواءً أكانوا متدينين أو غير متدينين وبين الماركسيين الذين تجمعهم أهدافٌ مشتركة ومُثلٌ وقيم ومبادئ مثل الحرية والعدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان، بغض النظر عن الدين واللون والجنس واللغة والقومية والانحدار الاجتماعي؛ ذلك أن المؤمنين والماركسيين، والمتدينين والعلّمانيين، يكتشفون في المُثل المشتركة والجامع الإنساني جوهر الحياة البشرية، فالمسيح والنبي موسى والنبي محمد في لحظة من لحظات النقاء التاريخي قدّموا ملكوت السعادة للفقراء والمظلومين، مثلما يحاول الماركسيون تقديمه، وإن كان كل من زاويته، إلّا أن الأمر له علاقة بالصيرورة الإنسانية، فهو ليس بعيداً عن حلم البشرية للقضاء على الاستغلال وتحقيق حلم الإنسان في الحرية والعدالة والرفاه.

وإذا أردنا تطبيق ذلك على أوضاعنا الراهنة فإن ما قدمه لاهوت التحرير في أميركا اللاتينية ونضال بعض القوى الدينية، الإسلامية المعادية للإمبريالية والصهيونية في منطقتنا، التقى إلى حدود كبيرة مع نضال التيار الماركسي، ولعلّ حواراً مفتوحاً وعلنياً واسعاً لا بد أن ينفتح بين المؤمنين وغير المؤمنين، بين المسلمين والمسيحيين وغيرهم، وبين الماركسيين والعلمانيين من جهة أخرى، لاسيّما في قضايا التحرر ومكافحة الاستغلال ومناهضة الاستبداد، ناهيكم عن العدل والمساواة والسلام وقضايا التقدم الاجتماعي.

إن مصدر الشقاء الإنساني هو الاستغلال، ولكي يتم استئصال شأفته لا يمكن انتظار ما تمطره السماء، بل إن العمل والكفاح سيكونان كفيلين بإشاعة الحرية والحب والعدل والمساواة، تلك التي بشّر بها الرُسُل والأنبياء

والمصلحون الدينيون والاجتماعيون، وهو ما تبشّر به الماركسية التي تدعو إلى حياة إنسانية تليق بالإنسان.

إن الشوق إلى العدل هو الرسالة المباركة الأساسية لكل من يريد أن يتعمد بالمناعة ضد فيروس الاستغلال والظلم، سواءً أكان متديناً أو ماركسياً، حالماً بمستقبل جديد للبشرية.

في العام 1988 نُشر كتاب في بيروت وعدن بعنوان مثير هو «فيدل كاسترو والدين»، ومثل هذه العناوين لاسيّما لقادة ماركسيين مثيرة إلى حدود كبيرة، خصوصاً وهي تتحدث عن تابوهات ظل الكثير من الماركسيين، لاسيّما في عالمنا العربي والإسلامي يتجنبونها، وبخاصة بعد «مرحلة الطفولة الثورية» التي مرّت بها الماركسية في بلداننا، حيث تعاملت بخفة ونزق وسذاجة كبيرة في قضايا تخصُّ معتقدات الناس، وبسببها تعرضت إلى نكسات كبيرة، والأمر له علاقة بموضوع الفهم الخاطئ للموقف من الدين وتعاليمه. وهو ما اعترف به فيدل كاسترو في حواراته مع فراي بيتو عندما قال في معرض تقييمه لسنوات الثورة المبكرة: «لقد شُددنا بإحكام إلى أكاذيب وأُرغمنا على العيش معها، لذلك يبدو العالم مرتبكاً عندما نسمع الحقيقة».

إن حوار كاسترو مع راهب دومينيكاني من البرازيل هو فراي بيتو يزيل الكثير من الغشاوة الكثيفة التي غلّفت مواقف الماركسيين والشيوعيين من الدين، وهو يبحث في المشترك الذي يجمع الماركسيين والمسيحيين، وذلك بأسلوب أخاذ على نحو مدهش، الأمر الذي لم يتم التوقف عنده في بلداننا منذ أن قاربنا الموقف من الدين سلبياً، ثم ابتعدنا وكأنه تابو يمنع الدخول في مناقشته أو الحوار حوله.

الحوار الطريف والعميق تمّ بين رجل دين كاثوليكي يمارس شعائره وطقوسه بإيمانية، مع قائد شيوعي يؤمن بالماركسية، وهو ما ذكّرني بحواري مع المطران جورج خضر (مطران البترون وجبل لبنان) الذي قدّم لكتابي «فقه التسامح في الفكر العربي- الإسلامي: الدولة والثقافة»، دار النهار، بيروت، 2005، وكنت قد عبّرت عنه في الندوة الفكرية التي نظمها المجلس الثقافي

للبنان الجنوبي بإدارة الأديب حبيب صادق، والتي شارك فيها إضافة إلى المطران خضر، الناقد السوري محمد جمال باروت.

قلت عندما قرأ المطران مخطوطة الكتاب، لاسيّما الفقرة الخاصة بالمسيحية، توقف قليلاً ليقول: «كنت أشعر كأن مسيحياً يقف خلف شعبان ليكتب ما كتب»، وهو ما دعاه بعدها إلى نقده بكتابة مقدمة له، وقد سرّني ذلك كثيراً، ثم بادر إلى سؤالي: «ولماذا تفضل أن أكتبها أنا دون سواي»، أجبته: «لأنك مسيحي وأرثوذكسي لبناني، وأنا من عائلة عراقية عربية مسلمة، وأنت من جبل لبنان وأنا من النجف، وأنت رجل دين ومطران البترون وجبل لبنان، وأنا من عائلة دينية، لها مكانتها في حضرة الإمام علي، وأنت متديّن وأنا علماني، وذلك وحده يكفي لكي نتحدث من موقعين متوازيين عن التسامح»، وقال لي: «ولهذه الأسباب أنا متحمس لكتابة المقدمة»، التي وصلتني بعد أربعة أيام من تسلّمه المخطوطة، وكانت قطعة أدبية- فلسفية رصينة وجامعة وإنسانية.

بعدها سردت عليه تلك الحكاية التي كنّا نتناقلها منذ سنوات طويلة ومفادها أن «رجل دين مسلماً أدار حواراً مع ماركسي ودام الحوار أكثر من ستة أشهر، تأثر الثاني بالإسلام وأبدى إعجابه به، لكن الأول كان قد تأثر بالماركسية وأبدى إعجابه بها، وهو ما تمّ الاتفاق عليه بينهما لمواصلة العمل المشترك والحوار المستمر وكل من موقعه». وأنا أقرأ حوارات كاسترو مع بيتو تملّكني الشعور ذاته لأن كلّا منهما بنى حججه على المنابع الأصيلة للمسيحية أو الماركسية، دون أن يتخلى أي منهما عن أفكاره، لاسيّما الفهم الأكثر عمقاً للأخلاق والسياسة والاستغلال، ثم الحاجة للعمل المشترك لمصلحة الفقراء.

لقد راهن الكثيرون على الاختلاف العقائدي بين المسلمين والماركسيين وبين الماركسيين والمسيحيين وغيرهم، وهو اختلاف لا يمكن ولا ينبغي إنكاره أو تجاوزه، أو محاولة التوفيق بينه على المستوى الفكري مثلما درجت بعض الدراسات لإيجاد مصالحة بين الإسلام والاشتراكية في الخمسينيات والستينيات، وبين الإسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان في الثمانينيات والتسعينيات وما بعدها، لكن تلك المحاولات لم يكن حظها في النجاح وفيراً، فلكلٍ حقله

ونطاقه الفكري، دون إهمال المشترك في قضايا النضال السياسي والاجتماعي والحقوقي. ولعلّ هذا المشترك هو إزاء الحياة الراهنة والممارسة الضرورية، التي تحتاج إلى حيّز مهم من المهارة الفائقة للتلاقي، خصوصاً إذا وضع الطرفان مصلحة الناس وحقوقهم بنظر الاعتبار.

عندما اطلعت خلال مشاهدتي الكوبية على استعادة الكنيسة لدورها سألت عن موقف كاسترو والحزب الشيوعي من الدين، وهو الذي دلّني على الانطباعات الإيجابية الأولى لكاسترو يوم كان يافعاً، ثم اطلّعت على أحاديثه ما بعد فترة انقطاع عن الدين، لاسيّما في العام 1971 في لقاء مع رجال الدين الكاثوليكيين في تشيلي ولقائه العام 1977، بالقساوسة الجامايكيين، وتذكّرت ما كان يردده بعد انتصار الثورة وأيامها الأولى من أن «من يخن الفقراء يخن المسيح»، خصوصاً فترة التنافر الشديدة مع الكنيسة.

تلقّى كاسترو تعليمه الأولي والثانوي في أفضل المدارس الكاثوليكية في كوبا، لاسيّما رسالتها الأخلاقية، التي شكلت بُعداً استراتيجياً ناظماً لممارسته الثورية. وقد قال آرماندو هارت (Armando Hart) عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكوبي ووزير الثقافة الأسبق، إنه وُجد «ينبوعان من أهم الينابيع التاريخية للفكر والعاطفة الإنسانيين: المسيحية والماركسية، اللتان صوّر أعداؤهما أنهما خطّان متوازيان لا يلتقيان أبداً»، ويمكنني القول إن الدين في أميركا اللاتينية كما في بعض التجارب العربية، لاسيّما في موضوع النضال التحرري ضد الصهيونية والإمبريالية، وجد دروباً جديدة مدهشة، الأمر الذي يستحق وقفة جدّية للتفكير والبحث والعمل والنقد الذاتي أيضاً، لاسيّما للأخطاء والثغرات التي مورست خلال العقود الماضية من الزمان.

* * *

سيرامايسترا- ردفان:
رمزية الخيار الماركسي!

لا أدري لِمَ كانت تخطر في بالي صورة عدن وأنا أزور هافانا وأكتب انطباعات شخصية ممزوجة بالرمزية والألم والقلق على المستقبل ومنه. لعلّ الأمر يعود إلى أن هاتين التجربتين قد انتصرتا بالزحف على المدن، انطلاقاً من جبال السيرامايسترا (كوبا) وجبال ردفان (اليمن)، كما أنهما لجأتا إلى الكفاح المسلح وتشكيل خلايا سرّية عسكرية وبؤر ثورية، وعمدتا إلى استمالة الأطراف وصولاً إلى المركز «العاصمة».

فالثورتان أعلنتا منذ وقت مبكر عن تبنّيهما للخيار الاشتراكي (الماركسي) من دون تهيئة مستلزماته، بل إنَّ الحماسة الثورية والإرادة السياسية قادتهما إلى مثل هذا الخيار من دون أن تنضج ظروفه.

كذلك فإنهما انتقلتا إلى مواقع الماركسية وهما في السلطة؛ فقد كانت حركة 26 تموز (يوليو) التي أسسها كاسترو كمنظمة ثورية هي التي قادت الثورة ونجحت في إحراز النصر والوصول إلى السلطة، بالرغم من تحفظ التيار الماركسي الشيوعي الرسمي، وأجرت فيما بعد حوارات مطوّلة مع الحزب الشيوعي ومنظمات أخرى يسارية، حتى حصل الاندماج بينها تحت اسم «الحزب الشيوعي الكوبي» بحلّته الجديدة بقيادة كاسترو.

واستطاعت «الجبهة القومية» التي تعود أصولها إلى حركة القوميين العرب، قيادة الثورة والانتصار فيها، وفيما بعد أجرت حوارات مع قيادات شيوعية

(منظمة اتحاد الشعب- عبد الله باذيب، والحركة القومية العربية، وحركة الطليعة البعثية الأصول) وصولاً إلى قيام تنظيم موحد هو الحزب الاشتراكي اليمني الذي أعلن عن توجهه الماركسي.

وكلتا التجربتين أقامت علاقات مع المنظومة الاشتراكية السابقة، فيها من الاتفاق مثلما فيها من الاختلاف الشيء الكثير، وقد وقفت التجربتان موقفاً نقدياً إلى حدود معينة من بعض التطبيقات الاشتراكية ومن الخلاف الصيني- السوفييتي. وبالرغم من ميل سالم رُبَيّع علي (سالمين) إلى التيار الصيني، فإن ميل عبد الفتاح إسماعيل إلى التيار السوفييتي كان مؤثراً وواضحاً، ويقدر انتقادات جيفارا للتوجّهات السوفييتية وللتطبيقات الاقتصادية، بروح رومانسية، فإن ميل الثوريين اليمنيين «المتمركسين» دفعهم إلى اتباع طرق جديدة، لا تخلو من الرومانسية. وأتذكّر أنني شاهدت مستغرباً العام 1974 تظاهرة شعبية يقودها معدمون تطالب بتخفيض الرواتب وهو ما أستذكره بمرح في كل مرّة ألتقي فيها الصديق محمود راشد مسؤول قسم المجتمع المدني في جامعة الدول العربية في القاهرة، وهو ما استعدته مع الصديق عبد الباري طاهر نقيب الصحافيين اليمنيين الأسبق، فلا عجب أن يخرج الصيادون والكادحون يعلنون برومانسية عالية خيارهم بالرغم من بؤس الواقع.

لقد أعطت التجربتان للحافز المعنوي الشيء الكبير، مع إعلاء لافت للجانب الرومانسي الرمزي على حساب الواقع المادي. وكلتا التجربتين عاشت شحّاً في المواد الأساسية والغذائية وتعرّضت لحصار جائر استمر سنوات طوال، وإن كان حصار كوبا أكثر شمولية وقــوة وطولاً.

كما أنهما شكّلتا تحدّياً كبيراً للمواقع الامبريالية؛ فالتجربة الكوبية بالقرب من الشواطئ الأميركية، وعلى بعد 90 ميلاً منها، واليمن في عمق الجزيرة العربية، والخليج العربي، والعالم العربي كله. كوبا كانت نتوءًا في أميركا اللاتينية، واليمن كانت كذلك في الجزيرة العربية، والخليج العربي والعالم العربي.

التجربتان هما الأوليتان من نوعهما في الخيار الاشتراكي الماركسي، الأولى في أميركا اللاتينية والثانية في العالم العربي.

لكن مسارهما اختلف بعد ذلك، ففي اليمن انتكست التجربة بعد مرور 23 عاماً على الرغم من أنها حققت بعض المنجزات المهمة على صعيد التحول الاجتماعي والاقتصادي وحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل بصدور قانون تقدمي للأحوال الشخصية، إضافة إلى حقوق «الشغيلة» فضلاً عن إعلاء شأن الثقافة والمثقفين، أما في كوبا فلا تزال التجربة مستمرّة وقائمة بالرغم من العواصف التي تحيط بها، وبالرغم من الاختناقات التي تعاني منها، وبالرغم من شظف العيش الذي يعيشه السكان منذ ما يزيد عن 50 عاماً بسبب الحصار الأميركي الجائر.

لقد جرى اتهامهما بالإلحاد والتجاوز على الدين، وإن كانت بعض التصرفات اللامسؤولة قد برزت هنا وهناك، فإن هاتين التجربتين على الرغم من جذريتهما وتطرفهما أحياناً لم تتعارضا مع المعتقدات الدينية، وأظن أن حوار كاسترو مع الراهب الدومينيكاني فراي بيتو وحوار عبد الفتاح إسماعيل مع أدونيس كان قد أعطى توجهاً جديداً لا لكوبا واليمن فحسب، بل للحركة الماركسية العربية برمتها.

التجربتان الكوبية واليمنية وقفتا كل من موقعها الخاص بها، موقفاً متحفظاً إزاء ما أطلق عليه بالبريسترويكا، على الرغم من أن علي ناصر محمد الرئيس اليمني الأسبق وقبل أحداث 13 (كانون الثاني) يناير 1986 حاول التساوق معها، بتصريحات ومقابلات، لكن عبد الفتاح إسماعيل والاتجاه التي تبع نهجه بعد مقتله، وأعني بذلك قيادة علي سالم البيض وسالم صالح ود. حيدر أبو بكر العطاس لم يحبّذوا كثيراً التوجه الغورباتشوفي وإنْ لم يعلنوا معارضتهم له؛ ففي الوقت الذي كان فيه الراحل إسماعيل يعلن تمسكه بالخيار الاشتراكي عقائدياً، كانت قيادة غورباتشوف توجه النقد تلو الآخر للتطبيقات الاشتراكية.

كنت قد أشرت في مكان آخر من هذا الكتاب إلى ما شدّني للتجربة

الرمزية الكوبية منذ 50 عاماً ونيف، لكن ما شدّني للتجربة الرمزية اليمنية يعود إلى كفاح اليمنيين من أجل الانعتاق من الاستعمار البريطاني ونيل الاستقلال، ومن ثم إعلان انتصارها، وانحيازها للتيار الأكثر جذرية يومها، وأعني بذلك الجبهة القومية بقيادة قحطان الشعبي ضد قيادة جبهة التحرير بقيادة عبد القوي مكاوي، واتّسم هذا الانتصار بوصول اليمن لنيل استقلالها وبداية مرحلة جديدة من الاهتمام الثوري فيها.

أتذكّر يومها أن الحركة الاشتراكية العربية نظمت احتفالاً في جامعة بغداد كنت من المدعوين والداعين له، ارتباطاً مع صداقتي التاريخية مع عدد من قيادة الحركة في الجامعة، ومنهم صباح عدّاي وسمير العاني وهاني إدريس وآخرون، إضافة للعلاقة التاريخية مع عبد الإله النصراوي أمين عام الحركة، فضلاً عن تأثري الايجابي من باب الترحيب بانتقال أقسام من حركة القوميين العرب إلى صف الماركسية، على الرغم من أنني كنت قد دخلت في حوارات أشرت إليها لاحقاً في الثمانينيات، حول أهمية وضرورة وجود تيار وسطي عروبي جامع، وليس بالضرورة، إعلان الانحياز ماركسياً، ولعلّ مثل هذا التيار يشكّل حاجة ماسة من موقعه، لاسيّما إذا اتخذ مواقف ايجابية من قضايا التقدم الاجتماعي وربط ما هو عروبي بما هو اجتماعي، بما يعزز التيار الماركسي ذاته. ويمكن الإشارة إلى تجربة منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح اللتين كانتا محطّ اهتمامي على هذا الصعيد، لاسيّما في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لاحقاً، خصوصاً في إطار حركة التحرر الوطني الفلسطيني.

* * *

هدني السجن وأدمى القيد ساقي ... فتعاييتُ بجرحي ووثاقي

وأضعتُ الخطو في شوك الدجى ... والعمى والقيد والجرح وثاقي

ومـلـلـتُ الـجـرح حـتـى مـلّـنـي　　　جـرحي الدامي ومـكثي وانطلاقي
في سـبـيـل الـفـجـر ما لاقـيـت في　　　رحـلـة الـتـيـه ومـا سـوف ألاقـي
سـوف يُـفـنـى كـل جـسـم وقـوى　　　كـل سـفـاح وعـطـر الـجـرح بـاقـي

(الشاعر اليمني عبد الله البردوني)

* * *

هواجس عدن وقلق هافانا

إذا كان هاجس الوحدة أساسياً لدى عدن، بقدر رومانسيته وصميميته، فقد كان خياراً واقعياً، لكنه قاد إلى تغيير مسار التجربة، بل قاد إلى وأدها، وهي التجربة الماركسية العربية الأولى، وإن كان الأمر عن طيب خاطر، لكن ما حصل ألقى بظلاله على المستقبل اليمني وإلى حدود معينة ترك تأثيره على العالم العربي، خصوصاً مع نكوص التجارب الاشتراكية عالمياً. لقد عصفت المشاكل باليمن الديمقراطية، لاسيّما إثر انهيار منظومة الدول الاشتراكية دولة إثر دولة وانتظار الاتحاد السوفييتي على الأبواب للتفكك ونزع خياره الاشتراكي، الأمر الذي ساهم في الإسراع بطلب الوحدة وتحقيقها، وبالأخص بعد توقف المساعدات المقدّمة لليمن ووصول النظام الاشتراكي إلى طريق مسدود، وهو ما دفع بقادة اليمن الديمقراطية للقبول بحلول تؤمن خلاصاً للأزمة من جهة، وتحقيقاً لحلم طالما بذل الماركسيون اليمنيون الكثير من أجله من جهة أخرى، لاسيّما بعد تأسيس الحزب الاشتراكي اليمني.

أما خيار كوبا فقد كان التمسك بالتجربة على الرغم من وصول البلاد إلى حافة الانهيار (مطلع التسعينيات)، لاسيّما بعد وقف الدعم السوفييتي على نحو مفاجئ، كما تمّت الإشارة إليه في مكان آخر من هذا الكتاب، وكذلك تأثيرات الحصار الاقتصادي الجائر المفروض عليها.

وعلى ذكر الإصرار اليمني الديمقراطي على الوحدة بين الشطرين الجنوبي والشمالي فقد كانت محور نقاش منذ العام 1967 وحتى تحققها في العام

1990، واستمر الجدال والسجال ولا يزالان حتى الآن، لاسيّما بعد حرب العام 1994؛ فالوحدة التي سعى إليها الجنوبيون بحماسة شديدة دفعت بعض القيادات إلى خيار المجابهة بسبب الشعور بالغبن وتراكم بعض السلبيات.

لكن الخيار العسكري لم ينجح، ممّا دفع بقادة الحزب الاشتراكي اليمني وكوادره لمغادرة البلاد إلى المنفى، حتى استعاد الحزب مكانته في إطار مصالحة وتسوية سياسية بقيادة ياسين نعمان سعيد وجار الله عمر ورفاقهما، متمسكاً بخيار الوحدة بالرغم من النواقص والثغرات والمثالب، التي رافقتها والسياسات التي تمّ اتباعها، لاسيّما بعد العام 1994 بخصوص الجنوب بشكل خاص وقضايا الإصلاح والديمقراطية بشكل عام، الأمر الذي أثار تداعيات ما سميّ بالحراك الجنوبي، الذي ساهمت فيه مجموعة من قيادة الحزب الاشتراكي السابقة بقيادة علي سالم البيض، وعمدت للمطالبة بما دعته "الحقوق" وإعادة القديم إلى قدمه، والعودة إلى التشطير بدل التأطير، لاسيّما وإنها تحمّل أسباب ذلك إلى النهج الذي ساد بعد الوحدة التي سعت إليها بإرادتها.

إنّ 23 عاماً يمنيّاً من التجربة الماركسية، كانت تعني 23 عاماً من الصراع من أجل الوحدة في منطقة شديدة الحساسية على صعيد الإستراتيجية الدولية، خصوصاً واليمن الجنوبي يشرف على مضيق باب المندب، الممر التجاري الحيوي، لاسيّما في فترة الحرب الباردة في الستينيات والسبعينيات بكل عنفوانها بين الشرق والغرب.

وأود هنا أن أشير إلى دراسة قيّمة صدرت مؤخراً بقلم وليد محمود عبد الناصر بعنوان «أول تجربة ماركسية عربية: عشرون عاماً على الأفول» كانت قد سلّطت الضوء الكاشف على التجربة اليمنية في الفترة المذكورة (مجلة وجهات نظر، القاهرة، العدد 136، أيار/مايو/2010).

ومن الكتب والدراسات التي عالجت التجربة اليمنية كتاب الأكاديمي والكاتب البريطاني الفريد هاليداي «جزيرة العرب بلا سلاطين» الصادر العام 1970، والذي أعيد طبعه مع بعض التعديلات والتنقيحات العام 2002، وكتابه

الآخر بعنوان «الثورة والسياسة الخارجية: حالة اليمن الجنوبي ما بين 1967 و1987»، ويمكن الإشارة إلى ما كتبه الكاتب والمفكر اللبناني فوّاز طرابلسي الذي رافق التجربة منذ بداياتها وكتب عنها، بما فيها عشية غروبها، أي بعد أحداث 13 (كانون الثاني) يناير 1986 الدموية وعشية الوحدة في مجلة زوايا التي صدرت في باريس وتوقفت بعد إبرام الوحدة، وفي كتابه «وعود عدن» الذي صدر عن دار رياض نجيب الريس في شباط (فبراير) العام 2000.

وأقتبس من كتاب طرابلسي هذه الفقرة الجميلة: «عدن صخرة رماها طائر الرخ على باب المحيط الهندي، براكين بحرية مشدودة بحبل سرة من الممالح والرمال إلى شبه الجزيرة العربية، عدن كيف أدخلك؟ أمن قلعة صيرة كما فعل الفاتحون، أم من دار سعد وطريق تعز مع جحافل الثوار؟ أم أتهادى إليك على طريق أبين مع قوافل البخور القديمة؟ من أي الجهات آتيك؟ أيتها الممتدة بين ساحل العشاق ورأس معاشيق، مبتداك عشق ومنتهاك عشق، فما بالك مشغولة بالتفاريق؟».

وقد أصدرتُ كتاباً تحت اسم حركي (مستعار) هو خالد محمد بعنوان «الاثنين الدامي في عدن» الذي تناولت فيه أحداث جرت فصولها الدموية في مدينة عدن يوم الاثنين 13 كانون الثاني (يناير) 1986وشكّلت إحدى المحطات الكارثية ودورات العنف خلال حقبة التشطير الملغومة بالصراعات والتصفيات لعدد من الشخصيات القيادية اليمنية ومنهم، عبد الفتاح إسماعيل، علي عنتر، صالح مصلح قاسم، علي شايع هادي، علي اسعد مثني وكوكبه كبيرة من أعضاء اللجنة المركزية ونحو 13 ألفاً (ثلاثة عشر ألفاً) من المواطنين الأبرياء.

لقد كان هدف الوحدة بين شطري اليمن حاضراً باستمرار على جدول أعمال الفرقاء ولاسيّما في الجنوب، وتحت عنوانها وباسمها تمّ التخلص من أول رئيس لليمن الجنوبي قحطان الشعبي 1969، وكذلك من سالم رُبَيّع علي (سالمين) 1978 بعد تعرض نظيره إبراهيم الحمدي وشقيقه إلى اغتيال في ظروف غامضة وتولي أحمد حسين الغشمي الرئاسة ومن ثم تعرضه هو الآخر

للاغتيال إثر استقباله مندوباً من قبل سالم رُبَيّع علي (سالمين) يحمل رسالة خاصة، فإذا بحقيبته تنفجر ويلقى الغشمي وحامل الرسالة حتفهما معاً، الأمر الذي أشار بأصابع الاتهام إلى الرئيس الجنوبي سالم رُبَيّع علي (سالمين) وهو ما تمّ استثماره في الصراع الحزبي الداخلي، حيث أعلن عن مصرع «سالمين» في ظروف غامضة، خصوصاً بعد اتهامه بخيانة أهداف الثورة الطبقية والأيديولوجية، حسبما ذكر بيان صدر إثر اجتماع القيادة الطارئ، لكن ذلك لم يُبعد الخلافات عن الانفجار في إطار ما سمي بالقيادة الجماعية، حيث تمّ إبعاد عبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للحزب ومنظّره ورئيس البلاد إلى موسكو واحتفاظ علي ناصر محمد بالرئاسة إضافة إلى الأمانة العامة.

وفي العام 1985 عاد عبد الفتاح إسماعيل إلى أمانة الحزب ليعود الصراع وينشب بين جماعة الرئيس علي ناصر محمد وجماعة عبد الفتاح إسماعيل في أحداث 13 كانون الثاني (يناير) 1986 الدامية حيث قتل هذا الأخير، وهرب علي ناصر محمد ليستقر في مدينة دمشق لاحقاً، واستلم علي سالم البيض مقاليد الأمور.

ولعلّ سنوات ما بعد 1986 وحتى العام 1990 شهدت تدهوراً في الوضع الاقتصادي في عدن، مع ظهور النفط في الشمال، وشحّ الدعم السوفيتي القليل أساساً، ومن ثم انقطاعه التام عشية الوحدة، الأمر الذي مهّد للهروب باتجاه الوحدة، حيث اتهم علي ناصر محمد بالتقاعس، وقد تحقق الأمر بإصرار علي سالم البيض بالرغم من بعض تحفظات قيادات الحزب الاشتراكي على وحدة اندماجية، ودعوتهم إلى وحدة تدرّجية أو اتحاد فيدرالي أو اتحاد كونفدرالي.

واعتبر بعض آخر أن هذه الوحدة هي أقرب إلى قرار الضم أو الإلحاق، وهي أشبه بالوحدة الألمانية، بدلاً من إعادة توحيد شطري البلاد، ولعلّ هذه النزعة بدأت بعد العام 1994، لاسيّما حين لاحت بوادر حرب أهلية، كما أنها تعزّزت بعد الحراك الجنوبي.

لعلّ هذه التطورات لم تكن في وارد الخارطة السياسية الكوبية وتجربتها

الماركسية، وبالرغم من أن التجربتين كانتا مثل البركان الذي انفجر، لاسيّما كوبا في أميركا اللاتينية واليمن في الجزيرة العربية والخليج العربي، بما تركتا من تأثيرات هائلة فقد كانت رمزية كوبا «جزيرة للحرية» في مواجهة قلعة الرأسمالية العالمية، واليمن التي اعتبرت وعداً للاشتراكية ضد نظام السلطنة والمشايخ في الخليج، إلّا أن الأولى على الرغم من استمرارها وتأثيراتها في المحيط الذي شهد حراكاً سياسياً واجتماعياً وصعود قوى يسارية واشتراكية إلى مواقع السلطة عبر الانتخابات، لا تزال تعاني، بل تنزف بسبب الحصار الدولي وبعض تحديات السياسة الداخلية، لاسيّما في ضيق بالحريات وعدم إقرار التعددية واحترام حقوق الإنسان، ناهيكم عن مواجهة التحديات الخارجية، والمؤامرات والمكائد الامبريالية وبخاصة الأميركية.

أما التجربة الثانية فقد انكسرت وجرى النكوص عنها هروباً إلى الأمام باتجاه الوحدة، خصوصاً في ظل الصراعات الداخلية والتصفيات الدموية وشحّ الحريات وسيادة الرأي الواحد وبعد وقف الدعم السوفييتي الذي ترافق مع سقوط أنظمة أوروبا الشرقية الشمولية الواحد بعد الآخر.

لقد عممت كوبا فكرة الكفاح المسلح، لاسيّما في بوليفيا وفيما بعد دعمت نظام تشيلي ووقفت ضد الثورة المضادة العام 1973 التي أطاحت بسلفادور أليندي ونصّبت الجنرال بينوشيه محلّه. وعدن دعمت ثورة ظفار المسلحة ووقفت مع العديد من حركات التحرر الوطني في الخليج العربي والجزيرة العربية بشكل خاص والعالم العربي بشكل عام. ومثلما حاولت هافانا أن تشكل محوراً في أميركا اللاتينية، سعت عدن لتحتل مثل هذا الموقع، لاسيّما بالتعاون مع أثيوبيا في حينها.

هافانا اختارت نظام الحزب الواحد بإدارة مركزية صارمة وشديدة وعدن اختارت النظام نفسه، وعلى الرغم من أن الحزبين الشيوعي الكوبي والاشتراكي اليمني كانا حصيلة تعاون بين التيارات المختلفة، لكن الواحدية واحتكار العمل السياسي والمهني ظلّت السمة السائدة لكليهما، وكان لكلا النظامين إعلامٌ

مركزيٌ ودعاية منهجية وترويجٌ أيديولوجيٌ؛ ومثلما عانت هافانا فقد عانت عدن من بيروقراطية الدولة، وعدم الاعتراف بالمعارضة، فضلاً عن وجود جهاز مخابرات قوي ومتنفذ، وبالرغم من شعبية قيادات البلدين ورمزيتهما وتواضعهما إلّا أنّ الرأي الواحد والصوت الواحد والذوق الواحد والزعيم الواحد ظلّ سائداً على نحو لا مثيل له، من دون إقرار بالتناوب والتعددية، ومن دون تحديد دورتين كما تذهب إلى ذلك الكثير من التجارب لتحديد المسؤولية، عبر صندوق الاقتراع.

عدن اختارت الوحدة خلاصاً من واقعها الذي ظل مأزوماً وضاقت بها السبل، أما هافانا فقد صمدت حتى الآن، على الرغم من أن رياح التغيير هبّت على العالم ولم تستطع الوقوف أمام إعصارها أنظمة متينة ومُحكمة، لكن هافانا حافظت على نفسها حتى الآن مع الأثمان الفادحة التي دفعتها، ولا تزال محاولات التغيير تلقى ممانعة كبيرة من التيار التقليدي، ولاسيّما أن بعضهم يريد من التغيير قلب النظام الاشتراكي. وأياً كانت النتيجة فإن بقاء هافانا خارج التغيير وخارج الحداثة والعولمة، سيضعها خارج التاريخ، وقد يعصف بنظامها على نحو دراماتيكي.

وإذا كانت هافانا قد تحمّلت أكثر من خمسة عقود من الزمان من شدّ الأحزمة على البطون والتقشف وشظف العيش وعدم الدخول في عالم الحداثة، وحاذرت كثيراً من أي انفتاح خوفاً من استغلاله وتوسيع الهوة لتكبر، وفتح ثغرات لتنفذ منها القوى المعادية للثورة، فإن ذلك لن يستمر إلى ما لا نهاية. لكن على الرغم من الشوط الذي قطعته لأكثر من جيلين، فإن أشواطاً لا يمكن تحمّلها ستخلق تشوّهات اجتماعية واقتصادية ونفسية، ناهيكم عن تأخر علمي وتكنولوجي، لا يمكن تحمّله، إن لم يجد متنفسات سياسية واجتماعية، لاسيّما بتوسيع دائرة الحريات.

تجربة عدن أفلت وغربت بعد شروق وازدهار، على الرغم من بنيتها القاسية اجتماعياً وعشائرياً ودينياً وتخلفها الاقتصادي، وكوبا لا تزال تجربتها

مشرقة، وبالرغم من مثالبها وعيوبها وتحدياتها المتزايدة! قد تصمد كوبا وقد تعدّل وتصحح وتغيّر، وقد تتراجع وتنتكس وتضعف، وقد تنهار، والأمر مرهون بمدى استعداد قياداتها لإجراء تغيير مدروس وإحداث انفراج سياسي وإشاعة الحريات والاعتراف بالتعددية والتنوّع ومواكبة روح العصر، لاسيّما متطلّبات الثورة العلمية- التقنية بما فيها ثورة الاتصالات والمواصلات وتكنولوجيا الإعلام والثورة الرقمية (الديجتيل)!

العلاقة ما بين كوبا وعدن ظلّت رمزية، مثلما هي علاقة الاشتراكية في أميركا اللاتينية وعالمنا العربي.

* * *

هافانا وعدن:
تحدّيات واحدة ومسارات مختلفة

أعود إلى علاقتي مع عدن؛ فقد ظلّت مطبوعة في ذاكرتي صورة اليمن «السعيد» منذ أول زيارة لجزء منه قبل ثلاثة عقود ونصف من الزمان، حيث شاركت في ندوة وألقيت محاضرة في عدن بعنوان «ديمقراطية التعليم والإصلاح الجامعي» في شهر آذار (مارس) 1974. وبقيت منذ ذلك التاريخ أتابع باهتمام كبير شؤون وشجون اليمن بشطريها.

قلت لنفسي قد يعود الأمر إلى رمزية تتعلق بأصولي اليمانية، حيث تنتسب عائلتي إلى بني الأشعوب وهم بطن من حِميّر القحطانية القاطنة في جبل النبي شُعيب الذي انتقلت منه إلى بلاد الشام، فاستقر قسم فيها والآخر توزّع باتجاهين، الأول: صوب فلسطين ومصر والمغرب وتونس، والثاني: اتجه مع الفرات صوب العراق، حيث استقر قسم منه في الأنبار، والقسم الآخر وصل إلى النجف وعاش فيها وأصبح من سدنة الروضة الحيدرية لاحقاً، بفرامانات سلطانية موغلة في القدم.

ولعلّ حملي جوازات سفر يمنية خاصة وعادية طيلة أكثر من عقد من الزمان، جعلني أكثر تعلّقاً بهذا البلد الأمين بعد زيارات ثلاث سبقت الوحدة إلى عدن، وكنت بعد الوحدة العتيدة وعبر الصديق السفير شايع محسن الذي استقبلني في لندن، مثلما استقبلني قبل ذلك في عدن قد استبدلت جوازات سفري، حيث أخطرني بضرورة ختم جواز سفري بختم الوحدة حسب

التعليمات. ولا أزال أحتفظ بهذا الجواز العزيز الذي حماني فترة من الزمن ومكّنني من زيارة عدد من البلدان، وحافظت عليه مثل أي شيء ثمين، خصوصاً للثقة الممنوحة لي، وهو ما لن أنساه ما حييت.

قديماً قيل الحكمة يمنية، وحكمة اليمن وأهلها مستمرّة، فلم تجد ثورة 14 تشرين الأول (أكتوبر) التي فجرتها الجبهة القومية في ردفان العام 1963، والتي انتصرت العام 1967 باضطرار البريطانيين إلى الانسحاب، ضالتها إلّا بالالتحام مع ثورة 26 أيلول (سبتمبر) العام 1961، ولعلّ الشطرين الشقيقين وهما ابنان شرعيان لليمن لم يشعرا بالانسجام والتواؤم حد الالتئام ليكونا واحداً، إلّا بمقاربة حرية واستقلال الوطن بوحدته، التي تحققت في يوم 22 أيار (مايو) 1990، حين تمّ إنهاء التشطير الجغرافي والسياسي لنظامين ودولتين وحدودين ولكن بشعب واحد، الأمر الذي وضع استحقاقات جديدة أمام الوطن اليمني، لاسيّما فيما يتعلق بالديمقراطية والتنمية وتوسيع دائرة الحريات والإقرار بالتعددية وإجراء انتخابات وغير ذلك.

وقد اقترن ذلك بخطوات بدأت إرهاصاتها الجنينية الأولى تنهض وتتقدم وتتعثر أحياناً، لكنها اكتسبت اعترافاً جديداً في ظل التوافق الوطني، خصوصاً بتطويق الانقسام السياسي بعد أحداث العام 1994 وإنهاء الاقتتال الداخلي، وإعلاء شأن الوحدة باعتبارها أحد الخطوط الحمراء التي لا يمكن عبورها تحت أية مبررات أو مسوّغات.

لقد دخلت الوحدة في التفاصيل اليومية والبرامج السياسية لحركات وتيارات يمنية وعروبية وأصبحت جزءًا من الهوية اليمنية المعاصرة، التي كانت ناقصة ومبتورة، فارتقت الوحدة بما فيها من رمزية إلى مصاف شعارات الاستقلال وحق تقرير المصير، لاسيّما في ظل الموجة العروبية التي دفع عبد الناصر العالم العربي باتجاهها.

إنّ التاريخ اليمني المعاصر يسجل علامتين أساسيتين هما:

الأولى- النضال ضد الاستعمار البريطاني من أجل الاستقلال.

والثانية- النضال من أجل الوحدة واستعادة الهوية واستكمالها.

وقد أدرك الاستعمار البريطاني أهمية هذا الترابط وفاعليته، فحاول مواجهته بربط عدن بمجموعة الكومنولث وتوطين بعض مسلمي الكومنولث في عدن في أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، بهدف تعويم هوية الشطر الجنوبي العربية وصولاً إلى مشروع إمارات للجنوب العربي، تقصي من خلالها سلطنة حضرموت، والمهرة، وسقطرى عن اتحاد الإمارات اليمنية، ولعلّ الهدف المحدد والواضح لذلك لو تحقق سيقطع الطريق أمام الحركة الوطنية اليمنية لتحقيق الاستقلال والوحدة.

وإذا كانت اليمن الجنوبية قد تشكلت فإنها ظلّت ترنو إلى الشمال، مثلما ظلّت ثورة 26 أيلول (سبتمبر) تتطلع إلى يوم الاتحاد العظيم الذي لقي مباركة الغالبية الساحقة من الجماهير العربية وقواها الوطنية في كل مكان.

ولأن الوحدة التي أنجزت على هامش مشكلات وتحدّيات كثيرة، فقد واجهتها عقبات كثيرة أيضاً، لعلّ أبرزها «عدول» بعض «أطرافها» أو من خرج عنها بعد انضمامه إليها. وإذا كانت ثمة أخطاء ونواقص ومحاولات تهميش سياسي أو إداري أو غير ذلك، فالحل يكمن في توسيع دائرة المشاركة وقاعدة الشراكة وقاعدة الحقوق، وقاعدة المواطنة المتساوية والكاملة، وليس في البحث عن حلول أخرى خارج نطاق الوحدة؛ وإذا كان ثمة مبررات لتحرك جماهيري، للمطالبة بتعزيز المساواة ومنع التمييز لأي سبب كان، وإشباع صلاحيات المحافظات وإشراك أهاليها في إدارتها عبر الحكم المحلي «الذاتي» أو الفيدرالي «الاتحادي»، فقد لعب الفقر وسوء الأوضاع المعاشية وانتشار الفساد واستفحال ظاهرة الإرهاب واستغلال بعض الأخطاء والنواقص في محاولة دفع الأمور باتجاه الوراء، في ظل رغبة بعضهم في تقديم الأوضاع الخاصة على حساب الأوضاع العامة وما هو حزبي ضيّق على ما هو وطني واسع، لكن المعتدلين من جميع الأطراف سعوا ويسعون لإيجاد حلول وتفاهمات للحراك الجنوبي، بعيداً عن التداخلات الخارجية.

إنّ التحدّيات التي تواجه اليمن تتطلب المزيد من التسامح لحل الإشكالات القائمة وتلبية المطالب والحقوق الشعبية والاستجابة لها بروح الانفتاح والتفهّم، وحلّ الخلافات بالطرق السلمية في إطار الوحدة الوطنية، بعيداً عن دائرة العنف، وهو ما أكدّ عليه الرئيس علي عبد الله صالح خلال لقائه برئيس وأعضاء المكتب الدائم لاتحاد الحقوقيين العرب بُعيد اجتماعهم في صنعاء (أواسط العام 2009)، الأمر الذي يستوجب المزيد من الصبر وطول النفس والحرص على الوحدة الوطنية وإزالة العقبات أمام توسيع دائرة المشاركة واختيار الأشكال والصيغ الإدارية المناسبة لتوزيع الصلاحيات في إطار وحدة متينة راسخة وعميقة، بالمزيد من الخطوات والإجراءات الديمقراطية على طريق التنمية الشاملة والمستدامة واحترام حقوق الإنسان، وإلّا فإنّ الكارثة ستكون محدقة، لاسيّما بانفجار الأوضاع الداخلية.

وإذا كان الأمر هو مسؤولية الجميع، فإن مسؤولية الحكومة كبيرة وفرصها واسعة لمبادرة وطنية لتلبية المطالب والحقوق وسد ثغرة خطيرة يحاول المتربصون النفاذ منها لوضع العصي في عجلة الوحدة؛ فالوحدة يمنية وصدق من قال: والحكمة يمنية.

إن الاختلاف بين التجربتين الكوبية واليمنية قد بدا واضحاً؛ فإن إحدى القضايا المؤرقة لعدن كانت قضية الوحدة مع الشمال، أما المسألة الثانية فهي مسألة فلسطين، خصوصاً وأنها تركت بصماتها على سياسات الدولة والحزب الاشتراكي اليمني لاحقاً، وهما قضيتان غير موجودتين بالنسبة لكوبا.

وإذا كانت اليمن جزءًا من عالم عربي- إسلامي، لها تقاليدها الإسلامية وموروثاتها الدينية، والتي استخدمت ضدها على نحو كبير، فإن كوبا وأصولها المسيحية بالرغم من استخدامات الدين ضدها، فإنها استطاعت بسهولة التوافق مع لاهوت التحرير الذي ساد في أميركا اللاتينية.

عدن تأثّرت بما سمّي بالصحوة الإسلامية، لاسيّما بعد الثورة الإيرانية التي

عمّت دول المنطقة، في حين أن هافانا حسّنت من مواقعها الدينية في الفترة التي تدهورت فيها علاقات عدن الدينية.

كان هاجس الوحدة أساسياً لدى عدن، ولعلّ هذا التوّجه بقدر رومانسيته وصميميته، كان وأداً للتجربة الماركسية العربية الأولى، وإن كان عن سابق إصرار وتصميم، إلّا أن المشاكل التي عصفت بالتجربة اليمنية الديمقراطية وانهيار منظومة الدول الاشتراكية، لاسيّما الاتحاد السوفييتي، ساهم في الإسراع في طلب الوحدة وتحقيقها.

أما خيار كوبا فقد كان التمسك بالتجربة على الرغم من وصول البلاد إلى حافة الانهيار، لاسيّما بعد وقف الدعم السوفييتي على نحو مفاجئ، كما تمّت الإشارة إليه في مكان آخر من هذا الكتاب.

* * *

ماركيز- كاسترو
وادونيس- عبد الفتاح إسماعيل

خلال زيارتي إلى كوبا، واجهني سؤال محيّر سبق لي أن طرحته على نفسي: ما الذي يربط كاسترو بماركيز وكيف نشأت هذه العلاقة بين الرجلين؟ وكنت قد قرأتُ أن ماركيز لعب دور الوسيط بين كوبا وكولومبيا بشأن «الثوار» الماركسيين، لكن هذه العلاقة توطّدت وأضحت صداقة متينة في السبعينيات، بعد أن نشر ماركيز روايته «مئة عام من العزلة» في العام 1967 بتوقيع «غابو» وهو الاسم الذي يفضّله كاسترو، وظلّ يناديه به.

شاعت شهرة ماركيز كروائي عالمي حتى قبل أن ينال جائزة نوبل 1982، وقد أعجب بكاسترو وبالثورة الكوبية. وبالرغم من انتقادات الكثير من المثقفين لتلك المعانقة التي كانت أقرب إلى المفارقة، بين مثقف وحاكم، إلّا أن ماركيز بقي على موقفه من دون أن يتزحزح، وظلّ على الدوام موالياً ومعجباً بكاسترو، الذي يصفه «بأعذب الرجال الذين عرفتهم» ويقول عنه: «فيدل كاسترو قارئ نهم، محب ومتابع للأدب الجيد في كل وقت، حتى في أصعب المراحل، والكتاب لا يفارقه في أي وقت فراغ».

أما كاسترو فيقول عن ماركيز إنه تعرّف عليه مصادفة، عندما حضر العام 1948 مؤتمر طلبة أميركا اللاتينية في كولومبيا، وكان طالباً آنذاك، ثم عندما قدم كصحافي إلى هافانا لتغطية أحداث انتصار الثورة في العام 1959، تعززت علاقته بكاسترو وتطورت فيما بعد لتصبح صداقة متينة، تجسدت من خلال

مئات اللقاءات والمحادثات التي يصفها كاسترو بأنها «مهمة وشائقة»، وخصوصاً بحضور مرسيدس زوجة ماركيز (حيث كانت لهما أكثر من زيارة سنوية لهافانا). ويصف كاسترو حواراته مع ماركيز بأنها مثّلت «علاجاً للتوترات الشديدة التي يعيشها باستمرار، على نحو غير واع، أي قائد ثوري كوبي».

أوكل كاسترو لماركيز ترؤوس مؤسسة السينما الأميركية اللاتينية التي أنشأتها كوبا، والإشراف على معهد السينما الجديدة في أميركا اللاتينية. يقول كاسترو عن ماركيز وبراعته الإدارية والتنظيمية: «لقد كان لديّ حكم غير منصف عليه، إذْ تصورته ينطلق من إحساس طاغ بالخيال والوهم، ولم أكن أدرك كم من الواقعية تكمن في عقله». وكان كاسترو قد صرح لإحدى الصحف الكولومبية: «لو كان هناك تناسخ أرواح لتمنيت أن أكون كاتباً مثل ماركيز»!!

السؤال المحيّر نفسه عن علاقة كاسترو بماركيز سألته لنفسي مراراً وأنا أزور اليمن المرّة تلو المرّة: ما سرّ علاقة عبد الفتاح إسماعيل بأدونيس وغيره من المثقفين؟ وهل يحرص الحاكم على إقامة علاقة مع المثقفين بغية الظهور أمام الجمهور، بمظهر المثقف، أو أن ثمة جاذباً للثقافة يدفع الحاكم إلى التقاطها بمجالسة المثقفين، أم هي حاجة حقيقية لإشباع العطش الروحي للإنسان؟!..

تعود علاقة أدونيس- عبد الفتاح إسماعيل في بداياتها إلى السبعينيات حين حاول عبد الفتاح إقامة علاقة مع عدد من المثقفين العرب، وتعززت هذه العلاقة عندما أصبح رئيساً لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في أعقاب تنحية سالم ربيّع علي في الفترة بين 1978 ولغاية 1980، حيث كان يشعر أن وجوده بين المثقفين يحقق له معرفة الذات، كمثقف سياسي وذي ذائقة أدبية ومحاولات شعرية وكتابات أدبية.

ينتمي عبد الفتاح إسماعيل الجوفي إلى منطقة الجوف، التي رحلت منها عائلته لتستقر في ناحية حيفان التابعة للواء تعز، قرية الأشعاب، حيث أنهى

قراءاته الأولية في كتّاب القرية، ثم أكمل دراسته في عدن في حي التوّاهي ملتحقاً بمدرسة تدريب عمال مصافي الزيت البريطانية.

بدأ عبد الفتاح إسماعيل نشاطه السياسي العام 1959 بانضمامه إلى حركة القوميين العرب مشاركاً بالنضال ضد الاستعمار البريطاني، بعد الإعلان عن انطلاق الشرارة الأولى للثورة التحريرية من جبال ردفان، ليتطور الأمر فيما بعد إلى مهاجمة المراكز الأساسية في عدن، لاسيّما في حي كريتر وليتحقق الانتصار في العام 1967.

عرف عن «فتاح» وهو اسمه الحركي (أيام الكفاح المسلح) اعتكافه الطويل في جبل معاشيق بفيلّا «طوني بيس»، وكنت قد التقيته في آذار (مارس) العام 1974 وكان يومذاك أميناً عاماً للحزب، كما استمعت إليه محاضراً، فوجدت نفسي أمام أديب أو شاعر أقرب منه إلى رجل الدولة- أقصد بذلك المعنى الايجابي -، كان حريصاً على منادمة الكتاب والشعراء والمثقفين بشكل عام، وصدر له ديوانان أحدهما باسم «الكتابة بالسيف» والثاني موسوم بـ«نجمة تقود البحر»، صدر بعد استشهاده عن دار الفارابي في بيروت العام 1989 وقدّم له أدونيس.

وتعتبر قصائده بشكل عام أقرب إلى قصائد النثر، وبعضها قصائد غنائية مثل «تاج النهار» التي غنّاها المطرب محمد مرشد ناجي.

اشتهر عبد الفتاح باسم حركي آخر، اسم أدبي استلهمه من تاريخ اليمن هو «ذو يزن». ولعلّ اهتماماته الأدبية والشعرية تلك، إضافة إلى رومانسيته جعلته أبعد ما يكون عن رجل الحكم السلطوي الذي غالباً ما يهمل الثقافة وينصرف إلى شؤون الدولة وتعقيداتها ومشاكلها، على عكس فتاح الذي جعل كل شيء دون الثقافة بما فيها مؤسسة الدولة والحزب، وقد استُغلّت اهتماماته تلك ضمن الصراعات الحزبية والسياسية والظروف المحتدمة، لتتمّ تنحيته وإبعاده إلى موسكو، التي عاش فيها نحو خمس سنوات ليحلّ بدلاً عنه علي ناصر محمد،

الذي جمع بين الرئاسة والأمانة العامة للحزب، حتى أحداث 13 كانون الثاني (يناير) 1986.

سبق لفتاح أن زار هافانا وكتب قصيدة أو بعض الخواطر من مستشفى هافانا، كلها شوق إلى عدن، على الرغم من الوعي واللاوعي والحضور والغياب والحدود واللاحدود، حسب مفرداته.

لعلّ أدونيس في تقديمه لديوان «نجمة تقود البحر» أراد أن يعرّف القارئ على تجربة عبد الفتاح إسماعيل الكتابية في مستوياتها الفكرية- السياسية، والفنية- الشعرية، إضافة إلى استخدامات اللغة دلالة وتشكيلاً وأسلوباً، ومن خلالها علاقة الشعر بالسياسة، وكأنه يقدّم مطالعة عن علاقة المثقف بالحاكم، أو علاقة أدونيس بفتاح.

المقدمة التي كتبها أدونيس هي أقرب إلى شهادة وتحية لصداقة يعتز بها كما قال، ووفاء لعهد التزم به (يبدو أنه كان قد أعطى وعداً لفتاح- ذي يزن بكتابة مقدمة لمجموعته الشعرية) وقد دعا القارئ أن يقرأ النصوص بوصفها إضاءة لجوانب حميمية من حياة فتاح، وبوصفها تمثل بُعداً آخر من أبعاد كتابته يقوم على المقاربة الفنية- لرمزية الأشياء والواقع ومشكلاته.

إن علاقة الشعر بالأشياء هي علاقات تصوير وتخييل، لا تحليل وتعقيل، فالشاعر، حسب أدونيس في مقدمته، يرى الإنسان والعالم والأشياء بطريقة تغاير الرؤية السياسية، ويعبّر عنها، تبعاً لذلك بطرق تغاير طريق التعبير أو التغيير السياسي، إنه يقدّم صوراً جديدة مغايرة لما هو سائد.. الشاعر ليس مبشّراً، لكن الحرية أفقه العام، وفضاؤه الروحي فضلاً عن الخير والجمال والحب.

* * *

الثقافة والسلطة:
المعادلة القاسية!

إذا كان كاسترو يحرص على مواظبة اللقاء بعدد من المفكرين والأدباء وأبرزهم غابرييل غارسيا ماركيز، إضافة إلى رجل الدين بيتو، فإن عبد الفتاح إسماعيل وفي إطار رومانسيته كان يستهويه أيضاً مجالسة الأدباء والمفكرين، أكثر من التفرّغ لإدارة الحكم، وهو الشاعر المرهف الذي يجد ذاته في مجالس الأدب والشعر والمعرفة، على حين يعتريه الإحساس بالغربة وهو عالق في وسط الصراعات والخصومات السياسية والحزبية. ولعلّ ذلك يفسر علاقته بأدونيس منذ «الثابت والمتحوّل» وما بعده، لاسيّما في الفترة ما بين عودته للأمانة العامة للحزب في أواسط الثمانينيات، إلى ما قبل انفجار أحداث 13 كانون الثاني (يناير) الدموية التي أطلق عليها «صراع القبائل الماركسية» والتي كان هو أبرز ضحاياها مع 13 ألف ضحية.

لم يكن احتياج كاسترو لوجود ماركيز، وفتّاح إلى أدونيس أو غيره، أمراً غير مألوف، فقد سبق لغوبلز أن رافق هتلر كوزير لإعلامه، مسخّراً كل طاقاته الفكرية لزعيمه، وحاشداً حوله مجموعة من «المثقفين» النازيين في سبيل تلميع صورة الفوهرر وخطابه وأطروحاته وحركاته. كما كان «جدانوف» وهو الذي اعتبر «جلاد المثقفين» باسم «الواقعية الاشتراكية» بالقرب من ستالين على الدوام، وكان مارلو على يمين ديغول الذي كان يبرر وجوده بجانبه بالقول: «إذا أردنا أن نناقش في أي مشروع، سيكون مارلو الأقدر على إبراز الجانب

الإنساني»، وكان محمد حسنين هيكل لصيقاً بجمال عبد الناصر، وهو المؤدلج والمعبّر الأكثر ترويجاً للخطاب الناصري، أما الكاتب حسن العلوي فقد ساهم في تهيئة الأجواء عشية تسلّم صدام حسين قيادة الحزب والدولة، في أواخر السبعينيات، وذلك برحلته المثيرة مع السيد النائب، والتي أعطاها عنواناً «مئة ساعة مع السيد النائب» ونشرها في مجلة ألف باء في حينها. وكما يقول كانت المقابلات التي نشرها بمثابة برنامج سياسي للسيد النائب.

لكن ما كان صدام حسين يحتاج إليه، هو رافعة تنقله إلى صف المفكرين، فلم يعد يرتضي أن يكون صاحب مشروع سياسي وحسب، بل كان طموحه مبالغاً فيه. وهو الأمر الذي حاول أمير إسكندر فيما بعد عمله عندما أصدر كتابه المثير «صدام حسين مفكراً ومناضلاً وإنساناً» العام 1980 بإشراف المؤسسة الثقافية السياسية في باريس، تلك الصورة التي تضخّمت على نحو كبير حتى كادت تقترب من حالة التأليه، التي أصابت العديد من النماذج الاشتراكية في الأصل والفرع.

لماذا يحتاج السياسي إلى المثقف؟! هل لترويج خطابه؟! أو لتسويق أفكاره؟! أو للحديث نيابة عنه للجمهور؟! أو لاستخدامه ماشه نار في صراعه مع خصومه؟ أو لاستثماره في نزاعاته الداخلية الحزبية والحكومية؟ أو للاستفادة منه كجزء مكمل للصورة المرسومة والتي تقضي أن يكون جليساً للمثقفين ونديماً للشعراء والأدباء، أو أن يكونوا هم من ندمائه، لاسيّما عندما يكون هذا السياسي حاكماً؟

وقد يكون الجواب: ما العيب إذا اقترن اسم المثقف بالسياسي أو الحاكم، لاسيّما إذا كان الانسجام والتوافق الفكري بينهما متوافراً، وتوافرت بينهما فسحة من الحرية المانعة للحواجز والقيود على الفكر والثقافة؟ في الوقت ذاته كيف يمكن للمثقف توفير مسافة فاصلة بينه وبين الحاكم تؤمن حمايته بدلاً من ضمّه كجزء من حاشية الحاكم؟ وهل يُسمح للمثقف بمثل هذا الهامش، أم

أن الحاكم ومن خلال سلطته لا يقبل للمثقف أن يكون له ندّاً، بل واحداً من أتباعه، وها هنا يخسر السياسي، المثقف، وبالتالي يخسر المثقف نفسه!!.

هناك درجات في معادلة الثقافي- السياسي، حسب طبيعة الحاكم وتوجهاته ومتطلباته، مثلما هي طبيعة المثقف واستعداداته وتمسّكه بحريته وثقافته وإبداعه.

لقد جالس السياسيون والحكّام على وجه الخصوص المثقفين، وأحاطوا أنفسهم بهم لإدراكهم أن الثقافة سلطة أخرى موازية للسلطة السياسية والعسكرية والبوليسية؛ وحسب فرانسيس بيكون، فإن المعرفة سلطة، أي أن سلطة المثقف هي معرفته ووسيلته الإبداعية لنشر ثقافته وبسط سلطانه، وكما يقال المعرفة: قوة أو سلطة Knowledge is power، إلّا أن سلطة المعرفة تختلف عن السلطة السياسية والعسكرية من حيث التأثير والسلطان والجبروت، إذْ إن الأخيرة تمتلك أدوات القمع وبإمكانها تسخير الأدوات المعرفية والثقافية لفرض سلطتها القمعية.

وقد استخدمت الكثير من الأنظمة على نحو مترابط القمع السياسي البوليسي مترافقاً بالقمع الإيديولوجي الثقافي، وهذا يتطلب من المثقف أن يحترم وسيلته الإبداعية وينأى بنفسه عن الاستخدام التوظيفي لثقافته من جانب السلطات لإضفاء مشروعية على القمع السياسي؛ فالمثقف الذي لا يخدم معرفته وثقافته لا يحترم سلطته، أو يتنازل عنها، ولا يعني ذلك العزلة أو الاعتكاف أو عدم الاختلاط بالحكام، لكن المهم أن يُبقي المثقف يده على الزناد كما يقال لإطلاق كلمة الحق، كلما شعر بضرورة ذلك، وكلما كان الأمر واجباً، فلا ينبغي له والحال هذه الاستقالة من دوره أو التخلي عنه..

تعود حاجة الحاكم للمثقف إلى أمرين أساسيين:

الأول- الظهور أمام الرأي العام كصاحب مشروع فكري- ثقافي، خصوصاً إذا كان للمثقف صدقية وضميرية، لأن ذلك يسبغ إيجابية على الحاكم وخطابه، وإذا حظي الحاكم بدعم المثقف وبخاصة بعض الرموز المهمّة، فإنه سيحظى بدعم شعبي.

والثاني- يريد الحاكم التظلل بمظلة الثقافي مبعداً «سلطويته» عن التصوّر

السائد، لإدراكه بأهمية إظهار جوانبه الإنسانية ذات البُعد الأخلاقي، مستخدماً التأثير النفسي (Psychology) في كسب تأييد المجتمع له.

كان بعض الحكام تاريخياً يغدقون على الأدباء والشعراء الموالين الذين يقومون بالترويج والدعاية الأيديولوجية، ويعاقبون من يمتنع عن ذلك، بالتهميش والعزل والسجن أحياناً، أو بالتصفية الجسدية، لأنهم يدركون أهمية سلطة الثقافة، وقد أثرت في كتابي «الجواهري- جدل الشعر والحياة» بطبعته الأولى، عن دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1997، التباس علاقة الجواهري بالزعيم عبد الكريم قاسم، فالأول: زعيم السلطة الثقافية، الأدبية، والإعلامية، لكونه رئيس اتحاد الأدباء العراقيين ونقيب الصحفيين، أما الثاني: فهو زعيم السلطتين العسكرية والتنفيذية، أي القائد العام للقوات المسلحة وفي الوقت نفسه رئيس الوزراء.

وبالرغم من أن عبد الكريم قاسم زار بيت الجواهري كأول بيت يزوره بعد ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 وقال عنه: هذا البيت هو الذي أنجب الثورة، عاد وتنكّر لذلك بسبب خصومة كنت قد رويتها تتعلق بما كتبه الجواهري في جريدته «الرأي العام»، ولاسيّما مقالة بعنوان «ماذا يجري في الميمونة؟» وهي قرية في محافظة ميسان (العمارة) جنوب العراق، وذلك بعد تدهور الوضع السياسي في العراق واستدارة الحكم باتجاه الهيمنة الفردية، الأمر الذي قلّص هوامش الحريات التي جاءت بها الثورة، وبخاصة عندما ضاق صدر الزعيم إزاء أي رأي آخر. وكنت قد أضفت فقرة جديدة في طبعة الكتاب الثانية، الصادرة عن دار الآداب، في بيروت، 2009، بعنوان «الجواهري حيال السلطة والسياسة» وهي دراسة نُشرت في مجلة أبواب العدد 16، 1998 (التي تصدر عن دار الساقي- لندن، وهي تتعلق بصميم علاقة المثقف بالسلطة).

أسوق هذه المقدمة ليقيني بمدى أهمية وحساسية علاقة المثقف مع الحاكم، التي قد تثمر إيجاباً أو قد تُستثمر سلباً، لاسيّما إذا أدركنا اشتباك هذه العلاقة وتعقيداتها، ولي أن أتساءل مرّة أخرى ما الذي أراده كاسترو من

ماركيز؟ كما يمكنني القول، ما الذي أراده الأخير من كاسترو؟ ويمكن سحب السؤال على علاقة عبد الفتاح إسماعيل بأدونيس على الرغم من أنها لم ترتق إلى مستوى علاقة كاسترو بماركيز، وهي علاقات مزدوجة ومركّبة.

إن صورة المثقف لا تزال تثير جدلاً واسعاً، ليس على صعيد النُخب الفكرية والثقافية فحسب، بل على الصعيد السياسي والاجتماعي؛ فكثيرون يعتقدون أن المثقف منزّه وأن عليه ألّا يخطئ، وإذا أخطأ وغيّر رأيه، سيعدّ ذلك تراجعاً، وإذا أقام علاقة مع مسؤول أو حاكم، لاحقته الشبهة والاتهامات، وإذا بادر وتخلّى بالنقد عن بعض وجهات النظر أو خالف السائد من الآراء، اعتبر مارقاً، في حين أنه في واقع الأمر إنسان كغيره من الناس، يخطئ ويصيب ويغيّر رأيه ويتراجع وينقلب ويصحح.

صحيح أن مسؤولية المثقف أكبر بكثير من مسؤولية الفرد العادي، لاسيّما إذا كان صميمياً، فهو تحت الأضواء أكثر من غيره ورأيه موثق، في حين أن الكثير من الناس لا يغيّرون آراءهم فحسب، بل ينتقلون من ضفة إلى أخرى، يصدرون أحكاماً قاطعة وجازمة، ثم يعودون ليتراجعوا عنها، بل إنهم يناقضونها ولا أحد يحسب ذلك عليهم، أما المثقف فكل أمر محسوب عليه وموثق، لذلك عليه أن يتوخى الدقة ويلاحظ حساسية موقعه.

يذهب بعضهم إلى تشبيه علاقة المثقف بالحاكم بحالة اختلاط الزيت بالماء، فهما عنصران غير قابلين للمزج والخلط حتى وإن وضعا معاً لفترة طويلة، فإنهما سيعودان كل إلى أصله، لا يندمجان ليشكلا عنصراً واحداً يملك الصفتين، ولذلك تظل العلاقة بين المثقف والحاكم ملتبسة بالرغم من كل ما يرافقها أحياناً من مظاهر التوافق والتفاعل، وسيكون الخاسر الأكبر هو المثقف في غالب الأحيان، لاختلال موازين القوى، وخير مثال على ذلك ما انتهت إليه العلاقة الحميمية بين المتنبي وسيف الدولة من الجفاء والعداء والهجاء.

وقد توجد ثمة استثناءات، فعلاقة ماركيز مع كاسترو بدأت قبل أن يتولّى كاسترو السلطة وتعززت بعدها مع مرور الأيام، وكان كاسترو يقرأ ويصحح

أحياناً مخطوطات ماركيز قبل نشرها. وقد اطّلع على معظم رواياته قبل طبعها، لاسيّما منذ أواسط السبعينيات، لكنه بالرغم من ذلك لا يمكننا القول إنها علاقات متكافئة، فلم يكن ممكناً لماركيز الحديث عن شحّ الحريات وغياب التعددية والرأي الآخر، وتلك تشكل جوهر رسالة المثقف باعتباره ناقداً اجتماعياً حسب ماركس ومثقفاً عضوياً حسب غرامشي متماهياً مع الطبقة (العاملة) بحيث يصبح عقلها المفكر وقلبها النابض.

اصطحب كاسترو صديقه ماركيز وبمناسبة انعقاد القمة الأميركية اللاتينية السادسة في جولة بعربات تجرّها خيول من مدينة قرطاجة المحاطة بالأسوار ومن المحميات- الأثارية القديمة، وقال له ممازحاً بعد تحذيرات أمنية «أركبْ معنا هذه العربة حتى لا يطلقوا النار علينا»، وبالروحية ذاتها مازح زوجته مرسيدس التي ركبت خلفهم عند نقطة الانطلاق: «سوف تكونين الأرملة الأكثر شباباً»، وبالرغم من هذه العلاقة الحميمة، إلّا أن كاسترو رفض السماح لماركيز بنشر كتابه (700 صفحة) الذي يتناول من خلاله يوميات كوبا تحت الحصار، (لم يظهر الكتاب حتى الآن)، الأمر الذي يعكس العلاقة غير الندّية بين الحاكم والمثقف، مهما كانت الصلات وثيقة والعلاقات عميقة.

ولعلّ هذه العلاقة كانت موضوعاً لكتاب صدر بالإسبانية قبل سنوات وتُرجم إلى اللغة الإنكليزية مؤخراً بعنوان «فيدل وغابو» لمؤلفتيه أنجيل اسيبان (أستاذة الأدب اللاتيني في جامعة غرناطة) وستيفاني بانيتشيللي (أستاذة علم اللغات في الجامعة الكاثوليكية).

* * *

حروب سبعة، آخرها الحرية والحداثة!

شهد التاريخ الكوبي خلال القرن ونصف القرن الماضي عدداً من الحروب والنزاعات التي لا يزال المجتمع الكوبي يستذكرها، في الحانة والمقهى وعلى الجدار وفي الساحات والمتاحف واللقاءات والمحاضرات، حيث تتردد أسماء الأبطال على كل لسان. ويمتاز الكوبي بشكل عام بوطنية عالية، وبالقدر الذي يتسامح فيه مع نقد النظام وأحياناً كشف بعض عيوبه ومثالبه، إلّا أنه لا يقبل أن يكون جزءًا من الخطة الأميركية للإطاحة به على الرغم من معارضته له.

وإذا كانت الظروف القاسية وبعض الإجراءات التعسفية التي لجأت إليها السلطات الكوبية قد أجبرت أعداداً كبيرة وبمئات الآلاف إلى مغادرة كوبا، لاسيّما بفعل استمرار الحصار الأميركي، إلّا أن القسم الأكبر والساحق منهم لم ينخرطوا في العمل مع واشنطن ضد بلادهم، ولعلّ تجربة خليج الخنازير وأزمة الصواريخ وإحباط محاولات التسلل والغزو جعلت الكثير من الأوساط تعيد النظر لكي لا يتم استخدامها أو توظيفها تحت باب «التمرّد» أو«المعارضة» بأجندات خارجية.

وهناك داخل الولايات المتحدة بمن فيهم من المهاجرين من أخذ يتعاطف مع كوبا، بالرغم من أن أعدادهم قليلة، وإن كانت غالبيتهم ضد النظام القائم. وتكشف مسألة اعتقال ومن ثم الحكم على خمسة من الكوبيين في المحاكم الأميركية، والذين مضى على وجودهم في السجن أكثر من أحد عشر عاماً أن بعضهم لم يعرف حتى كوبا وعاش في الولايات المتحدة، لكن قلبه كان في

كوبا حيث تعرّض زعيمها كاسترو لنحو 683 محاولة اغتيال. إن التوقف عند هذه المسألة هدفه تسليط الضوء على محاولات الاختراق والاختراق المضاد، من زاوية قانونية وسياسية، ولعلّ أبرز الحروب وأهمها هي:

الحرب الأولى- المتمثلة بمقاومة الاستعمار الإسباني منذ العام 1868 والتي استمرت حتى العام 1878، وقد أبدى فيها الكوبيون بسالة منقطعة النظير، وخسر فيها الغزاة الكثير من الأرواح والمعدّات من دون أن يتمكنوا من فرض «سيادتهم» الكاملة على كوبا، التي ظلّت عصيّة عليهم. أما الحرب الثانية فقد ابتدأت العام 1881 واستمرت لبضع سنوات، وهي استكمال وتوسيع للحرب الأولى. وكانت الحرب الثالثة منذ مطلع العقد الأخير من القرن الـ19، والتي قتل فيها الزعيم الوطني خوسيه مارتيه بعد أن جاء من هايتي، والحرب الرابعة فهي حرب أهلية داخلية، بين نظام كان صنيعة لواشنطن وبين حركة ثورية استطاعت استقطاب جمهور واسع لاحقاً، فكانت النخبة وسيطاً بين الشعب المستضام والوعي المفترض، الذي حاولت توظيفه لصالح الصراع.

أما الحرب الخامسة التي لا تزال مستمرّة فهي حرب السلطة الثورية ضد الثورة المضادة المدعومة أميركياً، وإنْ استطاعت الثورة التقدم بتحقيق إنجازات اجتماعية وتنموية مهمة، لكن حقل الحريات واحترام حقوق الإنسان، بحاجة إلى إعادة نظر، لاسيّما موضوع الإقرار بالتعددية وحرية التعبير وحق الاجتماع والاعتقاد والتنظيم والمشاركة؛ فقد أدى التضييق على هذه الحقوق إلى استثمار الثورة المضادة، لهذه الثغرات والمثالب، وهو أمرٌ لو استمرّ دون مراجعة ومعالجة إيجابية، فإنه سيؤدي إلى تفتيت القاعدة الداخلية الأساسية للثورة، ولا يمكن لأية ثورة أن تستمر دون حريات الناس وحقوقهم وقناعاتهم، فهم المستفيدون من أية ثورة، مهما تحققت بعض المكتسبات الاجتماعية، فيما يتعلق بالعمل والصحة والتعليم والضمان، ولعلّ تجربة البلدان الاشتراكية وبعض أنظمة العالم الثالث دليل على ذلك.

أما الحرب السادسة فهي الحرب ضد الحصار الأميركي الجائر، المفروض

على كوبا منذ 50 عاماً، أي منذ العام 1960 في عهد الرئيس كينيدي الذي فرض حظراً على السلاح، ثم أصبح شاملاً لجميع مرافق الحياة، ابتداءً من قلم الرصاص وحتى آخر متطلبات الحداثة، بما فيها من انتقال الأشخاص والأموال والسفر والزيارات والاتصال الثقافي والعلمي وغيرها. وعلى الرغم من أن تخفيفاً نسبياً قد بدأ في عهد الرئيس أوباما بشأن الاتصالات وتحويل الأموال والزيارات، مع لغة امتازت بالمرونة، فإن السياسة العامة لا تزال تندرج في إطار لغة الحرب والتهديد واحتمالات الغزو والتدخل بالشؤون الداخلية، وإن اختلفت منطقة التدخل ففي خطة أيزنهاور كانت ميناء ترينداد Trinidad الذي زرته وأنا في طريق عودتي من سانتا كلارا، ثم أصبحت في عهد كيندي ميناء بيك PIG وتطور الأمر إلى أزمة خليج الخنازير، ومن ثم إلى أزمة الصواريخ الشهيرة، وكان خيار واشنطن حتى نهاية عهد الحرب الباردة يقوم على الحصار والاحتواء عبر الصراع الأيديولوجي والضغط العسكري والسياسي والعقوبات الاقتصادية وتشجيع قوى الثورة المضادة.

أما بعد العام 1991 وتفكك الاتحاد السوفييتي، فقد أخذت الولايات المتحدة في تصعيد نبرتها والتهديد بالغزو مرّة أخرى، لاسيّما خلال عهد الرئيس بوش واستخدام عصا الحصار لتركيع كوبا التي ظلّت تعاني وتنزف بصمت، وما كان يُحسب لها مثل القضاء على الأمية ونشر التعليم والرعاية الصحية والضمان الاجتماعي والقضاء على البطالة، أصبح غير كاف، لاسيّما في خضم المعركة الجديدة القائمة وتحدّيات التنمية وتزايد حاجات الإنسان في ظل العولمة والحداثة، وانعكاس ذلك على مسألة احترام حقوق الإنسان والإقرار بالتعددية وتوسيع دائرة الحريات.

المعركة الجديدة القائمة والتي سيتوقف عليها مصير كوبا ومستقبل نظامها السياسي هي الحرب السابعة ونعني بها معركة كوبا مع الحداثة واستخدام العلّم والتكنولوجيا؛ فقد ظلّت كوبا إلى حدود غير قليلة وبسبب الحصار وعدم وجود إمكانات كافية، معزولة وتعاني من شحّ الموارد، الأمر الذي عطّل التنمية

وأضعف فرص الالتحاق بركب الحداثة والاستفادة من منجزاتها، إضافة إلى ضيق فسحة الحريات، حيث تعمّق الاحتقان الاجتماعي والهيمنة السلطوية، ولعلّ هذا يتطلب فحص وتدقيق الشعارات القديمة، لاسيّما بعد مرور 50 عاماً على الثورة، وإلّا فإن الثورة ستهلك بفعل عوامل داخلية لا محال، ناهيكم عن العنصر الخارجي الذي يحاول تفتيت أطرافها ليتمكن من اختراق قلبها والنفاذ إلى صميمها!

بعد العام 1991 غادر الروس على نحو شبه مفاجئ قاعدة لوردس بالقرب من هافانا، حتى من دون اتفاق مع الجانب الكوبي، وربما من دون كلمات وداع رسمية، الأمر الذي أضعف من إمكانات كوبا الاقتصادية والسياسية في مواجهة الحصار والتصدي لتحديات الولايات المتحدة. لقد خسرت كوبا حليفاً قوياً وكبيراً بالرغم من جميع التحفّظات ومحاولات فرض الهيمنة، حيث كان يمدّها بنحو مليون دولار يومياً ولمدة ثلاث عقود من الزمان تقريباً.

ولم يكن ذلك الخلل وحده هو السبب في الأزمة الراهنة، فقد أشرنا إلى شحّ الحريات، إضافة إلى الموقف السلبي من الدين الذي اتخذته الثورة، وأصبح سياسة رسمية، بحيث كان قلّة من المتدينين يدخلون الحزب ويحتلون مناصب عليا، وكان هذا التمييز سبباً في تهييج الكنيسة ضد الثورة واتخاذها مواقف مناوئة لها، وقد جرت محاولات أخيرة للانفتاح واحترام الطقوس والتقاليد الدينية، لكن الكثير من قوى الثورة المضادة، اختبأت تحت بعض العناوين الجديدة.

وكان من الأخطاء التي وقعت بها الثورة اللجوء إلى الصناعات الثقيلة وبناء مصانع للصناعات الكبيرة، الأمر الذي أدّى إلى تبديد طاقات اقتصادية وإنتاج سلع وبضائع لم تجد لها تصريفاً ولا حاجة للاستهلاك المحلي.

وتستغل بعض قوى الثورة المضادة اليوم، لاسيّما بعض رجال الأعمال الانفتاح النسبي الذي حصل بعد فترة انغلاق طويلة لإمرار دعوات لإعادة العلاقات مع إسرائيل، وأخذت بعض الجماعات تتستر للقيام بأعمال معادية

تحت تلك الحجة، حيث نشطت الدعاية الصهيونية المتسترة وراء شعارات أخرى.

إنّ الماركسيين وإنْ اختلفت مدارسهم وتوجهاتهم يتطلعون بقلق إلى التجربة الكوبية، وكيف يمكنها حسم معركة الحداثة والحرية، اللتين من دونهما لا يمكن تحقيق التنمية المنشودة المستدامة، وبذلك فهم ينظرون إلى الشجرة من منظار آخر، ويأملون أن تنضج تفاحتها لكي يقطفها الشعب الكوبي، لا أن تسقط في سلّة واشنطن التي تنتظرها منذ 50 عاماً، وذلك أحد تحديات الاشتراكية الراهنة، خصوصاً إذا استطاعت أن تنحى باتجاه صورتها الإنسانية المنتظرة!

«كوبا، أجمل أرض عرفتها عينا إنسان
كوبا، أرخص حسناء
كوبا، لا ترفض، تعطي من شاء
والناس عبيد فيها... إلّا الغرباء»!

(الشاعر الفلسطيني محمود درويش)

* * *

الوردة الخلاسية

لِمَ لا ترقصُ
قم وارقص معي السلّسا
قم ارقص
هنا الوردة
سمراءُ بيضاءُ
خلاسيةٌ
ناهدةٌ
فارسةٌ
منحوتة القدّ
من زبد البحر

* * *

كبايّيرا
تناديكَ وتدعوكَ
إلى حلبة الرقص
وتُرخي، لكَ،
مفترّة الثغر
عنان يديها

رقصة أم صلصةٌ
حارةٌ، حريفةٌ
كوبية مسكوبة
من قصب السكر
والعسل الصافي
ومن مشروب موهيتو
ومن فيها
ألذّ واشهى

* * *

صلصة في رقصة
نارية تعلو وتحلو
مذاقاً وعناقاً
وهمساً
وتذيب الجسم حتى
ليس يدري:
أهيَ رقصة سلّسا
أم هو الصّلصة فيها؟!

(الشاعر المغربي إدريس الملياني)

* * *

ملحق

رسالة الوداع من جيفارا إلى كاسترو

فيدل:

يحضرني في هذه اللحظة العديد من الأشياء، عندما تعارفنا في منزل ماريا أنتونيا، عندما اقترحت على المجيء، حيث تساءلنا ذات يوم عن الشخص الذي يمكن أن نخبره في حالة موت أحدنا (وصعقتنا) إمكانية حدوث ذلك بالفعل. بعد ذلك عرفنا، أنه كان مؤكداً، لأنه في الثورة أما النصر أو الموت (لو كانت حقيقية). ويمكث العديد من الزملاء على الطريق نحو النصر.

اليوم أصبح صوتنا أقل تأثراً لأننا أصبحنا أكثر نضجاً، لكن الحدث يتكرر. أشعر أنني قمت بالجزء الخاص بواجبي تجاه الثورة الكوبية في أراضيها وأودّعك، وأودع الأصدقاء، وأودّع شعبك الذي أصبح شعبي.

أتقدّم رسمياً باستقالتي من مهامي أمام إدارة الحزب، ومن منصبي كوزير، ومن رتبة القائد، ومن جنسيتي ككوبي. اليوم يجب أن لا تربطني أية صفة رسمية بكوبا، ما يربطني فقط روابط من نوع آخر لا يمكن لأحد أن يقطعها لأنها خارج نطاق التعيينات.

وإذا ما تذكّرت حياتي السابقة، فأعتقد أنني قد عملت خلالها بنزاهة وإخلاص لإحراز النصر الثوري.

ولعلّ خطئي الوحيد الخطير إلى حد ما، هو أنني لم أثق بك بشكل كبير منذ اللحظات الأولى في سيرا مايسترا Sierra Maestra، ولم أتفهم بالسرعة الكافية قدراتك القيادية والثورية.

لقد قضيت أياماً رائعة على الرغم من تذبذبات الألم والفرح خلال أزمة الكاريبي، إلّا أني وأنا بجوارك شعرت بفخر الانتساب إلى شعبنا.

دعني أعترف لك بأنك تألقت بشدة كرئيس للدولة وأشعر بالفخر أيضاً لأنك تابعت العمل باستمرارية ومن دون أية اهتزازة اضطراب، وملكت الأسلوب الأنسب في التفكير من خلال رؤية أصابت في تقدير الأخطار والابتعاد عنها وتحديد المبادئ والالتزام بها.

هناك أراضٍ أخرى في العالم تتطلب مني المشاركة بجهودي المتواضعة، وأعلم بأنك ملتزم بمسؤوليات جسام أمام شعبك لذا لا يمكنك أن توافق على أي التزام آخر يعيق مسيرتك، ومن هذا المنطلق فأنا أعلن لك أن لحظة فراقنا قد حانت.

تعرف أنني أعمل بمزيج من السعادة والألم، سأرحل من هنا تاركاً أنقى أحلامي البنّاءة وأحب الأشخاص إلى قلبي، وأترك شعباً تقبّلني كابن له وهذا ما يؤلمني.

في أراضي المعارك الجديدة سأحمل معي اليقين الذي غرسته فيّ، والروح الثورية لشعبي، والشعور بالالتزام تجاه أقدس الواجبات؛ ومحاربة الامبريالية أينما وجدت؛ وهو ما يقوي ويشفي بشدة أية جراح.

إذا ما وافتني المنية في أراضٍ أخرى، سيكون هذا الشعب وأنت خاصة آخر ما يمكن أن أفكر به. أتوجه إليك بالشكر على تعاليمك أيها النموذج الذي سأخلص له مدى العمر.

كنت وسأظل أنادي دائماً بالسياسة الخارجية لثورتنا، وأينما أكون سأشعر بمسؤولية كوني ثورياً كوبياً، وهكذا سأتعامل مع الآخرين

لم أترك لأولادي ولزوجتي أشياءً مادية ولا يحرجني هذا: يسعدني أن أكون هكذا. لن أطلب شيئاً لهم لأني على ثقة بأن الدولة ستكفيهم حاجتهم المعيشية والتعليمية.

لديّ الكثير كي أقوله لك ولشعبنا، لكنني أشعر بعدم جدوى ذلك، فالكلمات لن تعبّر عمّا أريده، ولن يفيد استهلاك الأحبار.

إلى النصر دائماً، وشعاري الوطن أو الموت.

لك مني حضن ثوري دافئ.

تشي

* * *

فهرست الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

فهرست الأماكن

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ي)

CUBA

THE AMBIGUOUS DREAM

vision after fifty years

BY

DR. A. HUSSAIN SHABAN

NB: The English text checked by Sawsan Shaban

The English Summary

Oh my Lord how beautiful this land is?!

This is the exclamation which Christopher Columbus repeated when his ship Santa Maria anchored at the Cuban coast on October 27, 1492.

I don't know why I regained this exclamation while I was departing the plane that had transported me from Paris the European zone to the American continent crossing the Atlantic Ocean which named by the Arabian historians "sea of darkness's", because this sea remained unknown for many centuries, and they thought that there was nothing behind that Earth, and anyone who has looked west from the northern coast of Portugal and seen the heavy cloud banks lying across the horizon will admit the name is well-suited to the Atlantic.

If we meditate the geographical map of Cuba, we'll see it resembles a floating alligator the tail approaching to Florida's coasts, and the head tuning upwards, the nose closer to Haitian coast overlooking Jamaica island. Cuba island is surrounded by vast 5000 kilometers of sea shores, it is also surrounded from the north by a hedge of several small islands which constituted an archipelago of islands including 13 bays.

Cuba has a population of 11 million most of them Hispanic, their dark color point out the multiple genesis of Cuban people who were subjected to Spanish colonization for many centuries.

Cuba is a flat ground with many valleys and gulfs, at the east you can recognize the famous Sierra Maestra Mountains the birth place where the Cuban revolution started.

Its climate is warm all year round; despite the high humidity the rain is tropical especially in autumn.

After the illness of comrade Fidel Castro I decided that it was the proper time to visit Cuba and discover the Cuban experience and its field closely with a realistic view before any changes would occur, I wanted to discover the true Cuban experience. I never listened or paid any attention to what the global media published and its negativity about Cuba, I desired to meet some Cuban colleagues and my friends old and new in this mysterious country.

However I had my views and opinions about socialist experiments and Cuba's government through my various readings and research rather than the global media. I lived in Prague in the 1970s, I also had the opportunity to visit a few socialist countries but I had come to the realization a long time ago that the socialism system would collapse one day.

I was present in Czechoslovakia and Berlin when the rapid last collapse step of the socialism system fell, and according to Sarter: the outer appearance to socialist experiment indicates that this experiment look strong as castles but truly it was very fragile.

Cuban socialism experience may differ from other experiences especially in procedure and the personal character of leaderships, but in fact it had the same protocol of other socialist countries.

Compounding of the suffering of Cuban people the US blockade which has been imposed on for five decades, depriving them of many basic

needs Cubans were suffering from poverty and destitution and yet the people are still listening to the speeches of their leaders promising them and ensuring them happiness and well-being

Although the Cubans experienced a long and enduring life, they still have a lot of hope in their hearts. The US blockade so far have not yet thought of possible solutions that take into consideration the human endurance capacity, or to create new ways of balancing the feelings of hope for a happy life and well-off and ample freedoms and social progress and human development process.

I've thought of so many tricky questions after my visit to Cuba and wondered "how people love their commanders Castro, Guevara, and San José Mart? whom promised the Cubans a future full of happiness while the US blockade just causes them poverty and destitution

I wondered who would come after Castro after eighty years, does bet comrades Cubans on some victories Latin enough?

In fact what encouraged and inspired me to start writing this book is when I watched the film entitled (the motorcycle diaries (The Motorcycle Diaries-directed by Brazilian (Walter Salles)and the scenario has been prepared by (Jose Rivery) the Mexican (Gael Garcia Bernal) role Guevara and Rodrigo Dela Cerna from Argentine role Granado Guevara's friend.

This film is produced 2004 and has reaped numerous international awards the most important of them is the Academy Award for 2005.

This production has participated in the global production of Argentina, Peru, Chile and the United States, Britain, Germany and France.

I didn't decide to publish a book about Cuba until I started to publish episodes in an Arab newspaper, and I thought I was going to only

publish three to five episodes, but in the end I submitted an article that had become 24 episodes, so I decided to rewrite the materials with expansion about Cuba and using my own vision after 50 years of emotion, where I addressed the book Cuba The Ambiguous Dream.

In this beautiful green paradise alienation exists because of the US blockade and the resource scarcity and the effects of the Cuban penal system and its repercussions on the level of the individual and the community, particularly in the psychological aspects.

My goal was to show the great untapped suffering of Cuban people. At the same time to demonstrate its ability to resist sorrows, calamities and afflictions. Despite everything the great Renaissance movement has achieved in literacy, education, medicine, sports, etc., but this alone is not enough, if we knew human physical and spiritual needs, especially the necessities to promote fundamental freedoms, and enter a world of modernity and development, particularly in the context of globalization and beyond then there would be more understanding and cooperation in a nation.

I tried to show the specifics of the Cuban experience, after the revolution's triumph, by highlighting the great affection of one of the greatest icons and symbols: Ernesto Che Guevara and his special relationship with Jamal Abdel Nasser, Ahmed Ben Bella, Mehdi Ben Barka.

Through personal influences, I tried to conjoin between intellectual and practical, political and cultural, between Kobe and Latino, equally with Socialist and humane...I stopped at the diary of the noble adventurer comparing Guevara &Rambo& Don Quixote, also between the legend of Marx's ghost and Guevara's Ghost,

I browsed through the social Cuban life through American novelist

Ernest Hemingway and pub Bodghita del Medio, by comparing and contrasting between Al Jawaheri and Hemingway, and then I touched upon the relationship between Castro, Abu Ammar and George Habash.

one can follow a special text mentioned the Cuban revolution relation with religion through a number of paragraphs labeled "Kingdom of Heaven & Earth", "Spirit and Religious Faith", Article: Religious dialogue with Marxist", "Church's Revolution" and finally "Castro and Religion".

Within the Arab Socialist experiment Cubans made corresponding with Yemeni Socialist experiment, from the Sierra Maestra Mountains to Havana, and from Radafan Mountains where crucial battles took a place to the besieged Aden in order to expel the British colonialists from Yemen, then I stopped when the collapse of the Eastern European systems and the concerns of Aden and Havana went into different paths despite having common challenges .Finally I attempted to touch the culture policy equation, by showing the relationship between Castro and Gabriel Garcia Marquez and between Abed Al Fattah Ismail with Adonis.

In the last paragraph of the book, I mention that Cuba had waded seven wars, but the most important is the last one which is the war for modernity and freedom.

صدر للمؤلف

في القانون والسياسة الدولية

- النزاع العراقي - الايراني، منشورات الطريق الجديد، بيروت 1981.
- المحاكمة - المشهد المحذوف من دراما الخليج، دار زيد، لندن، 1992.
- عاصفة على بلاد الشمس، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1994.
- بانوراما حرب الخليج، دار البراق، لندن - دمشق، 1995.
- الاختفاء القسري في القانون الدولي، شؤون ليبية، واشنطن - لندن 1998.
- السيادة ومبدأ التدخل الإنساني، جامعة صلاح الدين، أربيل (العراق) 2000.
- من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية واللاجنسية في القانونين العراقي والدولي، إصدار دار الكنوز الأدبية ومركز دراسات الشرق، بيروت، لبنان تموز (يوليو) 2002.
- الإنسان هو الأصل - مدخل الى القانون الدولي الإنساني، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، القاهرة، 2002.
- جامعة الدول العربية والمجتمع المدني - الاصلاح والنبرة الخافتة، دار المحروسة، القاهرة، 2004.
- إشكاليات الدستور العراقي المؤقت - الحقوق الفردية والهياكل السياسية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية(بالاهرام)، كراسات استراتيجية، العدد 140، القاهرة، حزيران (يونيو)2004.

- العراق: الدستور والدولة، من الاحتلال الى الاحتلال، دار المحروسة، القاهرة، 2004.
- جذور التيار الديمقراطي في العراق، دار بيسان، بيروت، 2007.
- المعاهدة العراقية - الامريكية: من الاحتلال العسكري الى الاحتلال التعاقدي، المركز العراقي للدراسات الستراتيجية، عمان، 2008.

في الصراع العربي - الاسرائيلي

- الصهيونية المعاصرة والقانون الدولي، ط 1، مركز الدراسات الفلسطينية، ط2، دار الجليل، دمشق 1985.
- سيناريو محكمة القدس الدولية العليا، شرق بريس، نيقوسيا، 1987.
- القضايا الجديدة في الصراع العربي - الاسرائيلي، دار الكتبي، بيروت، 1987.
- الانتفاضة الفلسطينية وحقوق الانسان، دار حطين، دمشق، 1991.
- المدينة المفتوحة - مقاربات حقوقية حول القدس والعنصرية، دار الاهالي، دمشق، 2001.
- لائحة اتهام- حلم العدالة الدولية في مقاضاة اسرائيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.

إسلام وقضايا فكرية

- الصراع الأيديولوجي في العلاقات الدولية، دار الحوار، اللاذقية، 1985.
- قرطاجة يجب ان تدّمر، فصول من الحرب الأيديولوجية، دار صبرا، نيقوسيا- دمشق، 1985.
- أمريكا والإسلام، دار صبرا، نيقوسيا - دمشق، 1987.

- الإسلام وحقوق الانسان، مؤسسة حقوق الانسان والحق الانساني، بيروت، 2001.
- الإسلام والإرهاب الدولي - ثلاثية الثلاثاء الدامي، الدين - القانون - السياسة، دار الحكمة، لندن، ايلول (سبتمبر) 2002.
- فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي - الثقافة والدولة (مقدمة المطران جورج خضر) دار النهار، بيروت، 2005.
- تحطيم المرايا- في الماركسية والاختلاف، الدار العربية للعلوم (ناشرون) ومنشورات الاختلاف (الجزائر)- حوار وتقديم خضير ميري، بيروت، 2009.
- الصوت والصدى - حوارات ومقابلات في السياسة والثقافة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010.

ثقافة وأدب

- الجواهري في العيون من أشعاره (بالتعاون مع الشاعر الكبير الجواهري)، دار طلاس، دمشق، 1986.
- بعيداً عن أعين الرقيب: محطات بين الثقافة والسياسة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1994.
- الجواهري - جدل الشعر والحياة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1997.
- أبو كاطع - على ضفاف السخرية الحزينة، دار الكتاب العربي، لندن، 1998.
- سعد صالح- الضوء والظل، الوسطية والفرصة الضائعة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2009.
- جدل الهويات في العراق: المواطنة والدولة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2009.

ترجمـــات

- مذكرات صهيوني، دار الصمود العربي، بيروت، 1986.

صدر عنه (كتاب تكريمي)

- عبد الحسين شعبان: صورة قلمية - الحرف والحق والانسان، دار المحروسة، القاهرة، جمع واعداد البرنامج العربي لنشطاء حقوق الانسان، القاهرة، 2004.

إعداد وكتب مشتركة

- حرية التعبير وحق المشاركة السياسية في الوطن العربي (اعداد وتقديم) دار الكنوز الادبية، بيروت، 1994.
- ثقافة حقوق الانسان (تحرير وتقديم)، وقائع خمسة ملتقيات فكرية للمنظمة العربية لحقوق الانسان في لندن اصدار البرنامج العربي لنشطاء حقوق الانسان والمنظمة العربية لحقوق الانسان - لندن، القاهرة، 2001.
- العراق تحت الحصار (بمشاركة الدكتور عزيز الحاج، النائب جورج غالوي والدكتور وميض جمال عمر نظمي) مركز البحوث العربية، اعداد حنان رمضان خليل، القاهرة، 2001.
- لمحات من تاريخ الحركة الطلابية في العراق، اصدار مطبعة طريق الشعب، بشتاشان، كردستان (العراق)، نيسان (ابريل)، 1983.
- الوجود الامبريالي في الشرق الاوسط: مظاهره ومخاطره، منشورات الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دمشق، 1986.
- الديمقراطية والاحزاب في البلدان العربية: المواقف والمخاوف المتبادلة، مشروع دراسات الديمقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.

- سؤال التسامح (دراسة وحوار مع الباحث) ومشاركة عدد من أساتذة الجامعة ومدراء مراكز الابحاث في الاردن، اعداد وتقديم الدكتور نظام عساف، مركز عمان لدراسات حقوق الانسان، عمان، مطبعة الشعب (أربد)، 2003.
- مداخل الانتقال الى الديمقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تشرين الاول (اكتوبر) 2003.
- برنامج لمستقبل العراق بعد انهاء الاحتلال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005
- حال الامة العربية 2005، النظام العربي: تحدي البقاء والتغيير - مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نيسان / ابريل2006.
- حال الامة العربية 2006-2007، أزمات الداخل وتحديات الخارج، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، آذار/مارس 2007.

الموقع الفرعي في الحوار المتمدن: http://www.ahewar.org/m.asp?i = 1007

المحتويات

هذا الكتاب

حاولت من خلال انطباعاتي الشخصية، الجمع بين ما هو فكري وما هو عملي، وبين ما هو سياسي وما هو ثقافي، وبين ما هو كوبي وما هو أمريكي لاتيني، وبالقدر نفسه مع ما هو اشتراكي وإنساني. ولم أتوقف عند الصورة النمطية (التبشيرية)، بل سعيت لنقد التجربة من داخلها..!

توقفت عند يوميات المغامر النبيل مقارناً بين جيفارا ورامبو ودون كيشوت، بين شبح ماركس أو أسطورته وبين شبح جيفارا وأسطورته، ولم أنس أن أشير إلى بعض تأثيرات جيفارا العربية والعراقية إضافة إلى التأثيرات العربية على رؤيته، لاسيّما من خلال علاقته بعبد الناصر وبن بيلا وبن بركة، من حيث أحلام الكبار وقلقهم وهواجسهم وعنفوانهم، وتغريدهم خارج السرب أحياناً وغيابهم المبكر.

كما توقفت عند الحياة السيسيوثقافية الكوبية من خلال الروائي الأمريكي أرنست همنغواي وحانة بودغيتا دل ميديو، وحاولت استذكار ما بين الجواهري وهمنغواي، ثم عرّجت على علاقة كاسترو بأبي عمار وجورج حبش.

وأفردت فقرة خاصة لعلاَقة الثورة الكوبية بالدين عنونتها «ملكوت السماء وملكوت الأرض» و«الاشتراكية والإيمان الديني» و«الروح والمادة: حوار المتدينين مع الماركسيين» و«الثورة والكنيسة» و«كاسترو والدين».

وهتفت مع كريستوفر كولومبوس «يا الله ما أجمل هذه الأرض؟!»

من المقدمة

الدكتور عبدالحسين شعبان، ولد في مدينة النجف الأشرف ـ العراق في العام 1945.

درس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة بغداد ونال درجة البكالوريوس، وأكمل دراساته العليا في براغ في جامعة 17 نوفمبر وجامعة تشارلس (كلية الحقوق) وأكاديمية العلوم التشيكوسلوفاكية (معهد الدولة والقانون) وحاز على درجتي الماجستير والدكتوراه (مرشح علوم) في فلسفة القانون (القانون الدولي).

أكاديمي ومفكر عراقي، وهو ينتمي إلى الجيل الثاني للمجددين العراقيين. ماركسي الانتماء لكنه لم يتقيد بتعاليم المدرسة الماركسية التقليدية، وكانت له مساهمات ودراسات في إطار تجديد ونقد المدرسة الاشتراكية منذ أوائل الثمانينيات، وهو ما عكسته مؤلفاته وكتبه. خصوصاً اهتماماته بقضايا الديمقراطية والتنمية والمجتمع المدني، وقد بلور رؤيته حول الماركسية الوضعية النقدية في كتاب نقدي صدر له مؤخراً بعنوان «تحطيم المرايا – في الماركسية والاختلاف».

ISBN 978-9953-71-685-5